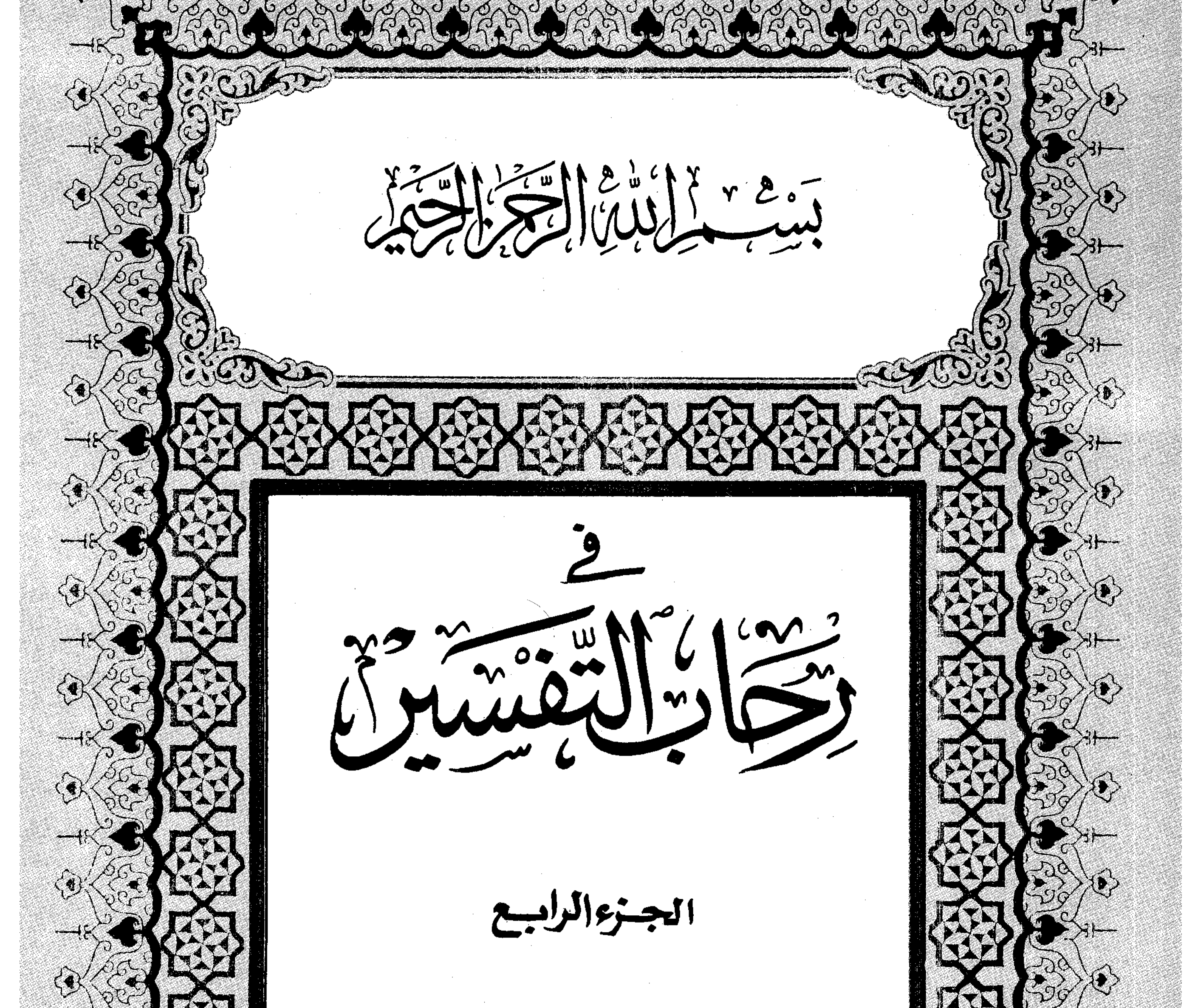


في رحاب التفسير

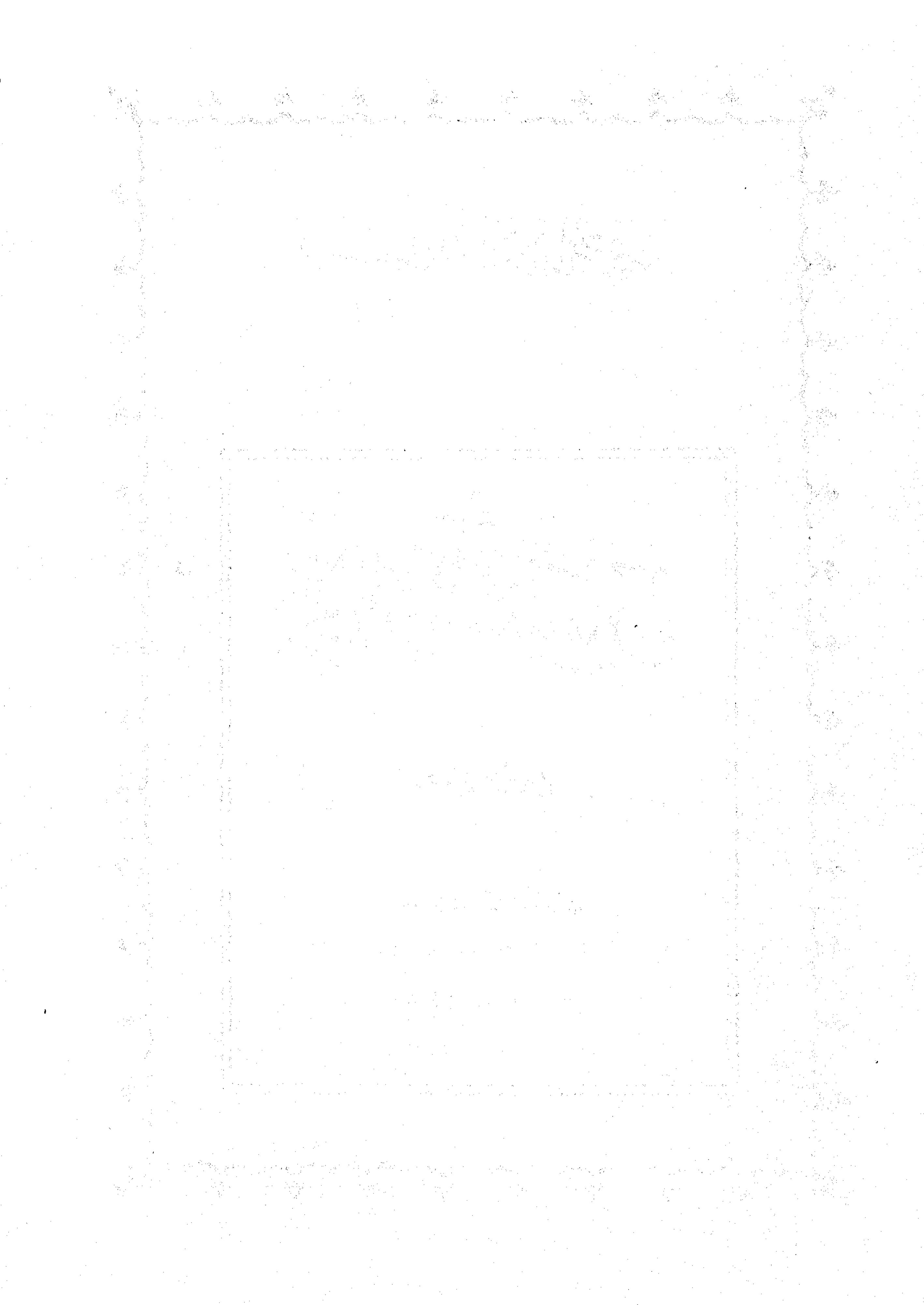
الجزء الرابع

سورة آل عمران

من الآية رقم ٩٣ / ٢٠٠

سورة النساء

من الآية رقم ١ ٢٣



فرية اليهود فى تحريم بعض المطعومات

* ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

المفردات : ﴿ الطعام ﴾ المراد به المطعومات كلها وكثر استعماله فى الخبز والبر ، ﴿ حلا ﴾ حلالاً ، ﴿ إسرائيل ﴾ لقب يعقوب بن إسحق ، ومعناه الأمير المجاهد مع الله ، ثم شاع إطلاقه على جميع ذريته ، وهو المراد هنا . ﴿ افترى ﴾ اختلق وكذب ، ﴿ حنيفاً ﴾ : مائلاً عن الباطل إلى الحق .

مازال النص الكريم يحدثنا عن مكائد اليهود للإسلام ونبى الإسلام ، وهذه الآيات التى بين أيدينا تدحض شبهة أثاروها ضد نبى الإسلام ﷺ ؛ إذ قالوا : لو كان محمد نبياً حقاً ما استحل لنفسه الطعام الذى حرمه الله على إبراهيم ويعقوب ؛ مثل لحوم الإبل وشحوم البقر والغنم فجاء الرد مفحماً لهم .

إذ أن كل الطعام كان حلالاً لبنى إسرائيل ، قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ، فلم يكن هناك طعام حرمه الله على إبراهيم أو إسحق أو يعقوب ، إنما حرم الله على إسرائيل أى شعب إسرائيل ما حرمه من الطعام فى قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾(١) ثم ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾(٢) ثم قوله سبحانه لرسوله الكريم : ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾(٣) فكل الطعام قبل أن تنزل التوراة كان حلالاً لإبراهيم وإسحق ويعقوب ، أما قوله تعالى : ﴿ **إلا ما حرم إسرائيل على نفسه** ﴾ . أى إلا ما حرم شعب إسرائيل ؛ أى كان سببا فى تحريمه على نفسه ، بما اقترفوه من ظلم وبغى ، وهذا صريح قوله جل شأنه : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ﴾(٤) فالباء هنا فى قوله تعالى : فبظلم ، وبصدهم تفيد السبب أى بسبب ماظلموا وما صدوا ،

(١ ، ٢) من الآية : ١٤٦ من سورة الأنعام .
(٣) الآية : ١٤٧ من سورة الأنعام .
(٤) الآية :١٦٠ من سورة النساء .

جزيناهم فحرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ؛ عقوبة رادعة لعلهم يتقون وينتهون ، ومن هنا فقد ثبت أن ادعاءهم فرية ما فيها مرية ؛ فما استحل رسول الله ﷺ شيئاً من الطعام كان محرماً على إبراهيم ، ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ **فأتوا بالتوراة فاتلوها** ﴾ وسوف تتبينون صدق قولنا ، ومع ذلك ، لم يجرؤوا أن يأتوا بالتوراة ؛ وتلك عادتهم ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾[1] ثم جاء قوله تعالى بعد ذلك ، بعد إقامة الحجة عليهم ودحض شبههم : ﴿ **فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون** ﴾ وأى إنسان أشد ظلماً ممن كذب على الله وافترى وظل سادراً فى غيه وطغيانه ، إنه الظلم المبين وهم أهل الظلم ، والظلم فى دمائهم .

ثم بعد ذلك ذكر مكانة البيت الحرام ، وتشريف الله لإبراهيم فقال : ﴿ **قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً** ﴾ فإبراهيم هو أبو الأنبياء كان من ذريته إسماعيل وإسحق وأنبياء بنى إسرائيل من ذرية إسحق . . ومن ذرية إسماعيل ، جاء خاتم الأنبياء ، فإن كنتم صادقين أيها اليهود فى ادعائكم محبة إبراهيم ، ﴿ **فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا** ﴾ ولا تفتروا على نبينا كذباً ، ﴿ **وما كان** ﴾ إبراهيم ﴿ **من المشركين** ﴾ ، بل كان مسلماً موحداً مخلصاً . ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾[2] .

البيت الحرام والحج

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

المفردات : ﴿ **بكة** ﴾ : أى مكة والعرب كثيراً ما تبدل الباء ميماً وبالعكس . ﴿ **مباركاً** ﴾ : كثير الخيرات والبركة ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾ : موضع قيامه وعبادته ﴿ **حج** ﴾ الحَج . . والحج : القصد ، وفى الشرع : قصد بيت الله الحرام للنسك .

هذه هى الشبهة الثانية التى آثارها أهل الكتاب ؛ تكذيباً للنبى ﷺ فى دعوى : أنه على ملة إبراهيم : كيف تدعى أنك على ملة إبراهيم ، وأنك أولى الناس به ؛ وإبراهيم وإسحاق والأنبياء بعدهم كانوا يعظمون

---

(١) الآيات : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ من سورة النور .
(٢) الآية : ٦٨ من سورة آل عمران وقد سبق تفسيرها .

بيت المقدس ، ويصلون إليه ، فلو كنت على ما كانوا لعظمته ، ولما تحولت إلى الكعبة فخالفت الجميع ، والآية الكريمة تزيل الشبهة بأوضح بيان .

فى قوله تعالى : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة** ﴾ ، رد على اليهود الذين أثاروا الشبه المريضة ضد نبى الإسلام ، فإنه ﷺ لما أمره الله تعالى بالصلاة جهة الكعبة المشرفة وتحولت القبلة من بيت المقدس ، قال : ﴿ السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾[1] وقالوا : لوكان محمد على ملة إبراهيم ما تحول عن بيت المقدس الذى توجهت إليه الأنبياء من ذرية إبراهيم ، فجاء الرد صريحاً وواضحاً ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[2] وأى شىء فى تحويل القبلة وهل العبرة بالمشرق والمغرب ؟ .

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾[3] فهل آمنتم بالنبيين وأقررتم برسالة خاتم النبيين . قال تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾[4] وأى القبلتين أولى ؟ أليس البيت الحرام أول بيت وضع للناس ؟ أليس إبراهيم وإسماعيل هما اللذان قال الله فى شأنهما : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾[5] إنه بيت مبارك قال الله فى بركته : ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[6] فتأمل معى جلال الله وسعة رحمته !! بيت يبنى فى صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء ؛ تصله الثمرات والفواكه رطبة ندية ؛ كأنها زرعت فيه ، بيت قال إبراهيم فى دعوته لربه : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[7] بعد أن دعا له بالأمن : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾[8] فإذا ما وقفت فى محراب الآيتين ؛ علمت أن دعوة الأمن قدمت على آية الثمرات ، وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الأمن أعظم نعمة من الثمرة ؛ فحياة غير آمنة فزع وقلق وجحيم مستعر ؛ قال الله تعالى فى آية من سورة النحل : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴾[9] فقدم الأمن والطمأنينة على الرزق الرغد ، فما بالك إذا جمع الله لهذا البيت وهذا البلد الأمن والطمأنينة وتجبى إليه الثمرات ؛ ثمرات كل شىء ، اجتمعت النعمتان العظيمتان الأمن والثمرات ، وهذا البيت فيه هدى للعالمين . حيث من أتاه وطاف به شرح الله صدره وهدى قلبه ، إن الله ينزل كل يوم على حجاج بيته عشرين ومائة رحمة ، ستين للطائفين وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين ، وفى هذا البيت آيات بينات ، ودلائل قاطعات على مكانة إبراهيم ، ففيه المقام ، أى المكان الذى كان إبراهيم يقوم فيه يعبد الله تعالى ، ونزل

(١ ، ٢) الآية : ١٤٢ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ١٧٧ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ١٤٣ من سورة البقرة .
(٥) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .
(٦) من الآية : ٥٧ من سورة القصص .
(٧) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .
(٨) الآية : ٣٥ من سورة إبراهيم .
(٩) من الآية : ١١٢ من سورة النحل .

الحكم فى القرآن باتخاذ هذا المقام مصلى . . قال تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[١] وجاء هذا الحكم مؤيداً لاستشارة عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عندما قال : « ماضر لو صلينا فى مقام إبراهيم » فأى شىء يؤخذ على نبى الإسلام عندما يتوجه إلى أول بيت وضع للناس . إن تحويل القبلة له حكمته وشرفه .

تحويل القبلة*

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[٢] .

هذه الآية الكريمة فى شأن القبلة الإسلامية نقطة التحول بين عهدين من التشريع :

(تشريع مؤقت) كانت فيه القبلة إلى بيت المقدس ، وذلك منذ قدم رسول الله ﷺ المدينة فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول من السنة الأولى من الهجرة إلى نصف رجب من السنة الثانية ، وجملة ذلك ستة عشر شهراً وثلاثة أيام .

(وتشريع ثابت دائم) أصبحت به القبلة هى الكعبة البيت الحرام ، وذلك من نصف رجب المذكور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[٣] .

والذى يقرأ هذه الآية وسابقاتها ولاحقاتها ، يلمس مقدار عناية القرآن بشأن هذا التشريع وأطواره ، ففى بضع وعشرين آية ؛ يبسط القرآن قضية القبلة ويفصل فيها الفصل النهائى ، بعد أن يمهد لهذا الفصل تمهيداً شافياً كافياً .

تبدأ الآيات الكريمة بذكر إبراهيم عليه السلام وأن الله جعله إماما للناس وأمره ببناء البيت المطهر وجعله مثابة للناس وأمنا ومطافا ومصلى ، وبعد أن تقص الآيات كيف أن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قاما برفع قواعد البيت كما أمر الله ، وبعد أن تنبه إلى الصلة الروحية والصلة النسبية بين هذين الإمامين ونبى الإسلام ؛ تشير إلى أن تحول المسلمين عن قبلتهم السابقة المؤقتة إلى قبلة إبراهيم وإسماعيل سيثير عند خفاف الأحلام وضعاف العقول شيئاً من الريب والشكوك ، ثم تكر الآيات على هذه الشبهات نقضاً ودحضا ، مجلية وجه الحق فى هذا التشريع ، ثم تخلص من ذلك كله إلى إصدار نطقها الحاسم فيه :

---

(١) من الآية : ١٢٥ من سورة البقرة .

(*) استطراد من المؤلف بمناسبة الحديث عن البيت الحرام كأول بيت وضع للناس .

(٢) من الآية : ١٤٤ من سورة البقرة .

(٣) لم تتفق الأخبار على النصف من رجب كتاريخ لتحويل القبلة فقد روى أبو حاتم البستى ، صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام ، وذلك أن قدومه المدينة كان يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وأمره الله عز وجل باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان .

﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[١] ولا تكتفى بإصدار هذا الأمر السماوى مرة واحدة بل نراها تكرره وتؤكده ثلاث مرات فى آيات متقاربة متوجهة إلى الرسول تارة وإلى المؤمنين تارة أخرى .

ترى ما سر هذا الاهتمام البالغ بتغيير القبلة وتوحيدها ؟ وما سر هذا التطور فى تشريعها ؟ لماذا لم يكن نظام الصلوات كنظام الدعوات المأثورة ، التى لا يشترط فى صحتها ولا فى قبولها أن يتخذ الداعى وضعاً خاصاً من الأوضاع ، ولا أن يلزم أسلوباً معيناً من الأقوال والأفعال ، ولا أن يتجه إلى جهة معينة من الجهات ؟ ولماذا كانت الجهة هذا البيت أو ذاك ؟ ولماذا جعلت عامة للأمة كلها أفرادًا وجماعات ؟ أليست الصلاة صلة بين العبد وربه ؟ أليست كل وظيفتها تحقيق هذه العبودية للرب والتماس المعونة منه ؟ أو ليس الله يسمع لمن حمده على أى وضع كان ، ويستجيب لمن يدعوه حيثما توجه ؟ ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[٢] .

هذه أسئلة تجول بالخواطر ولكنها لا تلبث بعد قليل من التأمل أن ينجلى وجه الحكمة فيها ؛ أجل إن قليلاً من التأمل يهدينا إلى أن الله جلت حكمته حين شرع الصلاة على هذا الوجه الموحد فى أسلوبه وصورته ، وحين نصب لنا فيها إماماً نبياً نقتدى به وبمن ينوب عنه ، وحين أقام لنا بيتاً نتوجه إليه فيها بوجوهنا ، ونحج إليه بقلوبنا وبأبداننا ، أراد بذلك كله أن تكون الصلاة عبادة جامعة بين علاقتى الايمان : المحبة لله ، والمحبة فى الله ، أراد ألا تكون الصلاة صلة واحدة ؛ بل مجموعة من الصلات ، صلة بين العبودية ، وصلة بينه وبين أئمته من المرسلين ، أو ممن يحمل رسالتهم ، وصلة بينه وبين إخوانه المؤمنين ، هذه الرابطة الروحية المثلثة بين المصلى وبين ربه وبين إمامه وبينه وبين سائر المأمومين . هذه الرابطة الروحية كثيراً ما تتمثل فى صورة مجسمة ، فى جماعة حاضرة نراها رأى العين ، ونحس فيها تزاحم المناكب وتجاوب الأصوات ، وتناسق الحركات والسكنات ، حتى إذا غابت هذه الجماعة عن الأبصار ، فإنها لن تغيب عن البصائر ؛ وإذا تجردت من الأشباح فإنها تبقى ماثلة فى القلوب والأرواح ، ومن ثم لا ينبغى للذى يصلى فى خلوته أن يظن نفسه منفرداً فى موقفه ؛ كلا بل يذكر أن عن يمينه وعن شماله ، ومن أمامه ومن خلفه ، ألوفاً من الصفوف فى مشارق الأرض ومغاربها ، يشدون أزره ويؤ يدونه فى جوهر مطالبه ، إنهم معه يستقبلون قبلته ذاتها ويرددون مقالته عينها ، إنه ليس فيهم من يقول : « إياك أعبد وإياك أستعين » بل كلهم يقولون : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ . ليس فيهم من يقول : « اهدنى » بل كلهم يقول : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وليس فيهم من يقول (السلام علىّ) بل كلهم يقول : (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)[٣] .

هكذا ينبغى لكل مصلٍ أن يعد نفسه عضواً فى وفد الرحمن ، لا يناجى ربه بلسانه بل بلسان إخوانه المؤمنين الحاضرين منهم والغائبين ، ألا وإن الوحدة التى يرمى هذا التشريع إلى تحقيقها لأوسع مجالاً وأبعد

---

(١) من الآية : ١٤٤ من سورة البقرة .
(٢) من الآية : ١١٥ من سورة البقرة .
(٣) من الشق الأول من التشهد فى الصلاة .

مدى من أن تقف عند حدود الجيل الحاضر ؛ إنها تريد أن تنتظم فى سياج واحد كل أهل القبلة من الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلة ، بل نقول إنها أوسع رقعة من أن تقف عند عصر النبوة المحمدية ، إنها تتجاوز ذلك العصر إلى عصور النبوات الأولى ، ذلك أن الشريعة المحمدية لم تنشىء هذه القبلة إنشاءً ، وإنما جاءت مصدقة مقررة للقبلة التى أسستها النبوات السابقة ، وهذا من أوضح الأدلة على سماحة الإسلام ، وسعة أفقه ، وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين ، وتوحيد رابطة المؤمنين بالأديان السماوية كلها .

ولقد حقق الإسلام هذه الوحدة على مرحلتين متصاعدتين : ففى المرحلة الأولى انضم إلى صف إخوانه من الأنبياء السابقين ، وفى المرحلة الثانية والأخيرة صعد إلى الأصل الأصيل إلى الكعبة التى هى أول بيت وضع للناس ، منضماً بذلك إلى صف أبى الأنبياء الذى يؤمن كل أهل الأديان به وبقبلته ، وإن لم يستقبلوها فى صلاتهم .

أما بعد فقد كبر هذا التحويل على كثير من الناس وحسبوه لهواً وعبثاً أو حيرة وتردداً ، وما هو بعبث ولا تردد ، وإنما هو التصميم الأول نفسه يسير صاعداً نحو الهدف الأخير ، ولقد سماه علماء الظاهر نسخاً ، وما هو بنسخ إلا فى الصورة والرسم ، أما فى جوهره فهو التدرج فى توحيد كلمة الأديان ، أرأيت الولد البار حيث يسير قاصداً إلى بيت أبيه فإذا مر فى طريقه على بيت إخوته فإنه يأبى إلا أن يعرج عليهم ليقيم بينهم فترة ما ، تطييباً لخاطره ثم يكون مستقره فى البيت المشترك ، الذى يحمل اسم الأسرة كلها ، فذلك مَثَلُ التطور الذى حدث فى تشريع القبلة ، فبيت المقدس هو بيت الإخوة ، والكعبة هى بيت رأس الأسرة وهى منزل الجد الأعلى ، وإذا كان من مفاخر الإسلام أنه جمع بين القبلتين ؛ فإنه لم يكن همه ذات القبلة فى الأولى ولا فى الثانية ، وإنما كان همه أول الأمر وآخره هذا الانضمام والالتحام بين أسرة المؤمنين فى وحدة القصد والتوجه إلى المعبود الأعلى ، تحت لواء النبيين المرسلين : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾[1] ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[2] .

« اللهم اهدنا صراطك المستقيم وزدنا هدى ، آمين » .

مكة وطن روحى لجميع المسلمين[3]

أيها الحجاج الأبرار :

هذا حرم الله تفتح لكم سماؤه تكريماً لوفودكم ، وتتطامن لكم أرضه ترحيباً بقدومكم ، وهذه ملائكة الرحمن تستقبلكم وتحييكم وتقود خطاكم وتهديكم أيها الضيف المكرمون : حنان ما أتى بكم اليوم ها هنا فى هذا القيظ الملتهب هواؤه ، المحترقة رمضاؤه أعلن حين يتهيب الناس فى بيوتهم أن يخرجوا من الكن إلى

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء .
(٢) من الآية : ١٤٢ من سورة البقرة .
(٣) استطراد من المؤلف تال للاستطراد السابق .

الضح ، وأن يتعرضوا للفح الريح فى الوقت الذى يخرج فيه القادرون على السعى إلى مرابع الظل الظليل ، ومساقط النسيم العليل ، فى مناطق الشمال وعلى شواطىء البحار ، تقبلون أنتم ضاحين فى العراء ضاربين فى أحشاء الصحراء ، تكابدون عناء الحل والارتحال ، تخوضون بحاراً من العرق والغبار ، فى بلد غير ذى زرع ولا قطر ، هلا أجلتم هذه الرحلة القاسية لمدة أخرى من السنين ، حتى يدور الزمان دورته ، فيجىء موسم الحج فى الشتاء ، أو فى الربيع . . هكذا يخوف الشيطان أولياءه ويخذل الضعفاء من أعدائه وهكذا يفكر أولو النعمة والمترفون فى كل أمة ، أما أنتم فقد سخرتم من كل هذه المعوقات والمثبطات ، إن حرارة الطبيعة قد انمحت وانهزمت أمام حرارة إيمانكم ، وإن وعورة السفر قد ذللتها صلابة عزائمكم ، وهكذا برهنتم على أن الإنسان ليس هو هذا الهيكل الحسى ، الذى تدركه الأبصار ، وأن قيادته وتصريف زمامه ليس كما يزعم الجاهلون بيد تلك القوى الطبيعية كلها بدنية كانت أو كونية ، برهنتم على أن فى الإنسان جوهرة أخرى أعظم من أن ينالها الحس ، السلطان فى الحقيقة سلطانهم والأمر النافذ على الجوارح هو أمرهم ، تلك هى المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب .

لقد شعرتم إذن بنداء الواجب يتردد صداه بين جوانحكم ، فلم يسعكم إلا أن أجبتموه سراعاً : لبيك . . لبيك لا نعرض محجمين ، ولا نقعد متثاقلين ، كذلك يفعل أولو الحزم والعزم ، هم أبداً سباقون إلى الخير مسارعون إلى البر ، لا يحتمل النداء الواجب عندهم تسويفاً ولا تأجيلاً ، ولا يبالون فى سبيله ما يبذلون من جهد وتضحية ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ﴾[1] فيه ﴿ ظمأ ولا نصب ولا مخمصة ﴾[2] ، ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾[3] ووفوا عليه جزاءهم . ألا فليكن فى سبيل الله ما كابدتم وتكابدون وفى صحيفة الحسنات ما بذلتم وتبذلون ؛ وليكن جزاؤكم عند الله موفوراً وسعيكم لديه مشكوراً ، أيها الضيف المكرمون ، لاتحسبوا حين أدعوكم باسم الضيف المكرمين ، أنى أعدكم ضيفاً ها هنا على أحد من البشر ، فإنما أنتم وفد الله وضيف الرحمن ، إنكم ها هنا لستم بدار غربة ولكنكم فى أرضكم ودياركم لئن كنتم قد فارقتم أوطانكم الخاصة المتفرقة ؛ لقد حللتم هنا فى وطنكم المشترك الجامع ، هذا هو البلد الحرام الذى جعله الله ﴿ للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾[4] فالمسلمون فيه سواسية : المقيمون والقادمون إليه ، لهم جميعا حق مشاع من مناسكه ومشاعره وآثاره ومعالمه ، لا ينازع فيه أحد أو تستأثر به أمة دون أمة ، أيها الحجيج البررة : كم تشاهدون ها هنا من آيات بينات ، وكم تستعيدون ها هنا من ذكريات محببات إلى القلوب ، ها هنا هبط الوحى من السماء ، ها هنا استوطن الأنبياء ، ها هنا بزغ نور الإسلام ، ها هنا مشى محمد ﷺ وصحبه ، ها هنا انتصر الحق وحزبه ، ها هنا طاف الأنبياء والصالحون ، ها هنا سعوا وهرولوا ، ها هنا صعدوا وانحدروا ، ها هنا ذبحوا ، ها هنا دعوا وابتهلوا ، ها هنا تصدقوا وبذلوا . فإن كنتم تريدون أن تسجلوا أسماءكم فى الكتاب الذهبى الذى أعده الله لهم فسيروا

(١ ، ٢ ، ٣) من الآيتين : ١٢٠ , ١٢١ من سورة التوبة .
(٤) من الآية : ٢٥ من سورة الحج .

على مواضع أقدامهم واقتفوا سنتهم وآثارهم فى نصها وروحها ، ومظهرها ومخبرها ، ثم هذه الكعبة التى كنتم تحجون إليها بقلوبكم فى الصلوات ، وترنون إليها بأبصاركم من وراء الآفاق كل يوم عشرات المرات ها هى ذى منكم الآن رأى الأعين ، فاغتنموا وتزودوا إنها البقعة المطهرة . مطهرة لأن الله أمر أن تنزه عن كل رجس ، وعن كل إثم ، وعن كل ظلم ، حتى من الرفث والخصومة والجدال ، الصغيرة فيها كبيرة ، والخبث اليسير فيها ظلم عظيم : ﴿ ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾[1] ومطهرة جعلها الله مغتسلاً للذنوب التى ترتكب فى كل مكان وفى كل شأن ، إلا ظلم الإنسان للإنسان فإنه لا تكفره صلاة ولا صوم ولا حج ولا قربان ، إنما يمحوه رد التبعات إلى أهلها أو استبراؤهم منها .

أيها الحجاج المبرورون : لقد حدثتكم الآن عن أهداف هذه الرحلة المقدسة حديثاً يعرفه كل امرئ منكم فى نفسه ، وأود أن أحدثكم عنها حديثاً آخر ربما لا يعرفه منكم إلا القليل ؛ فعامة المؤمنين يفهمون من شعائر الحج أنها مأدبة روحية أعدها الله لعباده ، عند أول بيت وضعه للناس ، ليتزودوا فيها من أنواع القربات ، ويتعرضوا فيها لفيض الرحمات ، فكل واحد منهم حين يؤديها إنما يعنيه شأن نفسه وتزكيتها ، وشأن واجباته وتأديتها ؛ غير أن الإسلام أوسع أفقا وأبعد نظراً من أن تحده هذه الأهداف الفردية الضيقة وإلا فلماذا لم يترك لنا الخيرة فى أن نؤدى هذه الشعائر فرادى أو مجتمعين ، فى أى وقت من العام يشاؤه الواحد منا ، ولماذا أمرنا لزاماً أن نؤديها مجتمعين فى صعيد واحد ، وفى وقت واحد وفى زى واحد ، لابد أن هنالك سراً أو أسراراً يهدف إليها التشريع الإسلامى من وراء هذا التجمع والتكتل ، ولست محدثكم عن هذه الأسرار جملة وتفصيلا ، ولكنى أكتفى بواحد منها : أتدرون ما الأواصر التى ربط الله بها الأمة الإسلامية لتكون كالجسد الواحد ؟ كلنا نعرف منها آصرتين اثنتين : وحدة العقيدة ، ووحدة الشريعة ، إله واحد وكتاب واحد ، آصرتان عقليتان معنويتان ، ولكن الله أراد أن يضم إليهما آصرة ثالثة حسية ملموسة ، فبعث مناديا فى الناس أن يجتمع ها هنا وفود المسلمين من أقطار الأرض كل عام ، ليعبدوا هذا الإله الواحد بتلك الشريعة الواحدة على أرض واحدة هى أرض الوطن الروحى ، وهكذا تجسدت وحدة العقيدة ووحدة الشريعة فى وحدة الوطن الأعلى ، ذلك ليذكر المسلمون أنهم ــ وإن تفرقت أقطارهم واختلفت أنسابهم وألوانهم ــ فسوف تجمعهم جامعة الدين والله والوطن ، وأنه إذا جد الجد وجب أن يضحى كل فريق منهم بمصالحه الخاصة فى سبيل هذه المصلحة المشتركة العليا ، إن نظرة إلى خريطة العالم الإسلامى ترينا كيف أنه يمتد فى قلب العالم كتلة واحدة متصلة ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وأنه كله يدور على محور واحد هو مكة المكرمة ، التى هى قلب الوطن الإسلامى ، وقطب رحاه ، إن هذا الوضع الجغرافى المتماسك القوى ، قد اختص به الإسلام بين سائر الأديان . ومع ذلك : فمن أعجب العجب أن الذى ينظر إلى الماضى القريب للأمة الإسلامية ؛ لا يجدها فى المكانة التى يؤهلها لها هذا الموقع الفريد ، ذلك أن تفتتها الإقليمى وانطواء كل شعب منها على نفسه أنساها هذه الرابطة العظمى ، ولقد كان المسلمون الأولون لا يعرفون هذه الحواجز الحديدية ، فكان التجار والراحلون ينتقلون من قطر إلى قطر وليس بيدهم جواز سفر

---

(١) من الآية : ٢٥ من سورة الحج .

إلا كلمة الإسلام ، فهل يعود الإخوة المؤمنون إلى هذا التقارب والترابط لتعود للوطن الإسلامى مناعته وحصانته ، فلا يبقى فيه بعدئذ عيش لتلك الطفيليات التى تمتص دماء أبنائه وتحنى أعناقهم ؟ وهل يكون لنا من موسم الحج هذه العبرة !! . . إنها ذكرى ، وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً** ﴾ .

فرض الله تعالى الحج على كل مستطيع ، وجعله أحد الأركان الخمسة التى بنى عليها الإسلام ، وقد رأينا تتمة للفائدة أن نذكر أحكاماً تتعلق بالحج ، ثم نعقب عليها ببيان كيفية الحج ، ثم نبين حجة الوداع التى أداها رسول الله ﷺ ، قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى .

تعريفه :

هو قصد مكة لأداء عبادة الطواف والسعى والوقوف بعرفة وسائر المناسك ، استجابة لأمر الله وابتغاء مرضاته ، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وفرض من الفرائض التى علمت من الدين بالضرورة .

فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام ، والمختار لدى جمهور العلماء أن إيجابه كان سنة ست بعد الهجرة ، لأنه نزل فيها قوله تعالى : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾[1] ، وهذا مبنى على أن الإتمام يراد به ابتداء الفرض ، ويؤيد هذا قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعى : ﴿ وأقيموا ﴾ رواه الطبرانى بسند صحيح ، ورجح ابن القيم أن افتراض الحج كان سنة تسع أو عشر .

فضله :

رغب الشارع فى أداء فريضة الحج وإليك بعض ما ورد فى ذلك :

ما جاء فى أنه من أفضل الأعمال :

عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : (إيمان بالله ورسوله) قيل : ثم ماذا ؟ قال : (ثم جهاد فى سبيل الله) قيل : ثم ماذا ؟ قال : (ثم حج مبرور)[2] .

والحج المبرور هو الحج الذى لا يخالطه إثم . وقال الحسن : أن يرجع زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة ، وروى مرفوعاً ــ بسند حسن ــ إن بره إطعام الطعام ولين الكلام .

ما جاء فى أنه جهاد :

١ ــ عن الحسن بن على رضى الله عنهما : أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : إنى جبان وإنى ضعيف فقال : (هلم إلى جهاد لا شوكة فيه : الحج) رواه عبد الرزاق والطبرانى ورواته ثقات .

---

(١) من الآية : ١٩٦ من سورة البقرة .
(٢) رواه الشيخان .

٢ ــ وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج) رواه النسائى بإسناد حسن .

٣ ــ وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : (لكن أفضل الجهاد حج مبرور) رواه البخارى ومسلم .

٤ ــ وروى عنها أنها قالت : يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد معكم ؟ قال : (لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج ، حج مبرور) قالت عائشة : فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ .

ما جاء فى أنه يمحق الذنوب :

١ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) رواه البخارى ومسلم .

٢ - وعن عمرو بن العاص قال : لما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت رسول الله ﷺ : فقلت : ابسط يدك فلأبايعك . قال : فبسط فقبضت يدى . فقال : مالك ياعمرو ؟ قلت : أشترط ، قال : تشترط ماذا ؟ قلت أن يغفر لى قال : (أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله وأن الهجرة تهدم ما قبلها وأن الحج يهدم ما قبله) رواه مسلم .

٣ - وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة) رواه النسائى والترمذى وصححه .

ما جاء فى أن الحجاج وفد الله :

عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : (الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم) رواه النسائى وابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما ولفظهما (وفد الله ثلاثة : الحاج والمعتمر والغازى) .

ما جاء فى أن الحج ثوابه الجنة :

١ - روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) .

٢ - وروى ابن جريج ــ بإسناد حسن ــ عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (هذا البيت دعامة الإسلام فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله إن قبضه أن يدخله الجنة وإن رده ، رده بأجر وغنيمة) .

فضل النفقة فى الحج :

عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : (النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله : الدرهم بسبعمائة ضعف) رواه ابن أبى شيبة وأحمد والطبرانى والبيهقى وإسناده حسن .

الحج يجب مرة واحدة :

أجمع العلماء على أن الحج لا يتكرر وأنه لا يجب فى العمر إلا مرة واحدة ـ إلا أن ينذره فيجب الوفاء بالنذر ـ وما زاد فهو تطوع .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (يأيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا) فقال رجل : أكل عام يارسول الله ، فسكت حتى قالها ثلاثاً ثم قال ـ ﷺ ـ (لو قلت : نعم ، لوجبت ولما استطعتم) ثم قال : (ذرونى ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم فإذا نهيتكم عن شىء فدعوه) رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (يأيها الناس كتب عليكم الحج) فقام الأقرع بن حابس فقال : أفى كل عام يارسول الله ؟ فقال : (لوقلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع) رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وصححه .

وجوبه على الفور أو التراخى :

ذهب الشافعى والثورى والأوزاعى ومحمد بن الحسن[1] : إلى أن الحج واجب على التراخى فيؤدى فى أى وقت من العمر ، ولا يأثم من وجب عليه بتأخيره متى أداه قبل الوفاة ، لأن رسول الله ﷺ أخر الحج إلى سنة عشرة ، وكان معه أزواجه وكثير من أصحابه ، مع أن إيجابه كان سنة ست ؛ فلو كان واجباً على الفور لما أخره ﷺ . قال الشافعى : فاستدللنا للناس على أن الحج فرضه مرة واحدة فى العمر أوله البلوغ وآخره أن يأتى به قبل موته .

وذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد وبعض أصحاب الشافعى وأبو يوسف[2] : إلى أن الحج واجب على الفور . لحديث ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : (من أراد الحج فليعجّل فإنه قد يمرض المريض وتضل الراحلة وتكون الحاجة) . رواه أحمد والبيهقى والطحاوى وابن ماجه .

وعنه أنه ﷺ قال : (تعجلوا الحج ـ يعنى الفريضة ـ فإن أحدكم لا يدرى ما يعرض له) . رواه أحمد والبيهقى وقال : ما يعرض له من مرض أو حاجة .

---

(١) صاحب أبى حنيفة .
(٢) صاحب أبى حنيفة .

وحمل الأولون هذه الأحاديث على الندب ، وأنه يستحب تعجيله والمبادرة به متى استطاع المكلف أداءه .

شروط وجوب الحج :

اتفق الفقهاء على أنه يشترط لوجوب الحج الشروط الآتية :

١ - الإسلام .
٢ - البلوغ .
٣ - العقل .
٤ - الحرية .
٥ - الاستطاعة .

فمن لم تتحقق فيه هذه الشروط فلا يجب عليه الحج . وذلك أن الإسلام والبلوغ والعقل ، شرط التكليف فى أية عبادة من العبادات .

وفى الحديث : أن النبى ﷺ قال : (رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل)[1] .

والحرية شرط لوجوب الحج ؛ لأنه عبادة تقتضى وقتاً ويشترط فيها الاستطاعة بينما العبد مشغول بحقوق سيده وغير مستطيع . وأما الاستطاعة فلقول الله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ .

بم تتحقق الاستطاعة :

تتحقق الاستطاعة التى هى شرط من شروط الوجوب بما يأتى :

١ - أن يكون المكلف صحيح البدن ؛ فإن عجز عن الحج لشيخوخته أو زمانة[2] أو مرض لا يرجى شفاؤه ، لزمه إحجاج غيره عنه إن كان له مال ، وسيأتى فى (مبحث الحج عن الغير) .

٢ - أن تكون الطريق آمنة بحيث يأمن الحج على نفسه وماله . فلو خاف على نفسه من قطاع الطريق أو وباء أو خاف على ماله من أن يسلب منه فهو ممن لم يستطع إليه سبيلاً .

وقد اختلف العلماء فيما يؤخذ فى الطريق من المكس والكوشان[3] ، هل يعد عذراً مسقطاً للحج أم لا ؟ ذهب الشافعى وغيره إلى اعتباره عذراً مسقطاً للحج وإن قل المأخوذ .

وعند المالكية : لا يعد عذرا إلا إذا أجحف بصاحبه أو تكرر أخذه .

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) مرض مزمن .
(٣) أنواع من الضرائب كرسوم المرور بين حدود البلاد .

٣ ـ أن يكون مالكاً للزاد والراحلة .

والمعتبر فى الزاد : أن يملك ما يكفيه مما يصح به بدنه ويكفى من يعوله كفاية فاضلة عن حوائجه الأصلية ، من ملبس ومسكن ومركب وآلة حرفة حتى يؤدى الفريضة ويعود .

والمعتبر فى الراحلة أن تمكنه من الذهاب والإياب سواء أكان ذلك عن طريق البر أم البحر أم الجووهذا بالنسبة لمن لا يمكنه المشى لبعده من مكة .

فأما القريب الذى يمكنه المشى فلا يعتبر وجود الراحلة فى حقه لأنها مسافة قريبة يمكنه المشى إليها .

وقد جاء فى بعض روايات الحديث : أن رسول الله ﷺ فسر السبيل بالزاد والراحلة .

فعن أنس رضى الله عنه قال : قيل يا رسول الله ما السبيل قال : (الزاد والراحلة) . رواه الدارقطنى وصححه .

قال الحافظ : والراجح إرساله : وأخرجه الترمذى من حديث ابن عمر أيضاً وفى إسناده ضعف .

وقال عبد الحق : طرقه كلها ضعيفه وقال ابن المنذر لا يثبت الحديث فى ذلك مسنداً والصحيح رواية الحسن المرسلة ، وعن على رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً) وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ رواه الترمذى وفى إسناده « هلال » ابن عبد الله وهو مجهول ، « والحارث » وكذبه الشعبى وغيره .

والأحاديث وإن كانت كلها ضعيفة إلا أن أكثر العلماء يشترط لإيجاب الحج الزاد والراحلة لمن نأت داره ومن لم يجد زاداً ولا راحلة فلا حج عليه .

قال ابن تيمية : فهذه الأحاديث ـ مسندة من طرق حسان . ومرسلة وموقوفة ، تدل على أن مناط الوجوب الزاد والراحلة مع علم النبى ﷺ أن كثيراً من الناس يقدرون على المشى .

وأيضاً فإن الله قال ـ فى الحج : ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ إما أن يعنى القدرة المعتبرة فى جميع العبادات ـ وهو مطلق المكنة ـ أو قدراً زائداً على ذلك ، فإن كان المعتبر الأول لم يحتج إلى هذا التقييد كما لم يحتج إليه فى آية الصوم والصلاة ، فعلم أن المعتبر قدر زائد على ذلك ، وليس هو إلا المال ، وأيضاً فإن الحج عبادة مفتقرة إلى مسافة فافتقر وجوبها إلى ملك الزاد والراحلة كالجهاد .

ودليل الأصل قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ﴾[1] إلى قوله : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾[2] .

---

(١) من الآية : ٩١ من سورة التوبة .
(٢) من الآية : ٩٢ من سورة التوبة .

وفى المهذب : وإن وجد ما يشترى به الزاد والراحلة ـ وهو محتاج إليه . لِدَيْن عليه ـ لم يلزمه حالاً كان الدين أو مؤجلاً ، لأن الدين الحال على الفور والحج على التراخى فقُدِّم عليه الدين ، والمؤجل يحل عليه فإذا صرف ما معه فى الحج لم يجد ما يقضى به الدين .

قال : وإن احتاج إليه لمسكن لابد من مثله أو خادم يحتاج إلى خدمته لم يلزمه ، وإن احتاج إلى النكاح ، وهو يخاف العنت ، قُدمَ النكاح لأن الحاجة إلى ذلك على الفور .

وإن احتاج إليه فى بضاعة يتجر فيها ليُحصِّل منها ما يحتاج إليه للنفقة فقد قال أبو العباس بن سريج : لا يلزمه الحج ؛ لأنه محتاج إليه فهو كالمسكن والخادم .

وفى المغنى : إن كان دين على مليء باذل له يكفيه للحج لزمه ، لأنه قادر وإن كان على معسر أو تعذر استيفاؤ ه عليه لم يلزمه .

وعند الشافعية : أنه إذا بذل رجل لآخر راحلة من غير عوض ؛ لم يلزمه قبولها لأن عليه فى قبول ذلك مِنة وفى تحمل المنة مشقة ، إلا إذا بذل له ولده ما يتمكن به من الحج لزمه لأنه أمكنه الحج من غير منة تلزمه .

وقالت الحنابلة : لا يلزمه الحج ببذل غيره له ، ولا يصير مستطيعاً بذلك ، سواء أكان الباذل قريباً أم أجنبياً ، وسواء بذل له الركوبة والزاد أو بذل له مالاً .

٥ ـ ألا يوجد ما يمنع الناس من الذهاب إلى الحج كالحبس والخوف من سلطان جائر يمنع الناس منه .

حج الصبى والعبد :

لا يجب عليهما الحج ، لكنهما إذا حجا صح منها ولا يجزئهما عن حجة الإسلام .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبى ﷺ : (أيما صبى حج ثم بلغ الحِنْث فعليه أن يحج حجة أخرى وأيما عبد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى) . رواه الطبرانى بسند صحيح .

وقال السائب بن يزيد « حج أبى مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين » رواه أحمد والبخارى والترمذى ، وقال قد أجمع أهل العلم : على أن الصبى إذا حج قبل أن يدرك فعليه الحج إذا أدرك وكذلك المملوك إذا حج فى رقه ثم أعتق فعليه الحج إذا وجد إلى ذلك سبيلا .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن امرأة رفعت إلى رسول الله ﷺ صبياً فقالت : ألهذا حج ؟ قال : (نعم ولك أجر) .

وعن جابر رضى الله عنه قال : «حججنا مع رسول الله ﷺ ومعنا النساء والصبيان فلبينا عن الصبيان ورمينا عنهم » . رواه أحمد . ثم إن كان الصبى مميزاً أحرم بنفسه وأدى مناسك الحج وإلا أحرم عنه وليه ولبى

عنه وطاف به وسعى ووقف بعرفة ورمى عنه . ولو بلغ قبل الوقوف بعرفة أو فيها : أجزأ عن حجة الإسلام ، كذلك العبد إذا أُعتق .

وقال مالك وابن المنذر : لا يجزئهما لأن الإحرام انعقد تطوعاً فلا ينقلب فرضاً .

حج المرأة :

يجب على المرأة الحج كما يجب على الرجل ، سواء بسواء ، إذا استوفت شرائط الوجوب التى تقدم ذكرها ، ويزاد عليها بالنسبة للمرأة أن يصحبها زوج أو محرم[1] .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم) ، فقام رجل فقال : يا رسول الله إن امرأتى خرجت حاجة وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا فقال : (انطلق فحج مع امرأتك) رواه البخارى ومسلم .

وعن يحيى بن عباد قال : كتبت امرأة من أهل الرى إلى إبراهيم النخعى ، إنى لم أحج حجة الإسلام وأنا موسرة ليس لى ذو محرم فكتب إليها إنك ممن لم يجعل الله له سبيلا .

وإلى اشتراط هذا الشرط وجعله من جملة الاستطاعة . ذهب أبو حنيفة وأصحابه والنخعى والحسن والثورى وأحمد وإسحق .

قال الحافظ : والمشهور عند الشافعية اشتراط الزوج أو المحرم ، أو النسوة الثقات ، وفى قول : تكفى امرأة واحدة ثقة ، وفى قول ـ نقله الكرابيسى وصححه فى المهذب ـ تسافر وحدها إذا كان الطريق آمنا وهذا كله فى الواجب من حج أو عمرة .

وفى سبل السلام : قال جماعة من الأئمة : يجوز للعجوز السفر من غير محرم ، وقد استدل المجيزون لسفر المرأة من غير محرم ولا زوج ؛ إذا وجدت رفقة مأمونة ، أوكان الطريق آمنا ـ بما رواه البخارى عن عدى ابن حاتم قال : بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال : (يا عدى هل رأيت الحيرة ، قال : قلت لم أرها وقد أنبئت عنها قال : (فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله) .

واستدلوا أيضاً : بأن نساء النبى ﷺ حججن بعد أن أذن لهن عمر فى آخر حجة حجها ، وبعث معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف .

وكان عثمان ينادى : ألا لا يدنو أحد منهن ولا ينظر إليهن وهن فى الهوادج على الإبل .

وإذا خالفت المرأة وحجت دون أن يكون معها زوج أو محرم ؛ صح حجها . وفى سبل السلام « قال ابن تيمية » : يصح الحج من المرأة بغير محرم وفى غير المستطيع .

---

(١) المحرم القريب الذى يحرم عليه الزواج منها كالأب أو الأخ . . الخ

وحاصله : أن من لم يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة ؛ مثل المريض والفقير والمعضوب والمقطوع طريقه ، والمرأة بغير محرم وغير ذلك ؛ إذا تكلفوا شهود المشاهد أجزأهم الحج ، ثم منهم من هو محسن فى ذلك كالذى يحج ماشياً ، ومنهم من هو مسىء فى ذلك كالذى يحج بالمسألة ، والمرأة تحج بغير محرم ، وإنما أجزأهم لأن الأهلية تامة والمعصية إن وقعت فى الطريق لا فى نفس المقصود » .

وفى المغنى : لو تجشم غير المستطيع المشقة وسار بغير زاد وراحلة فحج كان حجه صحيحاً مجزئاً .

استئذان المرأة زوجها :

يستحب للمرأة أن تستأذن زوجها فى الخروج إلى الحج الفرض ، فإن أذن لها خرجت ، وإن لم يأذن لها خرجت بغير إذنه ، لأنه ليس للرجل منع امرأته من حج الفريضة ، لأنها عبادة وجبت عليها ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولها أن تعجل به لتبرىء ذمتها ، كما لها أن تصلى أول الوقت [1] . وليس له منعها ويلحق به الحج المنذور لأنه واجب عليها كحجة الإسلام .

وأما حج التطوع فله منعها منه . لما رواه الدارقطنى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ فى امرأة كان لها زوج ولها مال فلا يأذن لها فى الحج قال : (ليس لها أن تنطلق إلا بإذن زوجها) .

من مات وعليه حج :

من مات وعليه حجة الإسلام أو حجة كان قد نذرها ؛ وجب على وليه أن يجهز من يحج عنه من ماله ، كما أن عليه قضاء ديونه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : (نعم حجّى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ أقضوا الله ؛ فالله أحق بالوفاء) رواه البخارى .

وفى الحديث دليل على وجوب الحج عن الميت سواء أوصى أم لم يوص ، لأن الدين يجب قضاؤه مطلقاً ، وكذا سائر الحقوق المالية من كفارة أو زكاة أو نذر ، وإلى هذا ذهب ابن عباس وزيد بن ثابت وأبو هريرة والشافعى ؛ ويجب إخراج الأجرة من رأس المال عندهم .

وظاهر الحديث أنه يقدم على دين الآدمى ، إذا كانت التركة لا تتسع للحج والدين لقوله : ﷺ (فالله أحق بالوفاء) .

وقال مالك : إنما يحج عنه إذا أوصى ، أما إذا لم يوص فلا يحج عنه ؛ لأن الحج عبادة غلب فيها جانب البدنية فلا يقبل النيابة . وإذا أوصى حج من الثلث .

---

(١) أى كما أن الصلاة تجب لأول دخول وقتها ، فإن حجة الفريضة يلزم تعجيلها عند الاستطاعة وتمام الشروط عند كثير من العلماء .

الحج عن الغير :

من استطاع السبيل إلى الحج ثم عجز عنه لمرض أو شيخوخة ، لزمه إحجاج غيره عنه ، لأنه أيس من الحج بنفسه لعجزه ، فصار كالميت فينوب عنه غيره .

ولحديث الفضل بن عباس : أن امرأة من خثعم قالت : يا رسول الله : إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه ؟ . قال : نعم . وذلك فى حجة الوداع . . رواه الجماعة .

وقال الترمذى أيضاً : « وقد صح عن النبى ﷺ فى هذا الباب غير حديث ؛ والعمل على هذا عند أهل العلم ، من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم يرون أن يحج عن الميت ، وبه يقول الثورى وابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق .

وقال مالك : إذا أوصى أن يحج عنه حُج عنه .

وقد رخص بعضهم أن يحج عن الحى إذا كان كبيراً ، وبحال لا يقدر أن يحج وهو قول ابن المبارك والشافعى .

وفى الحديث دليل على أن المرأة يجوز لها أن تحج عن الرجل والمرأة وكذلك الرجل يجوز له أن يحج عن الرجل والمرأة ، ولم يأت نص يخالف ذلك .

إذا عوفى المريض :

إذا عوفى المريض بعد أن حج عنه نائبه فإنه يسقط الفرض عنه ولا تلزمه الإعادة لئلا تفضى إلى إيجاب حجتين وهذا مذهب أحمد .

وقال الجمهور : لا يجزئه ؛ لأنه تبين أنه لم يكن ميئوساً منه ، وأن العبرة بالانتهاء ؛ ورجح ابن حزم الرأى الأول فقال : إذا أمر النبى ﷺ بالحج عمن لا يستطيع الحج راكباً ولا ماشياً ، وأخيراً إن دين الله يقضى عنه ، فقد تأدى الدين بلا شك وأجزأ عنه .

وبلا شك أن ما سقط وتأدى فلا يجوز أن يعود فرضه بذلك إلا بنص ولا نص ها هنا . أصلا بعودته ، ولو كان ذلك عائداً لبين عليه الصلاة والسلام ذلك ، إذ قد يقوى الشيخ فيطيق الركوب .

فإذا لم يخبر النبى ﷺ بذلك ، فلا يجوز عودة الفرض عليه بعد صحة تأديته عنه .

شرط الحج عن الغير :

يشترط فيمن يحج عن غيره أن يكون قد سبق له الحج عن نفسه . لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما :

أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : لبيك عن شبرمة . فقال : أحججت عن نفسك ؟ قال : لا : قال : (فحج عن نفسك ثم حُج عن شبرمة) رواه أبو داود .

قال ابن تيمية : إن أحمد حكم ـ فى رواية ابنه صالح عنه ـ أنه مرفوع ، على أنه وإن كان موقوفا ، فليس لابن عباس فيه مخالف ، وهذا قول أكثر أهل العلم : أنه لا يصح أن يحج عن غيره من لم يحج عن نفسه مطلقاً مستطيعاً كان أو غير مستطيع : لأن ترك الاستفصال والتفريق فى حكاية الأحوال دال على العموم .

من حج لنذر وعليه حجة الإسلام :

أفتى ابن عباس وعكرمة ، بأن من حج لوفاء نذر عليه ولم يكن حج حجة الإسلام أجزأه ذلك عنهما .

وأفتى ابن عمر وعطاء بأنه يبدأ بفريضة الحج ثم يفى بنذره .

الاقتراض للحج :

عن عبد الله بن أبى أوفى قال : سألت رسول الله ﷺ عن الرجل لم يحج أيستقرض للحج ؟ قال : (لا) رواه البيهقى .

الحج من مال حرام :

ويجزىء الحج وإن كان المال حراماً ، ويأثم عند الأكثر من العلماء !!

وقال الإمام أحمد : لا يجزىء وهو الأصح ؛ لما جاء فى الحديث الصحيح : (أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً) .

وروى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (إذا خرج الحاج حاجاً بنفقة طيبة ووضع رجله فى الغرز[1] فنادى : لبيك اللهم لبيك ، ناداه مناد من السماء : لبيك وسعديك زادك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور غير مأزور ، وإذا خرج بالنفقه الخبيثة فوضع رجله فى الغرز ؛ فنادى لبيك ، ناداه مناد من السماء : لا لبيك ولا سعديك زادك حرام ونفقتك حرام وحجك مأزور غير مأجور) .

أيهما أفضل فى الحج : الركوب أم المشى ؟ :

قال الحافظ فى الفتح : قال ابن المنذر : اختلف فى الركوب والمشى للحجاج أيهما أفضل ؟

قال الجمهور :الركوب أفضل لفعل النبى ﷺ ، ولكونه أعون على الدعاء والابتهال ، ولما فيه من المنفعة . وقال إسحاق بن راهويه . المشى أفضل لما فيه من التعب .

ويحتمل أن يقال : يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص . .

---

(١) الغرز هو الذى يمسك رجلى راكب الدابة ، وأصبح كناية عن الأخذ بأسباب الحج الفعلية كركوب السيارة أو الطيارة أو الباخرة .

روى البخارى عن أنس رضى الله عنه : أن النبى ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنيه . فقال : (ما بال هذا) ؟ .

قالوا : نذر أن يمشى . قال : (إن الله عز وجل نهى عن تعذيب هذا نفسه لغنى ، وأمره أن يركب) .

التكسب والمكارى[1] فى الحج :

لا بأس للحاج أن يتاجر ويؤاجر ويتكسب وهو يؤدى أعمال الحج والعمرة .

قال ابن عباس : إن الناس فى أول الحج كانوا يتبايعون بـ « منى » وعرفة وسوق « ذى المجاز » ومواسم الحج فخافوا البيع وهم حرم . فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾[2] قال : كانوا لا يتجرون بـ « منى » فأمروا أن يتجروا إذا أفاضوا من « عرفات » رواه أبو داود .

وعن أبى أمامة التيمى : أنه قال لابن عمر : إنى رجل أكرى فى هذا الوجه وإن ناساً يقولون لى : إنه ليس لك حج فقال ابن عمر : أليس تحرم وتلبى وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمى الجمار ؟ قال : قلت بلى ! قال : فإن لك حجاً : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن مثل ما سألتنى فسكت عنه حتى نزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ فأرسل إليه وقرأ عليه هذه الآية وقال : « لك حج » رواه أبو داود .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رجلاً سأله فقال : أوجر نفسى من هؤلاء القوم فأنسك معهم المناسك أَلِىَ أجر ؟ قال ابن عباس نعم (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب)[3] رواه البيهقى .

حجة رسول الله ﷺ :

روى مسلم : قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبه وإسحاق بن إبراهيم جميعاً عن جعفر[4] بن محمد عن أبيه قال : « دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، فسأل عن القوم حتى انتهى إلىّ ؟ فقلت : أنا محمد بن على الحسين فأهوى بيده إلى رأسى فنزع زرى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديى وأنا يومئذ غلام شاب فقال : مرحباً بك يا ابن أخى سل عما شئت ؟ فسألته (وهو أعمى) وحضر وقت الصلاة ، فقام فى نساجة ملتحفاً بها كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ورداؤه إلى جنبه على المشجب . فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ : فقال بيده[5] : فعقد تسعاً ؛ فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن فى الناس فى العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة حشد كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله .

---

(١) المكارى من يؤجر دابته للحاج ، وفى عصرنا من يؤجر سيارته ونحو ذلك .
(٢) من الآية : ١٩٨ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٢٠٢ من سورة البقرة .
(٤) هو المشهور بجعفر الصادق حفيد على زين العابدين بن الحسين بن على كرم الله وجهه ورضى عنهم أجمعين .
(٥) قال بيده أى أشار بيده فعقد تسعا من أصابع يديه .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحُليفه[١] فولدت « أسماء » بنت عميس محمد بن أبي بكر ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : كيف أصنع ؟ قال : « اغتسلى واستثفرى[٢] بثوب وأحرمى ، فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد ثم ركب « القصواء »[٣] حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به ، فأهل بالتوحيد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك » ، وأهل الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يردَّ رسول الله ﷺ شيئاً منه ولزم رسول الله ﷺ تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحج ؛ لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل[٤] ثلاثا ومشى أربعاً ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[٥] فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان يقرأ فى الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن[٦] فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾[٧] . أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى حتى إذا صعدنا مشى حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا . حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال : (لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت[٨] لم أسق الهدى وجعلتها عمرة فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة) .

فقام سراقة[٩] بن مالك فقال : يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فشبَّك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة فى الأخرى وقال : دخلت العمرة فى الحج مرتين لا بل لأبد أبد .

وقدم عليّ من اليمن ببُدن النبى ﷺ . فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حلَّ ولبست ثيابا صبيغاً[١٠]، واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : إن أبى أمرنى بهذا ، قال : فكان على يقول بالعراق[١١] : فذهبت

---

(١) فى الموضع الذى يسمى اليوم آبار على ، على بعد اثنى عشر كيلو مترا من قلب المدينة .
(٢) تجعل ثوبا بين فخذيها لتحفظ دم النفاس .
(٣) ناقة الرسول ﷺ .
(٤) الرمل الجرى الخفيف .
(٥) من الآية : ١٢٥ من سورة البقرة .
(٦) الركن هو مكان الحجر الأسود .
(٧) من الآية : ١٥٨ من سورة البقرة .
(٨) كناية عن أنه لو استطاع العودة إلى بدء إحرامه لجعلها إحراما بعمرة .
(٩) هو الفارس الذى خرج يوم الهجرة يريد القبض على رسول الله ﷺ ليفوز بجائزة قريش - مائة ناقة من حمر النعم - فساخت قوائم فرسه ثلاث مرات فاستأمن رسول الله ﷺ فأمنه وبشره بلبس سوارى كسرى ، وقد لبسهما فى خلافة عمر رضى الله عنه .
(١٠) ثيابا ملونة .
(١١) أى لما صار خليفة وجعل الكوفة عاصمة خلافته .

إلى رسول الله ﷺ محرِّشاً على فاطمة للذى صنعت ، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكر عنه ، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها ، فقال صدقت ، صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ؟ .

قال : قلت : « اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك » .

قال : فإن معى الهدى فلا تحل .

قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به علىّ من اليمن والذى أتى به النبى ﷺ مائة .

قال : فحلَّ الناس كلهم وقصَّروا إلا النبى ﷺ ومن كان معه هدى ، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر[١] ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر فضربت له بنمرة[٢] فسار رسول الله ﷺ ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية .

فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس[٣] أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ـ ربا عباس بن عبد المطلب ؛ فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد إنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس اللهم أشهد ، اللهم أشهد ثلاث مرات .

ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر[٤] ، ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف[٥] فجعل ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل جبل المشاة بين يديه يستقبل القبلة فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه .

ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق[٦] للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رجله ويقول بيده اليمنى : أيها الناس السكينة السكينة ، كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة ؛ فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح[٧] بينهما شيئا ، ثم اضطجع رسول

---

(١) فجر يوم عرفة ، وسمى يوم التروية لأنهم يبعثون بالروايا - حاملات الماء إلى منى وعرفات تسبق الحجيج .

(٢) وفى مكان القبة - خيمة الرسول - بنى مسجد نمرة فى عرفات .

(٣) أى زالت عن كبد السماء وهو أول وقت الظهر .

(٤) فى روايات أخرى أن صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين بأذان واقامتين .

(٥) حيث توجد اليوم علامة قاتم أبيض على الصخرات بوسط الوادى .

(٦) شد زمامها حتى لا تسرع .

(٧) أى لم يصل نافلة بينهما .

الله ﷺ حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحّده ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس . وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما - فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن[١] يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر ، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى آتى بطن محسر[٢] . فحرك قليلا « ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الحذف يرمى من بطن الوادى .

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثا وستين بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر[٣] وأشركه فى هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر ، فطبخت فأكلا من لحمها ، وشربا من مرقها ، ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر . فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم[٤] فقال : انزعوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلواً فشرب منه » ا . هـ

قال العلماء :

اعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد ، قال القاضى عياض : قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءا كبيراً أخرج فيه من الفقه مائة ونيفا وخمسين نوعاً . قال : ولو تقصى لزيد على هذا العدد قريب منه .

قالوا : وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سنة للنفساء والحائض ، ولغيرهما بالأولى ، وعلى استثفار الحائض والنفساء وعلى صحة إحرامها وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل ، وأن يرفع المحرم صوته بالتلبية ويستحب الاقتصار على تلبية النبى ﷺ ، فإذا زاد فلا بأس ، فقد زاد عمر : لبيك ذا النعماء والفضل الحسن : لبيك مرهوبا منك ومرغوباً إليك .

وإنه ينبغى للحاج القدوم أولا إلى مكة ليطوف طواف القدوم ، وأن يستلم الركن - الحجر الأسود - قبل طوافه ويرمل فى الثلاثة الأشواط الأولى ، والرمل أسرع المشى مع تقارب الخطا وهو الخبب وهذا الرمل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين .

ثم يمشى أربعاً على عادته ، وأنه يأتى بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو : **﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾** .

---

(١) نساء فى الهوادج تجرى بهن الابل .
(٢) مكان قريب من عرفات .
(٣) ما بقى من المائة .
(٤) يسقون الناس لأن السقاية كانت فيهم ، لأن آباهم أعاد حفر زمزم .

ثم يجعل المقام بينه وبين البيت ويصلى ركعتين ويقرأ فيهما فى الأولى بعد الفاتحة سورة الكافرون وفى الثانية بعد الفاتحة الإخلاص . ودل الحديث على أنه يُشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد ، كما فعله عند الدخول ، واتفق العلماء على أن الاستلام سنة ، وأن يسعى بعد الطواف ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ، ويقف عليه مستقبل القبلة ، ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ويدعو ثلاث مرات ، ويرمل فى بطن الوادى وهو الذى يقال له « بين الميلين »[1] وهو أى الرمل مشروع فى كل مرة من السبعة الأشواط ، لا فى الثلاثة الأول كما فى طواف القدوم بالبيت ، وأنه يرقى أيضا على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو وبتمام ذلك تتم عمرته .

فإن حلق أو قصر صار حلالا وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة ، وأما من كان قارناً فإنه لا يحلق ولا يقصر ويبقى على إحرامه ، ثم فى يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ويذهب هو ومن كان قارنا إلى منى والسنة أن يصلى بمنى الصلوات الخمس وأن يبيت بها هذه الليلة ، وهى ليلة التاسع من ذى الحجة ، ومن السُّنة كذلك ألا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ولا يدخل « عرفات » إلا بعد زوال الشمس وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً فى « عرفات » فإنه ﷺ نزل بنمرة وليست من عرفات . ولم يدخل ﷺ الموقف إلا بعد الصلاتين .

ومن السُّنة ألا يصلى بينهما شيئاً ، وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة ، وهذه إحدى الخطب المسنونة فى الحج ؛ والثانية أى من الخطب المسنونة ؛ يوم السابع من ذى الحجة يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر ، والثالثة أى من الخطب المسنونة يوم النحر . والرابعة - يوم النفر الأول وفى الحديث سنن وآداب منها . أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين ، وأن يقف فى عرفات راكباً أفضل ، وأن يقف عند الصخرات عند موقف النبى ﷺ ، أو قريباً منه وأن يقف مستقبل القبلة ، وأن يبقى فى الموقف حتى تغرب الشمس ، ويكون فى وقوفه داعيا لله عز وجل رافعاً يديه إلى صدره وأن يدفع بعد تحقيق غروب الشمس بالسكينة ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً .

فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعا بأذان واحد وإقامتين دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات ، وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء وإنما اختلفوا فى سببه .

فقيل : إنه نسك وقيل لأنهم مسافرون أى السفر هو العلة لمشروعية الجمع ، ومن السنن المبيت بمزدلفة ، وهو مجمع على أنه نسك وإنما اختلفوا فى كونه أى المبيت واجباً أو سنة .

ومن السُّنة أن يصلى الصبح فى المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك فيأتى المشعر الحرام ، فيقف ويدعو والوقوف عنده من المناسك : ثم يدفع منه عند إشعار الفجر إشعاراً بليغاً فيأتى بطن مُحسِّر[2] فيسرع السير فيه لأنه محل غضب الله فيه على أصحاب الفيل فلا ينبغى الأناة فيه ولا البقاء فيه .

---

(١) علامتان خضراوان فى المسعى .

(٢) فيه رجم أصحاب الفيل رجمتهم الطير الأبابيل .

فإذا أتى الجمرة وهى جمرة العقبة نزل ببطن الوادى ورماها بسبع حصيات كل حصاه كحبة الباقلاَّء ؛ أى الفول يكبر مع كل حصاة .

ثم ينصرف بعد ذلك إلى المنحر فينحر إن كان عنده هدى ، ثم يحلق بعد نحره ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة ، وهو الذى يقال له طواف الزيارة ، ومن بعده يحلّ له كل ماحرُمَ عليه بالإحرام ، حتى وطء النساء ، وأما إذا رمى جمرة العقبة ، ولم يطف هذا الطواف فإنه يحل له كل شىء ماعدا النساء ، هذا هو هدى رسول الله ﷺ فى حجه والآتى به مقتد به ﷺ وممتثل لقوله : « خذوا عنى مناسككم » وحجه صحيح .

كيفية أداء الحج :

إذا قارب الحاج الميقات استحب له أن يأخذ من شاربه وقص شعره وأظافره ، ويغتسل أو يتوضأ ، ويتطيب ويلبس لباس الإحرام ، فإذا بلغ الميقات[١] صلى ركعتين وأحرم بأى نوع : الحج إن كان مفرداً أو العمرة إن كان متمتعا ، أو هما معاً إن كان قارناً .

وهذا الإحرام ركن لايصح النسك بدونه .

أما تعيين نوع النسك من إفراد أو تمتع أو قران فليس فرضاً . ولو أطلق النية ولم يعين نوعاً خاصاً صح إحرامه ، وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة ، وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع ، كلما علا شرفاً أو هبط وادياً ، أو لقى ركباً أو أحداً ، وفى الأسحار وفى دبر كل صلاة .

وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواعيه ومخاصمة الرفاق وغيرهم ، والجدل فيما لافائدة فيه ، وأن لا يتزوج ولا يزوج غيره ، ويتجنب أيضاً لبس المخيط والمحيط والحذاء الذى يستر مافوق الكعبين .

ولا يستر رأسه ولا يمس طيباً ولا يحلق شعراً ولا يقص ظفراً ، ولا يتعرض لصيد البر مطلقاً ، ولا لشجر الحرم وحشيشه ، فإذا دخل مكة المكرمة استحب له أن يدخلها من أعلاها ، بعد أن يغتسل من بئر ذى طوى بالزاهر ، إن تيسر له ، ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها من «باب السلام» ذاكراً أدعية دخول المسجد ومراعيا آداب الدخول ، وملتزماً الخشوع والتواضع والتلبية ، فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه وسأل الله من فضله ، وذكر الدعاء المستحب فى ذلك ، ويقصد رأساً إلى الحجر الأسود فيقبله بغير صوت أو يستلمه بيده ويقبلها ، فإن لم يستطع ذلك أشار إليه .

ثم يقف بحذائه ملتزماً الذكر المسنون والأدعية المأثورة ، ثم يشرع فى الطواف ويستحب له أن يضطبع[٢] ويرمل فى الأشواط الثلاثة الأول .

---

(١) الميقات هو أحد الأماكن التى حددها رسول الله ﷺ للقادمين من الآفاق إلى الحرم ، حيث يلزمه عنده بدء الإحرام

(٢) الاضطباع : تعرية الكتف الأيمن ووضع طرف الرداء تحت الإبط .

ويمشى على هينته فى الأشواط الأربعة الباقية ، ويسن له استلام الركن اليمانى وتقبيل الحجر الأسود فى كل شوط ، فإذا فرغ من طوافه توجه إلى مقام إبراهيم تالياً قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ فيصلى ركعتى الطواف ثم يأتى « زمزم » فيشرب من مائها ويتضلع[1] منه ، وبعد ذلك يأتى « الملتزم »[2] فيدعو الله عز وجل بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة ، ثم يستلم الحجر ويقبله ويخرج من باب « الصفا » إلى الصفا تالياً قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ الآية .

ويصعد عليه ويتجه إلى الكعبة ، فيدعو بالدعاء المأثور ثم ينزل فيمشى فى السعى ذاكراً داعياً بما شاء ، فإذا بلغ (ما بين الميلين) هرول ثم يعود ماشياً على رسله حتى يبلغ المروة فيصعد السلم ويتجه إلى الكعبة داعيا ذاكراً وهذا هو الشوط الأول وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط . وهذا السعى واجب على الأرجح ، وعلى تاركه كله أو بعضه دم ، فإذا كان المحرم متمتعاً حلق رأسه ، أو قصَّر وبهذا تتم عمرته ، ويحل له ما كان محظوراً من محرمات الإحرام حتى النساء . أما القارن والمفرد فيبقيان على إحرامهما وفى اليوم الثامن من ذى الحجة يحرم المتمتع من منزله ، ويخرج هو وغيره ممن بقى على إحرامه إلى منى فيبيت بها فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات . ونزل عند مسجد نمرة واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام ، يقصر فيهما الصلاة هذا إذا تيسر له أن يصلى مع الإمام : وإلا صلى جمعاً وقصراً حسب استطاعته حيث يكون من ساحة عرفات ولا يبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريباً منها ، فإن هذا موضع وقوف النبى ﷺ والوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم ولا يسن ولا ينبغى صعود جبل الرحمة ، ويستقبل القبلة ، ويأخذ فى الدعاء والذكر والابتهال ، حتى يدخل الليل فإذا دخل الليل[3] أفاض إلى المزدلفة فيصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير ، ويبيت بها فإذا طلع الفجر وقف بالمشعر الحرام ، وذكر الله كثيرا حتى يسفر الصبح ، فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى منى .

والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم وبعد طلوع الشمس يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، ثم يذبح هديه إن أمكنه ويحلق شعره أو يقصره وبالحلق يحل له كل ما كان محرماً عليه ما عدا النساء ، ثم يعود إلى مكة فيطوف بها طواف الإفاضة وهو طواف الركن فيطوف كما طاف طواف القدوم ، ويسمى هذا الطواف أيضا طواف الزيارة وإن كان متمتعاً سعى بعد الطواف .

وإن كان مفرداً أو قارنا وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعى آخر ، وبعد هذا الطواف يحل له كل شىء حتى النساء . ثم يعود إلى منى فيبيت بها . والمبيت بها واجب يلزم بتركه دم . وإذا زالت الشمس من اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمى الجمرات الثلاث مبتدئاً بالجمرة التى تلى منى ثم يرمى الجمرة الوسطى ويقف بعد الرمى داعيا ذاكراً ثم يرمى جمرة العقبة ولا يقف عندها . وينبغى أن يرمى كل جمرة بسبع

---

(١) أى يملأ ما بين أضلاعه ، وذلك يعنى الشرب الوفير .

(٢) ما بين باب الكعبة والحجر الأسود .

(٣) أى تأكد غروب الشمس .

حصيات قبل الغروب ، ويفعل فى اليوم الثانى عشر مثل ذلك ثم هو مخير بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثانى عشر ، وبين أن يبيت ويرمى فى اليوم الثالث عشر ورمى الجمار واجب يجبر تركه بالدم فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع ، وهذا الطواف واجب . وعلى تاركه أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع ، إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات ، وإلا ذبح شاة ، ويؤخذ من كل ما تقدم أن أعمال الحج والعمرة هى الإحرام من الميقات ، والطواف ، والحلق ، وبهذا تنتهى أعمال العمرة ، ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمى الجمار ، وطواف الإفاضة ، والمبيت بمنى ، والذبح ، والحلق أو التقصير ، هذه هى خلاصة أعمال الحج والعمرة .

طواف الوداع والدعاء :

طواف الوداع سُمِّى بهذا الاسم لأنه لتوديع البيت ويطلق عليه طواف الصدر لأنه عند صدور[1] الناس من مكة وهو طواف لا رمل فيه وهو آخر ما يفعله الحاج غير المكى عند إرادة السفر من مكة . . روى مالك فى الموطأ عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « آخر النسك الطواف بالبيت » أما المكى والحائض فإنه لا يشرع فى حقهما ولا يلزم بتركهما له شىء .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « رُخص للحائض أن تنفر إذا حاضت » رواه البخارى .

وفى رواية قال : « أُمِرَ الناس أنْ يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خُفف عن المرأة الحائض » .

وروى عن صفية زوج النبى ﷺ : أنها حاضت فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : « أحابستنا هى ؟ » فقالوا : إنها قد أفاضت قال : « فلا إذاً » .

حكمه : اتفق العلماء على أنه مشروع . لما رواه مسلم وأبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان الناس ينصرفون فى كل وجه . فقال النبى ﷺ : « لا ينفر أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت » .

واختلفوا فى حكمه فقال مالك وداود وابن المنذر : إنه سنة لا يجب بتركه شىء وهو قول للشافعى :

وقالت الأحناف والحنابلة ورواية عن الشافعى : إنه واجب يلزم بتركه دم .

وقته : وقت طواف الوداع بعد أن يفرغ المرء من جميع أعماله ويريد السفر ليكون آخر عهده بالبيت كما تقدم فى الحديث . فإذا طاف الحاج سافر توّاً دون أن يشتغل ببيع أو بشراء ولا يقيم زمنا فإن فعل شيئاً من ذلك أعاده .

اللهم إلا إذا قضى حاجةً فى طريقه أو اشترى شيئاً لا غنى له عنه من طعام ، فلا يعيد لذلك ، لأن هذا لا يخرجه عن أن يكون آخر عهده بالبيت ، ويستحب للمودع أن يدعو بالمأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو : « اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك حملتنى على ما سخرت لى من خلقك وسيرتنى فى بلادك

---

(١) الصدر : الرجوع .

حتى بلغتنى بنعمتك إلى بيتك ، وأعنتنى على أداء نسكى ، فإن كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا ، وإلا فمن الآن فارض عنى قبل أن تنأى عن بيتك دارى ، فهذا أوان انصرافى ، إن أذنت لى غير مستبدل بك ولا ببيتك ، ولا راغب عنك ولا عن بيتك ، اللهم فاصحبنى العافية فى بدنى والصحة فى جسمى والعصمة فى دينى ، وأحسن منقلبى وارزقنى طاعتك ما أبقيتنى واجمع لى بين خيرى الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير » .

قال الشافعى : أحب إذا ودع البيت أن يقف فى الملتزم . وهو ما بين الركن والباب ، ثم ذكر الحديث .

أهل الكتاب وعنادهم وما يضمرونه للإسلام

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ **شهيد** ﴾ : الشهيد العالم بالشىء المطلع عليه ﴿ **تصدون** ﴾ : تعرضون . ﴿ **تبغونها** ﴾ : تطلبونها ﴿ **عوجا** ﴾ : العوج الميل عن الاستواء فى الأمور المعنوية كالدين مثلاً والمراد هنا الزيغ والتحريف .

فى هاتين الآيتين سؤالان وجههما الله تعالى على لسان نبيه ومصطفاه ﷺ قصد بهما تقريع أهل الكتاب الذين كفروا بآيات الله خاصة ، الآيات الناطقة بنبوة خاتم المرسلين ﴿ **قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله** ﴾ أى ما كان ينبغى لكم أن تكفروا بتلك الآيات وأنتم تعلمون أن الله تعالى شهيد ومطلع على ما تخفى صدوركم وعليم بخلجات نفوسكم ، وما كان يليق بكم وينبغى لكم أن تصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، تقصدون بذلك اعوجاج الطريق وهو مستقيم واضح ، والحق أجلى من الشمس فى ضحاها ، والقمر إذا تلاها ، وأوضح من ضوء النهار إذا جلاها ، فلماذا تريدون أن تنحرفوا بالسبيل وهى مستقيمة لا اعوجاج فيها ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[1] .

---

(١) الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ وأنتم شهداء ﴾ : أى أنكم تعلمون هذه الحقائق علم الشاهد الذى يرى الحق كالشمس ، فلماذا الإنكار ولماذا الصد والله تعالى يقول : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾(١) بل لقد قال عبد الله بن سلام : «إنى والله لأعرف أن محمداً رسول الله أكثر مما أعرف ابنى ، قيل له وكيف ؟ قال : الله أعلم بابنى أما هذا فقد نزل الأمين من السماء بنبوته» .

قوله تعالى : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ أى اعلموا أن الله رقيب عليكم شهيد على أعمالكم وسوف يجازيكم بها ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾(٢) .

الله يدرى كل ما تضمر يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لمْ تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

توجيهات وعظات

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

المفردات : ﴿ يعتصم ﴾ اعتصم بالشىء تمسك به فمنع نفسه من الوقوع فى الهلاك ﴿ حق تقاته ﴾ : تقاته وتقواه بمعنى واحد ، والحق أى الواجب الثابت وأصل الكلام : اتقاء حقاً : والمراد اتقوه التقوى الواجبة ﴿ حبل الله ﴾ : هو العهد أو القرآن و ﴿ شفا حفرة ﴾ : طرفها وأشفى على الشىء أشرف عليه .

---

(١) من الاية : ١٤٦ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ٤٢ من سورة ابراهيم .

سبب النزول :

روى أنه مر شماس بن قيس اليهودى ـ وكان شديد الكفر كثير الحسد على المسلمين ، مر بنفر من المسلمين من الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ يتحدثون ، فغاظه ذلك حيث اتحد الأوس والخزرج ، واجتمعوا بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية ـ من حروب أججها اليهود ـ وقال اللعين : مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، فأمر شاباً من اليهود كان معه أن اذهب إليهم وذكرهم بيوم بعاث وما كان بين الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس . وما قيل فيه من الأشعار ، فتنازع القوم وتصايحوا : السيوف السيوف !! وجمع كل فريق منهم جموعه فبلغ النبى ﷺ هذا ؛ فخرج إليهم ومعه المهاجرون والأنصار ، وقال : (أتدعـون بدعـوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم) . فعرف القوم أنها نزغة الشيطان وكيد العدو ، فألقوا السلاح وبكوا وتعانقوا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ .

خطاب كريم من رب كريم بعنوان كريم ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ لبيك اللهم لبيك ؛ يأتى بعد ذلك التوجيه الحاسم الجازم ﴿ **إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ المقصود بهم اليهود .

ماذا يا علام الغيوب ، يا من تعلم خفايا الصدور ، يا من تعلم حقائق الأمور ، ودقائق خطرات النفوس ، ماذا لو أطعنا فريقا من الذين أوتوا الكتاب : ﴿ **يردوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾ بئس المصير الارتداد بعد الإيمان ، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾[(١)] إن الصراع بين الحق والباطل ؛ دائم دائب مستمر ، حتى تقوم الساعة ، والصراع بين جماعة الحق وجماعة الباطل صراع عقيدة ، قال تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾[(٢)] فعلى الجماعة المسلمة أن تحذر الأصابع التى تحيك لها المصايد والمكايد والشباك ، وعلى الجماعة المسلمة أن تلجأ إلى كتاب الله ، قال ﷺ : « ستكون فتنه . قال علىّ فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله » . نعم . وهل بعد كتاب الله من معتصم ، إنه العاصم من القواصم ؛ فيه خبر من بعدكم وحكم ما بينكم إنه حبل الله المتين ونوره المبين وذكره الحكيم .

ثم يأتى التعجب فى صيغة الاستفهام ﴿ **وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله** ﴾ جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوما : (أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانا ؟ قالوا : الملائكة قـال : وكيف لا يؤمنون والـوحى ينزل عليهم ؟ قـالوا : فنحن ؛ قـال : وكيف لا تؤمنـون وأنـا بـين أظهركم ؟. قالوا : فأى الناس أعجب إيمانا ؟ قال : قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفـا يؤمنون بمـا فيها) .

لن يكون هناك انحراف عن سبيل الجادة ، مادامت آيات الله تتلى عليكم ومادام فيكم رسوله ، فإن آيات الله عصمة من الزلل ، إنها حبل الله المتين ونوره المبين ، وذكره الحكيم ، ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدى**

(١) من الآية : ١٠٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ٨ من سورة البروج .

إلى صراط مستقيم ﴾ هذه حقيقة لا تختلف ولا تتخلف ، ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾(١) . فاللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والعصمة من كل ذنب .

ثم أمر تعالى بأن يُتقى حق التقوى فقال سبحانه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ والتقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . ﴿ حق تقاته ﴾ . قال ابن مسعود : أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر(٢) .

قوله تعالى : ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ هذه دعوة أراد الله تعالى بها التمسك بالإسلام ، فالسعيد هو من مات مسلما ، والشقى من مات على غير الإسلام ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(٣)وقال جل شأنه : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٤) وقال تبارك وتعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾(٥) فإذا كان الله أكمل ديننا فدين الله لا ينقص أبدا ، وإذا كان أتم نعمته علينا ، فنعمة الله ليست فى حاجة إلى زيادة . من أقوال من لا يعلمون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وإذا كان الله رضى الإسلام لنا دينا ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾(٦) ، ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياي ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾(٧) إن الله تعالى أوصانا أن نموت على الإسلام ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾(٨) قال جابر : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث : (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله قال أنا عند ظن عبدى بى فإن ظن بى خيرا فله وإن ظن بى شرا فله) .

وعن أنس قال : كان رجل من الأنصار مريض ، فجاءه النبى ﷺ يعوده ، فوافقه فى السوق ؛ فسلم عليه فقال له : (كيف أنت يا فلان ؟ قال بخير يا رسول الله أرجو الله وأخاف ذنوبى . فقال رسول الله ﷺ : لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف) .

---

(١) من الآيات : ١٢٣ - ١٢٦ من سورة طه .
(٢) روى البخاري عن عروة بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ (حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر) وروى ولما نزلت هذه الآية : قالوا يارسول الله من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ روى ذلك عن قتادة والربيع وابن زيد .
(٣) من الآية : ١٩ من سورة آل عمران .
(٤) الآية : ٨٥ من سورة آل عمران .
(٥) من الآية : ٣ من سورة المائدة .
(٦) من الآية : ١٤ من سورة الجن .
(٧) الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآية : ٨ من سورة آل عمران .

بعد أن أمر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بتقواه حق تقاته ؛ أمرهم جل شأنه أن يستمسكوا بحبله المتين ونهاهم عن الفرقة فقال : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** ﴾ وحبل الله هو : كتابه الحكيم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا تنقضى ، عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته إلا أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾[1] . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ، قال الإمام الشاطبى عن القرآن الكريم :

وخير جليس لا يمل حديثه	تراوده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته	من القبر يلقاه سناً متهللا
هنالك يهنيه مقيلا وروضة	ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه	وأجدر به سؤلا إليه موصلا
فيا أيها القارى به متمسكا	مُجلاً له فى كل حال مبجلا
هنيئا مريئا والداك عليهما	ملابس أنوار من التاج والحلى

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال) .

قوله تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾ النعمة هنا هى نعمة الإسلام وكفى بها نعمة وقد كان بين الأوس والخزرج محن وعداء وقتال قبل الاسلام ، وكان اليهود ينفخون فى هذه النار فتزداد اشتعالا ، ويعملون جهد طاقتهم أن تظل ألسنة اللهب مندلعة بين هاتين القبيلتين العظيمتين إلى أن أشرق فجر الاسلام ، وامتدت خيوطه إلى القلوب فبددت غياهب الظلمات ، وأضاءتها بنور التوحيد ، فانقلب العداء إخاءً ، والبغضاء محبة والشحناء وفاء ، والفرقة ولاء . ﴿ **فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار** ﴾ أى لو ظللتم على العداء الذى كنتم عليه ، والفرقة الضاربة أطنابها ؛ فقد دفعت بكم تلك الفرقة إلى حافة الهوية ، فأنقذكم الله منها بالإسلام ، وقد حذر الإسلام من الفرقة ، ودعا إلى الجماعة حيث قال تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم

(١) من الآيتين : ١ ، ٢ من سورة الجن .

واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[١] وقد بين النبى ﷺ الفرقة الناجية إذا اختلفت الأمة ، فقال : (أهل السنة والجماعة قيل وما السنة والجماعة يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابى) . بمثل ذلك البيان يبين الله آياته وأحكامه للأمة ، فيقول : ﴿ **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** ﴾ فيا أمة الإسلام ليس بعد بيان الله من بيان ، وليس بعد آيات الله من آيات ، وليس بعد هداية الله من هداية : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين * وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى إليه تحشرون ﴾[٢] .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتحذير من التفرقة

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

المفردات : ﴿ **أمة** ﴾ : جماعة متحدة مؤتلفة ﴿ **إلى الخير** ﴾ : أى المنافع فى الدنيا والآخرة ﴿ **تبيض** ﴾ : تشرق وتسر ﴿ **تسود وجوه** ﴾ : تكتئب وتحزن ﴿ **ظلما** ﴾ : هو وضع الشىء فى غير موضعه .

خاطب الله سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية بأسلوب الأمر الصريح فقال : ﴿ **ولتكن منكم** ﴾ أيها المسلمون ﴿ **أمة** ﴾ لها كيان ونظام ، أمة مؤتلفة الأعضاء موحدة الجهات ، لا ترهب أحدا ولا تخاف شيئا ، دينها قول الحق ورفع الظلم ، ولو كان عند سلطان جائر ، لا تخشى فى الله لومة لائم ، لها رياسة وقانون ، كل ذلك أشارت إليه كلمة واحدة وهى ﴿ **أمة** ﴾ إذ هناك فرق بين قولك : جماعة وأمة .

فعلى المسلمين جميعا واجب ؛ وهو تكوين تلك الأمة لتكون بهذا الوضع ، وعلى الأمة المكونة ، واجب : أن تقوم بمهمة الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والذب عن حياض الدين ، ورفع منارة الحق والعدل ، فالمسلمون جميعا مكلفون بتكوين جماعة خاصة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف

---

(١) من الآية : ٤٥ من سورة الأنفال .
(٢) من الآيتين : ٧١ ، ٧٢ من سورة الأنعام .

والنهى عن المنكر ، فهذه الجماعة المكونة بهذا الوضع السابق ، لها حق الإشراف والتكوين والتوجيه والحساب والعمل على خدمة المسلمين ، وهذا أشبه بمجلس النواب ، على الأمة جميعا اختيار طائفة خاصة تقوم بتلك المهمة ، على سبيل الوجوب ، وفى سبيل قيامها بواجبها ، يجب أن تتوافر فيها شروط : العلم الدينى والعلوم التي يحتاج إليها من يخاطب الناس ، ويؤثر فيهم ، والتقوى والتخلق بأخلاق الأنبياء ، وأن يكون الداعية مثلاً أعلى فى الخلق الكامل ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة .

فإذا توافرت هذه الشروط (فأولئك) البعيدون فى درجات الكمال ﴿ **هم المفلحون** ﴾ فى الدنيا والآخرة ، والأمة التى هداتها وقادتها بهذا الوضع ؛ لابد أن تكون العزة والكرامة لها ، ﴿ **ولا تكونوا** ﴾ أيها المسلمون ﴿ **كالذين تفرقوا واختلفوا** ﴾ اختلافاً كثيراً ، كما حصل لليهود والنصارى ﴿ **من بعد ما جاءهم البينات** ﴾ الواضحات التى تهديهم إلى السبيل لو اتبعوها ، وما ذلك إلا لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولم تكن فيهم أمة تهديهم إلى الخير وترشدهم إلى الطريق ﴿ لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[1] .

والاختلاف المنهى عنه هو : الاختلاف فى الأصول العامة للدين ، وتحكيم الهوى ، وإدخال السياسة المذهبية ، والبعد عن مناهل الشريعة والأخذ بالمتشابه .

أما الخلاف فى الوسائل ، وكيفية الأداء : كاختلاف المذاهب عندنا فى كيفية الوضوء ؛ لتعدد فعل النبى ﷺ ولأن القرآن يسمو بكل صورة قال بها إمام من الأئمة ، فلا شىء فيه ، إذ كلهم من رسول الله ﷺ ملتمس ، والمسلمون قد اختلفوا شيعاً وأحزاباً ، لما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتركوا روح الدين واشتغلوا بالأمور الشكلية .

والأمة التى فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فأولئك جميعاهم المفلحون ، وأولئك المختلفون المتفرقون ، التاركون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ **لهم عذاب عظيم** ﴾ لا يعرف له حد ولا يدرى له كنه ﴿ **يوم تبيض وجوه** ﴾ المؤمنين وتشرق ، ويسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، ﴿ **وتسود وجوه** ﴾ المختلفين ، الذين لم يتواصوا بالحق والصبر ، من أهل الكتاب والمنافقين ، وتظلم وتكتئب حينما يرون ما أعد لهم من العذاب المقيم * .

وقد وصفوا كذلك بأن الذل قد ألصق بهم حتى أثر فيهم ، كما يؤثر الضرب فى النقد[2] ، فلا خلاص لهم من الذل أبدا ، إلا بسبب عهد لهم من الله ، وهو ما قررته الشريعة لهم من المساواة فى الحقوق والقضاء ،

---

(١) الأيتان : ٧٨ ، ٨٩ من سورة المائدة .

* هنا موضع الفجوة حيث تناول الشيخ تفسير قوله : « ضربت عليهم الذلة .. الخ » بينما لم يذكر تفسير كنتم خير أمة .. الخ .

(٢) لصناعة العملات المعدنية أساليب من صنع القوالب قديما والضرب على القوالب لتترك أثرها على وجهى العملة ، بينما أصبحت المسألة اليوم بآلات أوتوماتيكية ، فتخرج قطع بالآلاف صورة واحدة .

وتحريم الإيذاء وعهد من الناس ، وهو ما تقتضيه المشاركة فى الوطن ، والحاجة والانتفاع فى الصنعة والتجارة ، وصاروا مستحقين لغضب الله ، مستوجبين سخطه ، قد أحاطت بهم المسكنة إحاطة المكان بما فيه ، فهم فى الذل والفقر والحاجة أبدا ، ولا شك أنهم كذلك إلى الأبد ، وإن كانوا مياسير وأغنياء ، لأنهم ورثوا صفات الذل وضعف النفس وامتهانها ، بل باعوا الشرف لأجل المال ، فهم فى فقر دائم وذل مستمر ويتألهون المال . . ذلك الذى ذكر من هذه الصفات ، بسبب : أنهم يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء ، معتقدين أنهم على حق فيما يفعلون إذ يقتلون رجالاً يقولون ربنا الله ، وفى هذا تشنيع عليهم ، وأى تشنيع .

وما جرأهم على ذلك إلا فعل المعاصى ، واستمرارهم على معصية الله ؛ فإنه يجعل الران على قلوبهم ، ويفضى بهم إلى الوقوع فى الكبائر فمن جعل الصغائر ديدنه ، لم يكن بعيدا عليه الكفر وقتل الأنبياء ونسبة القتل إلى المعاصرين من اليهود كما قلنا ، لأنهم منتسبون إلى من فعل هذا الفعل ، وراضون عنه بل معتزون بهذا النسب ، على أنهم حاولوا قتل النبى ﷺ مرارا وعصمه الله منهم .

قوله تعالى : ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾

أى فأما الذين تفرقوا واختلفوا فاسودت وجوههم ، فيقال لهم هذا القول فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فلابد أن يوجد فى الناس من يقول للأمة التى وقع فيها هذا الاختلاف ــ مثل هذا القول ، تغليظا لها ، لأن عملها لا يصدر إلا من الكافرين ، وأما فى الآخرة فيوبخهم الله تعالى بمثل هذا السؤال .

وقد جرى عرف القرآن أن يعد المتفرقين فى الدين من الكفار والمشركين كما جاء فى قوله : ﴿ ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون[1] ﴾ وقوله : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء[2] ﴾ .

كذلك يعد الخروج عن مقاصد الدين الحقيقة من الكفر ، لأن الإيمان اعتقاد وقول عمل ، وهو ذو شعب كثيرة من أجلها تحرى العدل ، واجتناب الظلم ، فمن استرسل فى الظلم كان كافرا كما قال تعالى ﴿ والكافرين هم الظالمون[3] ﴾ .

وكذلك من ترك الاتحاد والوفاق ، والاعتصام بحبل الدين كان من الكافرين بعد الإيمان .

﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ :

أى وأما الذين أبيضت وجوههم باتحاد الكلمة ، وعدم التفرق ، فيكونون فى الدنيا خالدين فى النعمة ماداموا على تلك الحال ، وخلودهم فى الرحمة فى الآخرة أظهر .

---

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الروم .
(٢) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة .

قوله تعالى:﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ :
أى هذه الآيات نتلوها عليك مقررة ما هو الحق الذى لا مجال للشبهة فيه ، فلا عذر لمن ذهب فى الدين مذاهب شتى ، واتبع سنن السابقين ، وجعل القرآن عضين .

فعلينا أن نستمسك بما به أمر ووعد عليه بالفوز والنجاح ، ونترك ما عنه نهى وأوعد عليه بالعذاب الأليم ، حتى نكون أمة متفقة المقاصد ، ممتدة فى الدين ، فتجمع بين سعادتى الدنيا والآخرة .

﴿ وما الله يريد ظلما للعالمين ﴾ :
أى أن كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه ، فإنما يريد به هدايتهم إلى ما يكمل فطرتهم ، ويتم به نظام جماعتهم ، فإذا هم فسقوا عن أسرة حل بهم البلاء ، وكانوا هم الظالمين لأنفسهم ، بتفرقهم واختلافهم ، إلى نحو ذلك من الذنوب التى تفسد نظم المجتمع ، وتجعل أهله فى شقاء .

ولا يحل عذاب بأمة إلا بذنب فشافيها ، فزحزحها عن الصراط المستقيم ، كما قال عز وجل : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد[1] ﴾ .

ثم ذكر ما هو كالبرهان لنفى الظلم عنه تعالى ، فقال سبحانه ·

﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ : أى أنه تعالى مالك العباد والمتصرف فى شئونهم بحسب سنته الحكيمة التى لا تغيير فيها ولا تبديل ، كما قال : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا[2] ﴾ .

وليس من أسباب ملكه شىء ناقص يحتاج إلى تمام فيتممه بظلم غيره ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ولأن الظلم ينافى الحكمة والكمال فى النظام وفى التشريع ، ومن حمل عبيده أو دوابه ما لا تطيق يقال إنه ظلمها ، ومن نقص امرأ حقه ظلمه ، قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا[3] ﴾ .

خير أمة

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود
(٢) الآية ٣٨ من سورة الأحزاب
(٣) الآية ٣٣ من سورة الكهف .

مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ :

أى أنتم خير أمة فى الوجود الآن ، لأنكم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون إيمانا صادقا يظهر أثره فى نفوسكم ، فينزعكم عن الشر ، ويصرفكم إلى الخير ، وغيركم من الأمم قد غلب عليهم الشر والفساد . فلا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، ولا يؤمنون إيماناً صحيحاً .

وهذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أولا ، وهم النبى ﷺ وأصحابه الذين كانوا معه وقت التنزيل ، فهم الذين كانوا أعداء ، فألف بين قلوبهم ، واعتصموا بحبل الله جميعا ، وكانوا يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يخاف ضعيفهم قويهم ، ولا يهاب صغيرهم كبيرهم ؛ وملك الإيمان قلوبهم ومشاعرهم ، فكانوا مسخرين لأغراضه فى جميع أحوالهم .

وهذا الإيمان هو الذى قال الله فى أهله : **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا** بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون[1]﴾ ، وقال فيهم أيضا : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون[2]﴾ .

وما فتئت هذه الأمة خير الأمم حتى تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما تركتها إلا باستبداد الملوك والأمراء من بنى أمية ، ومن حذا حذوهم .

وأول من اجترأ منهم على إعلان هذه المعصية عبد الملك بن مروان ، حين قال على المنبر : من قال لى اتق الله ضربت عنقه .

ومازال الشر يزداد ، والأمر يتفاقم حتى سلبت هذه الأمة أفضل ما لها من مزية فى دينها ودنياها بعد الإيمان ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وإن هذه الخيرية لا تثبت لهذه الأمة إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة ، الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر والإيمان بالله فإذا تركتها لم تكن لها هذه المزية ، ومن ثم أكد الأمر بهذه الفريضة فى آيات هذه السورة بما لم يعرف له نظير فى الكتب السابقة .

---

(١) الآية ١٥ من سورة الحجرات .
(٢) الآية ٢ من سورة الأنفال .

وقدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله فى الذكر ، مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات ، لأنهما سياج الإيمان وحفاظه ، فكان تقديمهما فى الذكر موافقاً للمعهود عند الناس فى جعل سياج كل شىء مقدماً عليه .

قوله تعالى : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ أى ولو آمنوا إيماناً صحيحاً يستولى على النفوس ، ويملك أزمة القلوب ، فيكون مصدر الفضائل والأخلاق الحسنة ، كما تؤمنون ـ لكان ذلك خيراً لهم مما يدّعونه من إيمان لايزع النفوس عن الشرور ، ولايبعدها عن الرذائل ، إذ هو لم يؤت ثمرات الإيمان الصحيح الذى يحبه الله ورسوله ، ولا كان أثرا من إثارة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وبهذا تعلم أن الإيمان عنهم إيمان خاص له تلك الآثار التى تقدمت ، لا الإيمان الذى يدعيه كل من له دين وكتاب ، كما أنه إنما نفاه عن أكثر أفراد الأمة ، وأنهم هم الذين فسقوا وخرجوا عن حقيقة الدين ، ولم يبق عندهم إلا بعض الرسوم والتقاليد الظاهرة ــ لا عن جميعها ، إذ لا تخلو أمة ذات دين سماوى من هذا الإيمان ، ومن ثم قال : **﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾** أى منهم المؤمنون المخلصون فى عقائدهم وأعمالهم ، وأكثرهم فاسقون عن دينهم ، متمردون فى الكفر .

وما من دين إلا يوجد فيه الضالون والمعتدلون والمفرطون المائلون إلى الفسوق والعصيان ، ويكثر الاستمساك بالدين فى أوائل ظهوره ، كما يكثر الفسق بعد طول الأمد عليه ، كما قال الله تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون[1] ﴾ .

وعلى الجملة فالقرآن الكريم إذا عرض لوصف الأمم وبيان عقائدها وأخلاقها ، وزن ذلك بميزان دقيق يتحرى فيه ذكر الحقيقة مجردة عن كل مغالاة أو مبالغة ، بما لم يعهد مثله فى كتاب آخر .

فلو تصفحنا الأحكام التى حكم بها على أهل الكتاب ، وعرضناها على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم لقالوا : إنها الحق الصراح .

﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ : أى أن هؤلاء الفاسقين لا يقدرون على إيقاع الضرر بكم ، بل غاية جهدهم أن يؤذوكم بالهجو القبيح ، والطعن فى الدين ، وإلقاء الشبهات ، وتحريف النصوص ، والخوض فى النبى ﷺ .

﴿ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ﴾ أى وإن يقاتلوكم فى ميدان القتال ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشىء ، والمنهزم من شأنه أن يحول ظهره إلى جهة مقاتله ، ويستدبره فى هربه منه . فيكون قفاه إلى وجه من انهزم منه .

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد .

﴿ ثم لا ينصرون ﴾ أى ثم إنهم لا ينصرون عليكم أبدا ماداموا على فسقهم ، ودمتم على خير فيكم ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .

وفى الآية ثلاث بشارات من أخبار الغيب تحققت كلها ، وقد صدق الله وعده .

ومما سبق تعلم أن هذا الحكم إنما يثبت لهم إذا حافظوا على نصر الله بنصر دينه ، كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[1] وكما قال فى وصف المؤمنين المجاهدين : ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله[2] ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾

أى إنهم ألزموا الذلة فلا خلاص لهم منها ، فما لهم معكم أنهم أذلاء فهزمو الحقوق ، رغم أنوفهم ، إلا بعهد من الله وهو ما قررته الشريعة إذا دخلوا فى حكمها من المساواة فى الحقوق والقضاء وتحريم الإيذاء ، وعهد من الناس وهو ما تقتضيه المشاركة فى المعيشة ، من احتياجهم إليكم واحتياجكم إليهم فى بعض الأمور .

﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾

أى وصاروا مستحقين غضب الله مستوحيين سخطه ، وأحاطت بهم المسكنة والصغار ، فهم تابعون لغيرهم ، يؤدون ما يضرب عليهم من المال وادعين ساكنين .

وهذا الوصف صادق على اليهود إلى اليوم فى كل بقاع الأرض ، وقد ارتفع الذل عنهم فى بلاد الإسلام بحبل من الله ، وهو ما ذكرناه فيما سلف من وجوب معاملتهم بالمساواة واحترام دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، والتزام حمايتهم والذود عنهم بعد إنقاذهم من ظلم حكامهم السابقين ، وبحبل من الناس كما تقدم بيانه .

وأما ارتفاع المسكنة بأن يكون لهم ملك وسلطان يوما ما ، فالقرآن ينفيه عنهم ، لأنه لم يستثن من ذلك شيئاً ، كما استثنى فى الذلة ، فاقتضى بقاء ذلك عليهم إلى الأبد . لكنهم يقولون إنهم مبشرون بظهور مسيح

---

(١) الآية ٧ من سورة محمد .
(٢) الآية ١١٢ من سورة التوبة .

(مسيا) فيهم ؛ ومعناه ذو الملك والشريعة ، والنصارى يقولون : إن هذا الموعود به هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، والمراد بالملك الملك الروحانى .

ثم ذكر سبحانه سبب ذلك وعلته فقال : ﴿ **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق** ﴾ .

أى ذلك الذى ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، واستحقاقهم للغضب الإلهى بسبب كفرهم ، وقتلهم النبيين بغير حق تعطيهم إياه شريعتهم .

وفى النص على أن ذلك بغير حق مع أنه لن يكون إلا كذلك تشنيع عليهم وإثبات لأن ذلك حدث عن عمد لا عن خطأ . ثم أشار إلى سبب هذا الكفر والعدوان الشنيع فقال تعالى :

﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ أى أنه ما جرأهم على ذلك إلا سبق المعاصى ، واعتداؤهم على حدود الله ، والاستمرار على الصغائر يفضى إلى الوقوع فى الكبائر . **فمن جعلها ديدناً له واتخذها عادة وصل به ذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء المرشدين .**

وقتل الانبياء وإن كان لم يصدر من اليهود الذين كانوا فى عصر التنزيل ، بل كان من أسلافهم ، لكنهم لما كانوا راضين به مصوّبين له نسب إليهم ، إذ صار خلقاً لهم يتوارثه الخلف عن السلف ، والأبناء عن الآباء .

والأمم متكاملة ينسب إلى مجموعها ما فشا فيها ، **وإن ظهر بعض آثاره فى زمن دون آخر .**

المؤمنون من أهل الكتاب

* لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

المفردات : ﴿ **قائمة** ﴾ : مستقيمة عادلة مأخوذة من قولك أقمت العود فقام بمعنى استقام . ﴿ **آناء الليل** ﴾ : جمع آن والمراد ساعات الليل . ﴿ **يسارعون فى الخيرات** ﴾ : يبادرون إلى فعل الخيرات . ﴿ **يكفروه** ﴾ : يمنعوا ثوابه .

هذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى فيها أن أهل الكتاب ليسوا[1] سواء فى الكفر ، بل إن هناك منهم أمة مستقيمة على أوامر الله ونواهيه ، تمتثل الأوامر وتجتنب النواهى ، إنها أمة عرفت الله حق المعرفة فأخذت تتلو آياته فى ساعات الليل ، عندما نامت العيون ، وهجعت الأبدان ، وغارت النجوم ، وأرخى الليل سدوله ، هذه الأمة نظر الله إليها وأصلابها منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية تنذر بعذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، إن هؤلاء الصالحين من أهل الكتاب يقومون بالليل والناس نيام ، وهم يسجدون امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً * وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾[2] .

---

(١) روى عن ابن مسعود : ليس أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ سواء ، وروى القرطبى عن أبى خيثمة ــ زهير بن حرب بسنده عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء ثم خرج الى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : « إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى فى هذه الساعة غيركم » قال وانزلت هذه الآية : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة » إلى قوله تعالى : والله عليم بالمتقين .

(٢) الآيات : ١٠٥ ــ ١٠٩ من سورة الإسراء .

إن هذه الأمة الصالحة أمثال عبد الله بن سلام ؛ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعتقدون بالقدر اعتقاداً جازماً ، ومن آمن بالله واليوم الآخر يلزمه بمقتضى إيمانه بالله : أن يؤمن بملائكته وكتبه ورسله ، إن هذه الأمة القائمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، إذ الأمر والنهى لا يمكن لمجتمع أن يستقيم بدونهما ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[١] وجاء على لسان لقمان لابنه : ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾[٢] . وهؤلاء الصالحون يسارعون فى الخيرات قال تعالى : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾[٣] إذاً لقد وصف الله هذه الأمة أولاً : بالاستقامة ، وثانياً : بتلاوة آياته آناء الليل ، وثالثاً : بالسجود وهو أعظم أركان الصلاة ، إذ أن أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد ، رابعاً : ﴿ **يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ خامساً : ﴿ **ويأمرون بالمعروف** ﴾ سادساً : ﴿ **وينهون عن المنكر** ﴾ سابعاً : ﴿ **ويسارعون فى الخيرات** ﴾ ، فاستحقوا من الله بناء على هذه الحيثيات : أن يحكم لهم ﴿ **وأولئك من الصالحين** ﴾ وحيث كان ذلك كذلك فلن يضيع ما فعلوه عند الله ، ﴿ **إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا** ﴾[٤] . ﴿ **فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون** ﴾[٥] . ﴿ **وما يفعلوا من خير فلن يكفروه** ﴾ ولن يضيع ولن يجحد ولن ينسى لأن الذى يثيب على الأعمال ﴿ **عليم بالمتقين** ﴾ بصير بأحوالهم خبير بقلوبهم ، لا تضيع عنده الودائع ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾[٦]

الكافرون وأعمالهم يوم القيامة

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

---

(١) من الآية : ١١٠ من سورة آل عمران

(٢) الآية : ١٧ من سورة لقمان .

(٣) من الآية : ٧٧ من سورة الحج .

(٤) من الآية : ٣٠ من سورة الكهف .

(٥) الآية : ٩٤ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية : ٤٠ من سورة النساء .

المفردات : ﴿ **لن تغنى** ﴾ : لن تجزى عنهم . ﴿ **صر** ﴾ : برد شديد . ﴿ **حرث** ﴾ : الحرث . إثارة الأرض للزرع والمراد النبات المزروع .

يخبر الله سبحانه وتعالى بأن أعداءه من الكفار ، مهما تنوعت فرق الكفر واختلفت مذاهبه ومشاربه ، فإنهم جميعاً ﴿ **لن تغنى عنهم أموالهم** ﴾ التى ينفقونها للصد عن سبيل الله ، والتى يقصدون من ورائها الرياء والسمعة والشهرة الزائفة ، هذه الأموال لن تغنى عنهم من الله شيئاً كذلك ﴿ **ولا أولادهم** ﴾ الذين يظنونهم أنصاراً لهم ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾[١] . جاءت هذه الآية التى بين أيدينا فى سورة آل عمران ، لتخرس هذه الألسنة الكافرة ﴿ **إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً** ﴾ أى أنها لن تنجيهم من العقاب النازل بهم ، لأنهم ملازمون للنار وهم أصحابها : ﴿ إن الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾[٢] .

ثم ضرب الله مثلاً لإنفاق هؤلاء الكافرين : بأن هذه الأموال التى تنفق فى هذه الحياة الدنيا ؛ مثلها ﴿ **كمثل ريح** ﴾ فيها برد شديد هبت على زرع يرجى الخير منه فأهلكته ، وكان هذا منطق العدالة الإلهية ؛ قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشريكه »[٣] فهؤلاء الكافرون لما أنفقوا ابتغاء الفتنة ، طلباً للرياء والسمعة ، وسعيا وراء الجاه والسلطان ، أهلك الله مطالبهم ، وجاءت العاقبة بخلاف ما كانوا يتوقعون ، ﴿ **وما ظلمهم الله** ﴾ وإنما جازاهم على ما قدمت أيديهم ، والحقيقة أنهم هم الذين ﴿ **يظلمون** ﴾ أنفسهم فقد وقفوا يحاربون الإسلام بكل ما يملكون ، من مال وجاه وسلطان وقعدوا بكل صراط يوعدون ﴿ ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجا ﴾[٤] فإذا أنزل الله بهم المهلكات والجائحات ، فذلك منطق العدل الذى يجازى كلاً بما قدمت يداه ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٥] .

---

(١) الآية : ٣٥ من سورة سبأ .
(٢) الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ من سورة الأنفال .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) من الآية : ٨٦ من سورة الأعراف .
(٥) اللآية : ٤٤ من سورة يونس .

إرشاد وتوجيه للمؤمنين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

المفردات : (بطانة الرجل) : خاصته الذين يستبطنون أمره ، مأخوذة من بطانة الثوب للوجه الذى يلى البدن ، ويسمى الوجه الظاهر ظهارة ، وهى تستعمل للواحد والجمع مذكراً ومؤنثاً ، و﴿ من دونكم ﴾ : أى من غيركم و﴿ **يألونكم** ﴾ : من إلى فى الأمر يألو إذا قصر فيه ويقال : لا آلوك نصحاً ولا آلوك جهداً أى لا أمنعك نصحاً ولا أنقصك جهداً ، والخبال : النقصان ومنه رجل مخبول ومخبل ومختبل إذا كان ناقص العقل ، والفساد أى فساداً وضرراً . وودت كذا : أى أحببته . والعنت : المشقة . و﴿ **البغضاء** ﴾ : شدة البغض كالضراء شدة الضر . و﴿ **الكتاب** ﴾ : هنا : المراد به جنسَ الكتب كما يقال كثر الدرهم فى أيدى الناس ، و[عض الأنامل] : يراد به شدة الغيظ أحيانا ، كما يراد به الندم أحيانا أخرى ، و﴿ **ذات الصدور** ﴾ : الخواطر القائمة بالقلب ، والدواعى التى تدعو إلى الأفعال أو الصوارف التى ترفعها عنه ، و﴿ المس ﴾ : أصله ما كان باليد كاللمس ، وسمى كل ما يصل إلى الشىء مساً ، فقالوا : مسه التعب والنصب قال تعالى ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾[1] وقال : ﴿ **وإذا مسكم الضر فى البحر** ﴾[2] و(الحسنة) : **المنفعة حسية كانت أو معنوية كصحة البدن والفوز بالغنيمة وأعظمها انتشار الإسلام وحصول الألفة بين المسلمين و(السيئة) : الفقر والهزيمة وحصول التفرقة بين الأقارب من ساء يسوء بمعنى قبح فهو سيئ والأنثى سيئة قال تعالى : ﴿ ساء ما يعملون ﴾[3] (والكيد) : الاحتيال لإيقاع غيرك فى مكروه ، و(المحيط بالشىء) : هو الذى يحيط به من كل جوانبه ، ويراد به فى حق الله العلم بدقائقه**

(١) من الآية : ٣٨ من سورة ق .
(٢) من الآية : ٦٧ من سورة الاسراء .
(٣) من الآية : ٦٦ من سورة البقرة .

وتفاصيل أجزائه ، فلا يعزب عنه شيء منه قال تعالى : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾[(١)] وقال : ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾[(٢)] .

كانت الآيات السالفة حجاجاً من أهل الكتاب والمشركين ، وإلزامهم بالحجة ، وبياناً لأحوال المؤمنين ، وتذكيراً لهم بما يكون من سوء العاقبة يوم القيامة ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

والكلام فى هذه الآيات تحذير للمؤمنين من مخالطة الكافرين ؛ مخالطة تدعو إلى الإباحة بالأسرار ، والاطلاع على شئون المسلمين ، مما تقضى المصلحة بكتمانه ، وعدم معرفة الأعداء له .

ومما دعا إلى هذا النهى ، أنه كانت بين المؤمنين وغيرهم صلات خاصة تدعو إلى الإباحة بالأسرار إليهم ، كالنسب والمصاهرة والرضاعة والعهد والمحالفة ، إلى أن من طبيعة المؤمن أن يبنى أمره على اليسر والأمانة والصدق ، ولا يبحث عن عيوب غيره ، ولكن لما كان همّ المناصبين العداء من أهل الكتاب والمشركين إطفاء نور الدعوة ، وإبطال ما جاء به الإسلام ، والمسلمون لم يكن لهم غرض إلا نشر هذه الدعوة بسائر الوجوه التى يرونها كفيلة بإعلاء كلمة الدين ـ اختلف المقصدان وافترق الغرضان ، فلم يكن من الحزم أن يفضى الإنسان بسره إلى عدوه ، ويطلعه على خططه التى يدبرها للفوز ببغيته على أكمل الوجوه وأحكمها ، وأقربها للوصول إلى الغرض ، ومن ثم حذر الله المؤمنين من إطلاع عدوهم على أسرارهم . لما فى ذلك من تعريض مصلحة الملّة للخبال والفساد .

عن ابن عباس قال : «كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية ، فأنزل الله فيهم هذه الآية ينهاهم فيهاعن مباطنتهم خوف الفتنة» أخرجه ابن إسحاق .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ أى لا تتخذوا أيها المؤمنون الكافرين كاليهود والمنافقين أولياء وخواص لكم دون المؤمنين إذا كانوا على تلك الأوصاف التى ذكرت فى هذه الآية .

١ ـ **﴿ لا يألونكم خبالا ﴾** أى لا يقصرون فى مضرتكم وإفساد الأمر عليكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .
٢ ـ يتمنون ضركم فى دينكم ودنياكم أشد الضرر .
٣ ـ يبدون البغضاء بأفواههم ويظهرون تكذيب نبيكم وكتابكم ، وينسبونكم إلى الحمق والجهل ومن اعتقد حمق غيره وجهله لا يحبه .
٤ ـ ما يظهرونه على ألسنتهم من علامات الحقد أقل مما فى قلوبهم منه .

فهذه الأوصاف شروط فى النهى عن اتخاذ البطانة من غير المسلمين فإذا اعتراها تغير وتبدل ، كما وقع من اليهود ، فبعد أن كانوا فى صدر الإسلام أشد الناس عداوة للذين آمنوا انقلبوا فصاروا عونا للمسلمين فى فتوح الأندلس ، وكما وقع من القبط إذ صاروا عونا للمسلمين على الروم فى فتح مصر ، فلا يمتنع حينئذ

(١) الآية : ٢٠ من سورة البروج .
(٢) من الآية : ١٩ من سورة البقرة .

اتخاذهم أولياء وبطانة للمسلمين ، فقد جعل عمر بن الخطاب رجال دواوينه من الروم[1] وجرى الخلفاء من بعده على ذلك إلى أن نقل عبد الملك بن مروان الدواوين من الرومية[2] إلى العربية ، وعلى هذه السنة جرى العباسيون وغيرهم من ملوك المسلمين ، فى إسناد أعمال الدولة باليهود والنصارى حتى العصر الحاضر ، فإن كثيراً من سفراء الدولة العثمانية ووكلائها من النصارى . ومع كل هذا يرمينا الأجانب بالتعصب ويقولون : إن الإسلام لا تساهل فيه ، وهذا النهى المقيد بتلك الأوصاف شبيه بالنهى عن اتخاذ الكفار أنصارا وأولياء ، فى قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾[3] .

﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ أى قد أظهرنا لكم الدلالات الواضحة التى يتميز بها الولى من العدو ، ومن يصح أن يتخذ بطانة ومن لا يصح أن يتخذ ؛ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته ﴿ **إن كنتم** ﴾ تدركون حقائق هذه الآيات التى تفرق بين الأعداء والأولياء ، وتعلمون قدر مواعظ الله وحسن عواقبها .

ثم ذكر نوعاً آخر من التحذير عن مخالطة الكافرين واتخاذهم بطانة ؛ وفيه تنبيه لهم على خطئهم فى ذلك ، وقد ضمنه أموراً ثلاثة كل منها يستدعى الكف عن مخالطتهم .

١ ـ ﴿ **هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم** ﴾ أى أنكم تحبون هؤلاء الكفار الذين هم أشد الناس عداوة لكم ، ولا يقصرون فى إفساد أمركم وتمنى عنتكم ، ويظهرون لكم العداوة والغش ، ويتربصون بكم ريب المنون ، فكيف بكم توادونهم وتواصلونهم ؟ وحب المؤمنين لهم وهم على تلك الشاكلة من أقوى البراهين على أن هذا الدين دين رحمة وتساهل لا يمكن أن يتصور ما هو أعظم منه فى ذلك .

٢ ـ ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾ أى أنكم تؤمنون بجميع ما أنزل الله من الكتب ؛ سواء منها ما نزل عليكم وما نزل عليهم ، فليس فى نفوسكم جحد لبعض الكتب الإلهية ، ولا للنبيين الذين جاءوا بها ، حتى يحملكم ذلك على بغض أهل الكتاب ، أما هم فيجحدون بعض الكتب ، وينكرون بعض النبيين .

وخلاصة هذا : أنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابهم وكتابكم ، فما بالكم لو كنتم لا تؤمنون بكتابهم ، كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ فأنتم أحرى ببغضهم ومع هذا تحبونهم ولا يحبونكم .

---

(١) روى القرطبى أن : عمر بن الخطاب قال : لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا ، واستعينوا على أموركم ورعيتكم بالذين يخشون الله تعالى ، وقيل لعمر رضى الله عنه : إن ههنا نصرانيا من أهل الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا آخذ بطانة من دون المؤمنين» والحقيقة أن عمر بن الخطاب أخذ بنظام الدواوين دون أن يستعمل الروم أو الفرس .

(٢) عبد الملك بن مروان أول من سك نقودا عربية كوسيلة للاستقلال الاقتصادى ولم يذكر أى مصدر أن الدواوين كانت تكتب بالرومية ، ولكن أوراق البردى التى كانت تصنع فى مصر كان عليها شعار النصرانية فأمر عبد الملك بالغائه ، فلما هدده امبراطور القسطنطينية بسك عملة تسب الإسلام ونبيه ، أمر عبد الملك بسك عملة اسلامية «ملخصا عن رسالة النقود للمقريزى» .

(٣) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة .

قال ابن جرير : فى الآية إبانة من الله عز وجل عن حال الفريقين أعنى المؤمنين والكافرين ، ورحمة أهل الإيمان ورأفتهم بأهل الخلاف لهم ، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الإيمان ا . هـ .

وقال قتادة : فوالله إن المؤمن ليحب المنافق ويأوى إليه ويرحمه ، ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه (أفناه وأهلكه) ا . هـ .

وفى هذا توبيخ للمؤمنين بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم ، ونحو الآية قوله : ﴿ فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾[1].

٣ ـ ﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ ، أى وإذا لقوا المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ ألانوا لهم القول ، حذراً على أنفسهم منهم ، فقالوا : آمنا وصدقنا بما جاء به محمد ﷺ ، وإذا هم صاروا فى خلاء حيث لا يراهم المؤمنون أظهروا شدة العداوة والغيظ منهم ، حتى ليبلغ الأمر إلى عض الأنامل كما يفعل أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه . وإنما فعلوا ذلك لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ، وصلاح ذات بينهم ، ونصر الله إياهم حتى عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلاً إلى التشفى منهم فاضطروا إلى مداراتهم .

﴿ **قل موتوا بغيظكم** ﴾ هذا دعاء عليهم بازدياد الغيظ ، حتى يهلكوا كقولهم : دُمْ بعز . وبت قرير عين ، ونحو ذلك والمراد بذلك ازدياد قوة الإسلام وعز أهله .

وفى هذا عبرة للمسلمين لعلهم يتذكرون فيعلموا أن ما حل بهم من الازدراء ما كان إلا بزوال هذا الاجتماع والتفرق بعد الاعتصام .

﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ فيعلم ما تنطوى عليه صدوركم من البغضاء والحقد والحسد ، ولا يخفى عليه ما تقولون فى خلواتكم ، وما يبديه بعضكم لبعض من تدبير المكايد ونصب الحيل للمؤمنين ، وما تنطوى عليه صدور المؤمنين من حب الخير والنصح لكم ، ويجازى كلا على ما قدم من خير أو شر واعتقد من إيمان أو كفر .

﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها** ﴾ أى إذا نالكم خير كانتصاركم على أعدائكم المقاومين لدعوتكم ودخول الناس فى دين الله أفواجاً ، أحزنهم ذلك وعز عليهم .

وإن نالتكم مساءة كالإخفاق فى حرب أو إصابة عدوّ لكم أو حدوث اختلاف بين جماعتكم فرحوا بذلك .

قال قتادة فى بيان ذلك : فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة وظهوراً على عدوهم ، غاظهم ذلك وساءهم ، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافا ، أو أصيب طرف من أطراف المسلمين سرهم ذلك ،

---

(١) من الآية : ١٠٤ من سورة النساء .

وأعجبوا به وابتهجوا ، وهم كلما خرج منهم قرين أكذب الله أحدوثته وأوطأ حملته وأبطل حجته وأظهر عورته ، وذلك قضاء الله فيمن مضى منهم ، وفيمن بقى إلى يوم القيامة ا . هـ .

﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ﴾ أى وإن تصبروا على مشاق التكاليف فتمتثلوا الأوامر وتتقوا كل ما نهيتم عنه وحظر عليكم ، ومن ذلك اتخاذ الكافرين بطانة ـ فلا يضركم كيدهم ، لأنكم قد وفيتم لله بعهد العبودية ، فهو يفى لكم بحق الربوبية ، ويحفظكم من الآفات والمخافات ، كما قال سبحانه ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ❊ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾[1] .

قال بعض الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فاجتهد فى اكتساب الفضائل .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر الصبر فى كل مقام يشق على النفس احتماله ، ولا شك أن حبس الإنسان سره عن وديده وعشيره ومعامله وقريبه مما يشق عليه ، فإن من لذات النفوس أن تفضى بما فى الضمير إلى من تسكن إليه وتأنس به .

ولما نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم من خلطائهم وعشرائهم وحلفائهم ، لما بدا منهم من البغضاء والحسد ؛ حسن أن يذكرهم بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم ، واتقاء ما يجب اتقاؤه للسلامة من عواقب كيدهم .

وفى الآية عبرة للمسلمين فى معاملة الأعداء ، فإن الله أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكافرين ، واتقاء شرهم ، ولم يأمرهم بمقابلة الشر بمثله ، إذ من دأب القرآن ألا يأمر إلا بالمحبة والخير ، ودفع السيئة بالحسنة كما قال : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾[2] فإن تعذر تحويل العدو إلى محب يدفع سيئاته بما هو أحسن منها ؛ جاز دفع السيئة بمثلها ، من غير بغى كما فعل النبى ﷺ مع بنى النضير ، فإنه حالفهم ووادّهم فنكثوا العهد ، وخانوا وأعانوا عليه عدوه من قريش وسائر العرب ، وحاولوا قتله فلم يكن هناك وسيلة لعلاجهم إلا قتالهم وإجلاءهم من ديارهم .

﴿ **إن الله بما يعملون محيط** ﴾ أى إنه تعالى عالم بعمل الفريقين ، ومحيط بأسباب ما يصدر من كل منهما ، ومقدماته ونتائجه وغاياته ، فهو الذى يعتمد على إرشاده فى معاملة أحدهما للآخر ، ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه ما يعلمه ذلك المحيط بعمله ، وعمل من يناهضه ويناصبه العداوة ، فهداية الله للمؤمنين خير وسيلة للوصول إلى أغراضهم ومآربهم .

وهذه الجملة كالعلة لكون الاستعانة بالصبر ، والتمسك بالتقوى شرطية للنجاح ، وخلاصة المعنى ـ أن الله قد دلكم على ما ينجيكم من كيد أعدائكم ، فعليكم أن تمتثلوا وتعلموا أنه محيط بأعمالهم ، وهو القادر على أن يمنعهم مما يريدون بكم فثقوا به وتوكلوا عليه .

---

(١) من الآيتين : ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .
(٢) من الآية : ٣٤ من سورة فصلت .

مع بدر وأحد

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

المفردات : (غدا) : خرج غدوة ـ والغدوة والغداة : ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس و﴿ **تبوىء** ﴾ أى تهيىء وتسوى و (المقاعد) واحدها مقعد : مكان القعود والمراد المواطن والمواقف . و (الهم) : حديث النفس وتوجهها إلى الشىء و (الطائفتان) : الجماعتان : وهما بنو سلمة وبنو حارثة من الأنصار ﴿ **أن تفشلا** ﴾ : أى تضعفا وتجبنا . ﴿ **وليهما** ﴾ : أى ناصرهما . و (**التوكل**) : من وكل فلان أمره إلى فلان إذا اعتمد عليه فى كفايته ولم يتوله بنفسه . **والأذلة** : واحدهم ذليل وهو من لا منعة له ولا قوة ، وقد كانوا قليلى العدة من السلاح والدواب والزاد ، و (**الكفاية**) : سد الحاجة وفوقها الغنى . و[**الإمداد**] : إعطاء الشىء حالا بعد حال ﴿ **بلى** ﴾ : كلمة للجواب كنعم لكنها لا تقع إلا بعد النفى وتفيد إثبات مابعدها ، و **الفور** : الحال التى لا بطء فيها ولا تراخى ، فمعنى ﴿ **من فورهم** ﴾ : أى من ساعتهم بلا إبطاء و﴿ **مسوِّمين** ﴾ (بكسر الواو) من قولهم : مسوِّم على القوم : أى أغار عليهم ففتك بهم ، وقيل من التسويم بمعنى إظهار سيما الشىء وعلامته : أى معلمين أنفسهم أو خيلهم . و﴿ **طرفا** ﴾ : أى طائفة وقطعة منهم . و﴿**يكبتهم** ﴾ من الكبت وهو شدة الغيظ أو الوهن الذى يقع فى القلب .

تحدثت سورة آل عمران عن غزوة أحد من أول قوله تعالى : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾ فهذه ستون آية تناولت غزوة أحد بكل مافيها من دروس وعبر ، والواقع أن هذه الغزوة مدرسة عظمى من مدارس التاريخ ، كان من أهم دروسها درس التمحيص ، قال تعالى : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ نعم كان لابد من أحد ولذا كان الرسول ﷺ إذا مر بهذا الجبل يقول : (أحد جبل يحبنا ونحبه) ولقد وقف الرسول ﷺ على هذا الجبل ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فارتج الجبل فقال له الصادق المعصوم وهو ينظر من وراء الحجب ويستشف الغيوب بوحي من علام الغيوب قال له : « اثبت أحد فإن فوقك نبياً وصديقاً وشهيدين » . وكان ماقاله الرسول حقاً ، فقد زكى الله عقله فقال : ﴿ والنجم إذا هوى * ماضل صاحبكم وما غوى ﴾[(١)] وزكى لسانه فقال : ﴿ وماينطق عن الهوى ﴾[(٢)] وزكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾[(٣)] وزكى جليسه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾[(٤)] وزكى فؤاده فقال : ﴿ ماكذب الفؤاد مارأى ﴾[(٥)] وزكى بصره فقال : ﴿ مازاغ البصر وماطغى ﴾[(٦)] وزكاه كله فقال ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[(٧)] .

نعم كان لا بد من أحد في حياة المسلمين حتى يميز الله الخبيث من الطيب قال سبحانه وتعالى في هذه الآيات التي نزلت في أحد : ﴿ **ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾[(٨)] لقد كانت غزوة أحد بوتقة انصهرت فيها المعادن وأعني بها معادن الرجال ، كما قال تعالى : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾[(٩)] إن الشدائد هي مقياس الصمود والوفاء ومقادير الرجال .

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾ .

إن التضحية بالروح شيء يهون على أصحاب العقائد المؤمنين بالشهادة ، وهذا ماقرره الله تعالى في قوله ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ فإنهم إذا صمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة وخطبت السيوف على منابر الرقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب ، فلا ترى إلا رؤوساً تنثر ودماء تهدر .

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

---

(١) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة النجم .
(٢) الآية ٣ من سورة النجم .
(٣) الآية ٤ من سورة النجم .
(٤) الآية : ٥ من سورة النجم .
(٥) الآية : ١١ من سورة النجم .
(٦) الآية : ١٧ من سورة النجم .
(٧) الآية : ٤ من سورة «ن» .
(٨) من الآية : ١٧٩ من سورة آل عمران .
(٩) من الآية : ١٩ من سورة الرعد .

وضجت صدور العاديات ضبحاً ، فرأيت الميدان حركة دائبة متواصلة وصفها القرآن الكريم أدق وصف فى قوله جل شأنه : ﴿ والعاديات ضبحا * فالموريات قدحاً * فالمغيرات صبحاً * فأثرن به نقعاً * فوسطن به جمعاً ﴾[١] إذا كان ذلك كذلك فإن المؤمنين يشتاقون إلى الجنـة أكثر من اشتيـاق الجنة إليهم فترخص أرواحهم فى أسواق الموت ، ويتلقون ضربات السيوف كأنها قبلات الملائكة .

وإذا كانت غزوة أحد قد غربلت القلوب ، ونخلت الرجال نخلاً ، فقد سبق أن حدثنا الكتاب العزيز عن الملأ من بنى إسرائيل ، الذين قال الله فيهم : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ﴾[٢] وقال فيهم ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾[٣] وقال فى حق المؤمنين منهم : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾[٤] وجاء ذلك رداً على الذين قالوا : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾[٥] وهكذا صمدت القلة أمام الكثرة الجالوتية فكانت النتيجة أن القلة المؤمنة هزمت الكثرة الباغية الطاغية ، قال تعالى : ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾[٦] إن الذين وصفوا غزوة أحد بأنها كانت هزيمة كذبوا ، فلو هزم الرسول وأصحابه فمن الذين ينتصرون والله تعالى يقول : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾[٧] ويقول : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٨] ويقول : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٩] فهل هناك أدنى شك أن الرسول ﷺ وأصحابه أقوى الناس إيمانا ، لقد اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاختاره لرسالته ، ثم اطلع على قلوب العباد بعـده ، فوجـد قلوب أصحابـه خير قلوب العبـاد فاختارهم لصحبته .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

أنت الـذى قـاد الجيـوش محـطماً عهـد الضـلال وأدب السـفهـاء
وسمـوت بـالبشـر الـذين تعلمـوا سنن الشـريعـة فـارتقـوا سعـداء

إذا فما الذى حدث يوم أحد ؟ كل الذى حدث خلل فى النظام لا أكثر ، عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون ﴾ فإن شئت فسم هذه الغزوة « مدرسة التمحيص » وإن شئت فسمها « يوم حمزة » وإن شئت فسمها : «ساعات شدة» أما أن تقول

---

(١) الآيات الأولى من سورة العاديات .
(٢) من الآية : ٢٤٦ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة .
(٥) من الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة .
(٦) الآيتان : ٢٥٠ ، ٢٥١ من سورة البقرة .
(٧) من الآية : ٤٧ من سورة الروم .
(٨) الآية : ٥١ من سورة غافر .
(٩) الآية : ٢١ من سورة المجادلة .

أنها هزيمة ، وتبلغ بنا الجرأة على الله ، أن أحدهم أراد أن يتملق طاغية من طغاة العصر ، فشبه هزيمته يوم النكسة بيوم أحد . !!

سبحانك هذا بهتان عظيم ! ! إنها جرأة على الله ونفاق رخيص ، وتزلف ممقوت ، وإن أردت دليلا على ذلك ؛ فاقرأ قوله تعالى : ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾[١] أفى سبيل المناصب الزائلة نبيع ديننا وننسى مبادئنا ﴿ ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ﴾[٢] إننى مازلت أؤكد : أن غزوة أحد كانت نصراً مبيناً مؤزرا ، وأقوى مافى النصر نصر الإنسان على نفسه ، ولم يكن فيها لون من ألوان الهزيمة ، فإن الهزيمة تتحقق بإحدى ثلاثة أشياء : إما بسلب الأرض ! ! ولم يحدث هذا يوم أحد ؛ فما أخذ المشركون من المسلمين أرضا ، كما حدث فى نكسة يونيو ، وإما بالقضاء على الجيش ؛ وذلك لم يحدث يوم أحد ؛ لقد صمدوا وأعادوا النظام ، قال تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾[٣] وإما أن تكون الهزيمة بتغيير عقيدة القوم ، ولقد عاد القوم مع رسول الله ﷺ وهم أشد إيمانا وأصلب عودا ، وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾[٤] فأى شىء من هذه الثلاثة وقع يوم أحد ! ؟ لا شىء ؛ فكيف تصف تطهير الصفوف بأنه هزيمة ، لا يقول هذا إلا مفتر كذاب ، يجرى وراء منصب وزارى ويسعى وراء المغنم أينما كان ، وحيثما حل ، ويبيع دينه بعرض من الدنيا ، وحساب هؤلاء عند الله يفصل بينهم ، وهو خير الفاصلين .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله تعالى فى شأن غزوة أحد تحت عنوان «مواطن العبرة من غزوة أحد» : ستون آية من سورة آل عمران ، من قوله تعالى : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال . . إلى قوله ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾[٥] نزلت كلها بعد غزوة أحد تسجيلا لوقائعها وتفسيرا لأسبابها ونتائجها ، وغزوة أحد ثانى الغزوتين المشهورتين فى صدر الجهاد الإسلامى ، والمسلمون حين يذكرون الغزوة الأولى ، غزوة بدر تغمر قلوبهم عند ذكراها موجة من البهجة والغبطة ، لأنها كانت أول ضربة كسروا بها قيود ذلهم واستضعافهم ، وسجلوا بها معجزة النصر على أعدائهم ، نصر القلة على الكثرة ، ونصر الضعف على القوة ، بل نصر قوة الحق والإيمان ، على قوة الجبروت والطغيان .

---

(١) الآية : ١٤١ من سورة النساء .
(٢) من الآية : ٧١ من سورة الأنعام .
(٣) الآيات : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ من سورة آل عمران .
(٤) من الآيتين : ١٧١ ، ١٧٢ من سورة آل عمران .
(٥) من الآية : ١٢١ إلى ١٨٠ من سورة آل عمران .

ولكنهم حين يذكرون الغزوة الأخرى غزوة أحد يكادون يستقبلون ذكراها بملء قلوبهم حزنا وأسفا لما أصابهم فيها من قرح ولما وقع لهم فيها من محنة وبلاء .

ولو فقه الناس ، لكان اغتباطهم بيوم أحد أضعاف اغتباطهم بيوم بدر ، ذلك أن يوم بدر كان لونا واحداً من النصر ، وكانت منه عبرة واحدة من معجزة النصر ، أما يوم أحد فقد تطور الموقف فيه أطواراً ثلاثة ، وكان لكل طور منها سره وعبرته .

لقد كان أوله نصراً ظاهراً كيوم بدر ، بل كان النصر فيه أظهر وأبهر ، كان المشركون يوم بدر ألفاً وكان المسلمون يومئذ ثلثمائة ونيفا ، أى أنهم كانوا نحو الثلث من عدة أعدائهم .

أما فى يوم أحد فكان المشركون ثلاثة آلاف ، وكان المسلمون عند خروجهم ألفا ، ولكن نقص عددهم فى الطريق ، حيث تخلف عنهم عبد الله بن أبى فى ثلثمائة من المنافقين ، بل همت طائفتان من المؤمنين أن تتخلفا أيضا ولكن الله ثبتهما ؛ فأصبح جيش المسلمين سبعمائة فقط ، أى أقل من الربع ، ومع ذلك فقد اكتسحوا أمامهم الآلاف الثلاثة وأثخنوهم تجريحاً وتقتيلاً .

هذه هى الجولة الأولى أشارت الآية العزيزة إليها ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه** ﴾ أى تحشونهم حش الأعشاب وتحصدونهم حصد الهشيم وتستأصلونهم بإذن الله وتيسيره ، فلننظر الآن كيف تحول الموقف .

لقد كان الرسول الأعظم والقائد الملهم صلوات الله عليه قد بوأ المؤمنين مقاعد للقتال ، وخصص لكل طائفة منهم مجالا لا تتخطاه ، جعل فريقا من الرماة فوق الجبل ، يحمون ظهر الجيش ويشغلون العدو عنه ، وأصدر أمره إلى هذا الفريق بأن يثبتوا فى مراكزهم مهما تكن النتيجة قائلا لهم : (لا تبرحوا مكانكم نصرنا أو غلبنا حتى لو تخطفتنا الطير[1]) ولكن الذى حدث هو أنه لما فر المشركون منهزمين حتى وصلوا إلى رحال نسائهم واندفعت كتلة جيش المسلمين تجمع الغنائم والأسلاب ، ظنت فرقة الرمى أنه قد وضعت الحرب أوزارها وأنه لن يكون للمشركين رجعة فتحولت عن مراكزها واتجهت بدورها إلى جمع الغنائم .

وهكذا تركت فى ظهر الجيش ثغرة فطن لها فرسان المشركين ، فتسللوا منها ، وتتابع القوم وراءهم ، هنالك أخذ المسلمون على غرة من خلفهم ، فأصابهم الاضطراب والخور ، وفر أكثرهم مصعدين فى الوادى ، أى منحدرين فيه لا يلوون على شىء ، ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ وقليل من أصحابه التفوا حوله ، وقد أخذتهم كلهم الجراح واستشهد منهم العشرات حتى نادى مناد : إن محمدا كان من بين القتلى فتراكمت بذلك ضروب الهم والغم على المسلمين : غم على ما فاتهم من النصر ، بعد إحرازه ، وغم على ما أصابهم من التقتيل والتمثيل ، وغم على تركهم الرسول خلفهم ورغبتهم بأنفسهم عن نفسه .

---

(١) روى البخارى عن البراء بن عازب : قال : لما كان يوم أحد ولقينا المشركين ، أجلس رسول الله ﷺ أناسا من الرماة وأمّر عليهم عبد الله بن جبير ، وقال لهم : « لا تبرحوا من مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتمونا قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم » الحديث .

وتلك هى الجولة الثانية التى يقول الله تعالى فى شأنها : ﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** ﴾ ويقول : ﴿ **إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون** ﴾ .

أكثر الناس لا يعرفون عن غزوة أحد إلا هاتين المرحلتين وهذا هو ما يفسر شعور الحزن والأسى الذى يقترن فى نفوسهم بذكرى هذه الموقعة لأنها فى نظرهم قد انتهت بكارثة ، هؤلاء الناس يسقطون من حسابهم جولة ثالثة لها خطرها وهى جولة لا يقدرها حق قدرها إلا من عرف ما للشدائد والمحن من الفضل ، فى صهر النفوس ، وشحذ العزائم ، ورفع الروح المعنوية ، فى الجيوش القوية الإيمان السليمة الكيان ، ولعمرى لقد كان للوحى القرآنى أكبر نصيب فى إعلاء هذه الروح .

نعم لقد حزن المسلمون فى أول الأمر لما أصابهم ، ولكنهم لم يهنوا ولم يستكينوا ، إن حرارة الحزن عندهم لم تكن نارا تحرق القلوب ، ولكنها كانت نوراً يضىء الطريق ، لقد كانت ناراً وحسرات فى قلوب المنافقين وضعاف النفوس ، أولئك الذين ﴿ **أهمتهم أنفسهم** ﴾ فجعلوا يقولون : ﴿ **لو كان لنا من الأمر شىء ماقُتلنا ها هنا** ﴾ ولكنها عادت برداً وسلاماً فى قلوب المؤمنين ؛ إذ مسح الله على ناصيتهم بكف الهجوع والنوم ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم** ﴾ وما أن استيقظوا هادئين آمنين حتى أخذوا يتعرفون أسباب مصابهم ، ويوازنون مغتبطين بين خسائرهم وأرباحهم ، ويتأهبون فى الوقت نفسه بالكر على أعدائهم ، لئن كان قد جُرح منهم كثير لقد جَرَحُوا هم أيضا كثيراً ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله** ﴾ ولئن كان استشهد منهم اليوم سبعون ، لقد قتلوا فى الغزوة السابقة سبعين وأسروا سبعين ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم** ﴾ .

وفى الحق لقد عرفوا الآن أن ما أصابهم كان من كسب أيديهم ، وأنه كان بسبب معصية بعضهم لأمر القائد ، وتطلع بعضهم إلى عرض الدنيا ، ولكن ها هم أولاء يضمدون الآن جروحهم ، ويستعدون فى عزم وحزم لملاقاة عدوهم ، لا يزلزلهم التهديد بالجموع المحشودة لهم ، ولقد كان من بركات هذا التأهب والعزم المصمم ؛ أن ولى الأعداء راجعين إلى ديارهم وتلك هى الجولة الثالثة التى أشارت اليها الآيات الكريمة ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾ .

ويتساءل الناس بعد ذلك : لماذا لم تكن غزوات النبوة كلها انتصارات متتابعة دون خسارة كبيرة فى الأرواح ؟ فيجيب القرآن بأنه لو دام النصر هكذا ، لدخل الناس كلهم فى الإسلام ظاهراً لا اقتناعاً بالحق ، ولكن انضماماً إلى صف المنتصرين ، وإذن لا يتميز المؤمن من المنافق ، ولا يتبين من يعبد الله على حرف ممن يعبده فى السراء والضراء ، ولو دام النصر هكذا ، ما نال المجاهدون شرف التضحية ، ودرجة الشهادة ، ولو دام النصر هكذا ، لداخل نفوس المؤمنين شىء من الزهو والغرور ، ولو دام النصر هكذا ما انكشفت رءوس

الجريمة والفساد ، السفاكون لدماء أولياء الله ، المستحقون بذلك لمقت الله ، وهكذا يقول الله جلت حكمته ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا** ﴾ ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ، ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾[1] .

وبعد فقد اشتاقت النفس إلى معرفة وقائع تلك الغزوة ولا ينبئك مثل خبير : وبين أيدينا كتاب (الرسول القائد) للواء الركن (محمود شيت خطاب) فلنصغ إلى ما جاء فيه عن غزوة أحد ؛ وما من شك فى أن أهل الخبرة إذا تحدثوا ؛ فإنما يتحدثون من منطق المعرفة التى لا تقبل تحريفا أو زيفاً .

غزوة أحد

١ - المسلمون :

سيطر المسلمون على الطرق التجارية المؤدية إلى الشام وإلى العراق سيطرة تامة ، ومنعوا قوافل قريش من سلوك هاتين الطريقين ، فلم يبق أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة ، وهى تجارة غير رابحة بالنسبة إلى التجارة مع الشام ، وبذلك حلت بتجارة قريش ــ التى تعتمد عليها فى حياتها كل الاعتماد ــ نكبة قاضية .

كما سيطر المسلمون على المدينة ؛ وجعلوا منها قاعدة أمينة لدعوتهم وحركاتهم العسكرية المقبلة .

٢ - المشركون واليهود :

(ا) قريش :

حرصت قريش بعد نكبتها الكبرى فى بدر على الأخذ بثأرها من المسلمين ، وصممت على الاستعداد عسكرياً لاستعادة كرامتها وشرفها .

ولم تُغْنها غزوة « السويق » شيئاً بل زاد فرارها المشين أمام مطاردة المسلمين لها عاراً جديداً على عارها ببدر ، كما أثارت سرية زيد بن حارثة كوامن حقدها على المسلمين .

وقرر كبراء قريش تخصيص ربح تجارة قافلة أبى سفيان ــ التى جرت من أجلها معركة بدر ــ لإنجاز استعدادات معركة الثأر القادمة ، وإمدادها بالمواد والسلاح والرجال .

(ب) مشركو المدينة وما حولها :

أصبح مشركو المدينة ضعفاء جداً لإسلام أكثرهم ، وتظاهر الآخرون منهم بالإسلام كما هابت القبائل المجاورة قوة المسلمين ، فحالف أكثرهم المسلمين وانكمش الآخرون فى ديارهم خائفين .

---

(١) إلى هنا ينتهى حديث الدكتور محمد عبد الله دراز .

(جـ) اليهود :

لم يبق داخل المدينة بعد طرد بنى قينقاع أحد من اليهود ، أما اليهود الذين يسكنون فى ضواحى المدينة فقد خافوا من المسلمين ؛ خاصة بعد جلاء بنى قينقاع وقتل كعب بن الأشرف ، فتظاهروا بالمحافظة على عهودهم ولو أنهم أخفوا نقض تلك العهود .

قوات الطرفين

١ - المسلمون :

قوات المسلمين ستمائة وخمسون رجلاً وخمسون فارساً بقيادة الرسول ﷺ .

٢ - المشركون :

قوات المشركين ألفان وتسعمائة من قريش ومواليها وأحابيشها ومائة من بنى ثقيف . . بينهم سبعمائة دارع[1] فقط ، ومع القوة مائتا فرس ، وثلاثة آلاف بعير وهذه القوات بقيادة أبى سفيان ، وقد اصطحب أكثر زعماء قريش نساءهم للتشجيع ورفع المعنويات .

أهداف الطرفين

١ ـ المسلمون :

الدفاع عن المدينة ، وصد قريش عنها ، لتتوفر لهم الحرية الكاملة لنشر الدعوة إلى الإسلام بحرية وسلام .

٢ - المشركون :

أخذ ثاراتهم من المسلمين فى معركة بدر وسرية زيد بن حارثة ، لاستعادة كرامتهم وشرفهم بين العرب .

قبل المعركة

١ ـ المشركون

(ا) بعد إنجاز قريش استعداداتها للمعركة ، سلكت طريق مكة ـ المدينة ، حتى وصلت موضعاً قريباً من المدينة يسمى : « الصمغة » فأطلقت إبلها وخيلها ترعى زرع الأنصار هناك ، وتابعت سيرها حتى بلغت « العقيق » ثم نزلت عند بعض السفوح من جبل « أحد » على بعد خمسة أميال من المدينة .

(ب) كان على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها . . عكرمة بن أبى جهل ، وكان اللواء عند طلحة ابن أبى طلحة من بنى عبد الدار .

(جـ) نظم المشركون قوتهم للقتال بأسلوب الصف وأمنوا حماية ميمنة الصفوف وميسرتها بالفرسان .

---

(١) الدارع لابس الدروع وكان هذا النوع من الجند يومئذ ، يعد جنديا حسن التجهيز والإعداد .

(د) بذلت نساء قريش ــ خاصة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ــ أقصى جهودهن لتشجيع قريش وبعث الحماسة فى نفوسهم لأخذ ثاراتهم من المسلمين .

٢ - المسلمون :

(ا) أرسل العباس عم الرسول ﷺ رسالة مع أحد الرجال ، يخبر بها الرسول ﷺ عن وقت خروج قريش لقتاله وعن عدد قواتها فأسرع الرجل بالرسالة ، حتى قطع الطريق بين مكة والمدينة فى ثلاثة أيام ، فوجد الرسول ﷺ ماكثاً بمسجد « قباء » فدفع إليه بالرسالة .

(ب) قرأ أبي بن كعب الرسالة على الرسول ﷺ فطلب ألا يبوح بمضمونها لأحد وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة .

(جـ) بعث النبى ﷺ رجلين من أصحابه ، لمعرفة الموضع الذى وصلته قريش فوجداها قاربت المدينة ، وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها .

(د) خشى المسلمون عاقبة هذه الغزوة ، لأن قريشاً أكملت استعداداتها بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ حروبها ، فبات المسلمون من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد ، كما بات الحراس فى مداخل المدينة لحراستها .

(هـ) جمع الرسول ﷺ أهل الرأى من المسلمين ، صباح يوم الجمعة ١٥ شوال من السنة الثالثة للهجرة لأخذ رأيهم فى كيفية لقاء العدو .

كان رأى النبى ﷺ أن يتحصنوا بالمدينة وأن يدعوا قريشاً خارجها ، فإذا دخلتها قاتلهم فيها قتال الشوارع ، فى منطقة يعرفها المسلمون كل المعرفة ولا تعرفها قريش ، مما يساعد المسلمين على ضرب قريش وإيقاع الخسائر الفادحة بها ، وكان رأى كبار الصحابة مثل هذا الرأى كما كان هذا رأى عبد الله ابن أبي .

ولكن الرجال الذين لم يشهدوا « بدراً » ــ خاصة الشباب منهم ــ تحمسوا للخروج ، وأيدهم رجال اشتركوا فى بدر حتى لا يرمى المسلمون بالجبن ، لاضطرارهم إلى القتال داخل المدينة ، فرأى الرسول ﷺ أن الأكثرية تؤيد الخروج فقال لهم : « إنى أخاف عليكم الهزيمة . . » فأبوا مع ذلك إلا الخروج ، فنزل على رأى الأكثرية لأن الشورى كانت أساس نظامه الذى لا يحيد عنه .

(و) أمر الرسول ﷺ صحابته أن يتهيئوا للخروج ، ودخل داره وتقلد سيفه وارتدى عدة القتال ثم خرج إلى الناس .

شعر القوم أنهم استكرهوا الرسول ﷺ على رأيهم ، وأظهروا الرغبة فى النزول على رأيه ، إلا أن النبى ﷺ وجد غضاضة فى الاضطراب بين شتى الآراء والتردد فى قراراته ، فقال : « ما ينبغى لنبى لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » ثم طلب إليهم الصبر عند البأس .

(ز) تقدم محمد ﷺ بألف رجل حتى نزل « الشخين » وهى « موضع فى ضواحى المدينة » وهناك رأى مع المسلمين مفرزة لا يعرف أهلها فلما سأل عنها علم أن أفرادها من اليهود حلفاء عبد الله بن أبى ، فرفض معاونتهم له إلا أن يسلموا أو يعودوا أدراجهم وقال : « لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك » فعادوا إلى المدينة .

انسحب بعدهم عبد الله بن أبى مع ثلاثمائة من أنصاره من المنافقين فبقى النبى ﷺ مع سبعمائة من أصحابه يستعد بهم لقتال ثلاثة آلاف .

(ح) عسكر المسلمون بالشعب من موضع « أحد » فى عدوة الوادى ، حيث جعل ظهر المسلمين إلى جبل « أحد » وكانت مجمل خطة الرسول ﷺ للقتال ما يلى :

أولاً : وضع خمسين من الرماة بإمرة عبد الله بن جبير فى موضع على طريق تؤدى من الجبل إلى خلف قواته ، وكان هدفه من وضع هذه القوة هو حرمان العدو من الالتفاف على قواته من الخلف ولتكون هذه القوة قاعدة أمنية لقواته : تحمى ظهرها وتستند إليها وتستر انسحابها عند الحاجة .

وأصدر لهذه القوة الأمر الجازم التالى : « احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وإن رأيتمونا نقبل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على بالنبل » .

ثانياً : نظم أصحابه صفوفاً للقتال بهم بأسلوب الصف وتخير الأشداء ليكونوا طليعة الصفوف .

ثالثاً : أصدر أوامره بألا يقاتل أحد إلا بأمر منه .

رابعاً : أخذ يشجع أصحابه ويحثهم على الصبر فى القتال .

(ط) ولبعث التنافس الشريف بينهم فى إظهار البطولة أخذ الرسول ﷺ سيفاً بيده فقال مخاطباً أصحابه : « من يأخذ هذا السيف بحقه » ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام أبو دُجَّانة سماك بن خرشة .

فقال « وما حقه يارسول الله ؟ » فقال الرسول : « أن تضرب به العدو حتى ينحنى » وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل ، فأخذ السيف وأخرج عصابته الحمراء التى كانوا يسمونها « عصابة الموت » وعصب بها رأسه ، وجعل يتبختر بين الصفين ، على عادته إذ يختال عند الحرب ، فلما رآه الرسول ﷺ يتبختر قال : « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن » .

(ى) بهذه الخطة وبهذا الاندفاع كان وضع المسلمين قبل نشوب القتال فى أحد .

سير القتال

١ ـ بدء المناوشات :

(أ) قامت مفرزة من قوات قريش ، بقيادة أبي عامر عبد عمرو بن صيفى الأوسى بالهجوم على قوات المسلمين ، فنشبت الحرب ، وكان أبو عامر هذا قد انتقل من المدينة إلى مكة ، يحرض قريشاً على قتال محمد ﷺ . ولم يكن شهد « بدراً » مع قريش فخرج إلى أحد فى خمسة عشر رجلاً من الأوس ، ومن عبيد أهل مكة ، وكانت المفرزة التى تحت إمرته مؤلفة من هؤلاء فقط ، وكان يزعم لقريش أنه إن نادى أهله المسلمين من الأوس الذين يحاربون فى صفوف محمد ﷺ ؛ استجابوا له وانحازوا معه ونصروا قريشاً !! خرج أبو عامر منادياً : « يامعشر الأوس ، أنا أبو عامر » فأجابه الأوس المسلمون : « لا أنعم الله بك عينا يافاسق » ثم هاجموه ونشب القتال بين الطرفين بعد أن أذن الرسول ﷺ للمسلمين بالقتال .

(ب) حاول أبو عامر وعكرمة بن أبى جهل أن يلتفَّا على أجنحة المسلمين ، ولكن المسلمين رشقوهم بالحجارة ولم يكن من السهل الالتفاف على أجنحة المسلمين لاستنادها على هضاب جبل « أحد » ففشلت محاولات التفاف المشركين .

(جـ) هتف حمزة بن عبد المطلب بكلمة التعارف للمسلمين فى أحد : « أمت أمت » . ثم اندفع إلى قلب جيش المشركين ونادى حامل لواء المشركين طلحة بن أبى طلحة : « من يبارز ؟ » فخرج إليه على بن أبى طالب ؟ فقتله . واندفع أبو دجانة وفى يده سيف النبى ﷺ ، وعلى رأسه عصابة الموت فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، حتى شق صفوف المشركين . ثم رأى إنساناً يحث المشركين على القتال فحمل عليه بالسيف فإذا بهند بنت عتبة تولول فارتد عنها أبو دجانة مكرماً سيف الرسول ﷺ أن يضرب به امرأة ، فلله درك يا أبادجانة ما أكرمك .

٢ ـ اشتداد القتال

(أ) اندفعت قريش إلى القتال يثور فى عروقها طلب الثأر لمن قتل من أشرافها منذ عام ، وكان من ورائهم نساؤهم للتشجيع والحث على الاستبسال ، وقد أعدت غير واحدة منهن مولى ، وعدته بالخير الوفير لينتقم لها ممن فجعها ببدر فى أب أو أخ أو زوج أو عزيز ، وكانت هند بنت عتبة قد وعدت وحشياً الحبشى مولى جبير خيراً كثيراً ، إن هو قتل حمزة ، كما قال له جبير بن مطعم مولاه : وكان عمه قد قتل ببدر « إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق » وتربص وحشى بين الصفوف يترصد حمزة حتى رآه فى عرض الناس يحطم أبطال المشركين ، فصوب عليه حربته وقذفه بها فصابت بطن حمزة أسفل سرته وخرجت من بين رجليه فاستشهد على أثرها .

(ب) على الرغم من الخسارة الفادحة التى لحقت بالمسلمين باستشهاد حمزة ، فإن قواتهم بقيت مسيطرة على الموقف تماماً ، وأخذ لواء المشركين يسقط بين حين وآخر ، حمل عثمان بن أبى طلحة اللواء بعد أن قتل

علىّ طلحة بن أبى طلحة ، فلما لقى هذا مصرعه حمله أبو سعيد بن أبى طلحة ، فقتله على بن أبى طالب أو سعد بن أبى وقاص .

وتعاقب حملة لواء المشركين من بنى عبد الدار حتى قتل منهم تسعة ، ثم حمله مولى لهم ، وحملته امرأة بعد ذلك لتفرق المشركين عنه .

(جـ) زحفت صفوف المسلمين على صفوف المشركين بعد تصدعها ، فانهزم المشركون حتى أحاط المسلمون بنساء المشركين ، وحتى وقع الصنم الذى احتملوه للتبرك به من فوق الجمل الذى كان يحمله .

وأخذ المسلمون يطاردون المشركين حتى أبعدوهم عن معسكرهم ، ثم عادوا يجمعون الغنائم !! ورأى الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ ألا يبرحوا أماكنهم ، حتى ولو رأوه وأصحابه يقتلون ، فقال بعضهم لبعض : « لم تقيمون ها هنا فى غير شىء وقد هزم الله عدوكم وهؤلاء إخوانكم ينهبون عسكرهم ؟ »

واختلفوا فيما بينهم أيتركون مواضعهم أم يبقون فيها !؟ فأصر قائدهم عبد الله بن جبير على البقاء وعصاه أكثرهم وانطلقوا ، ولم يبق معه غير نفر دون العشرة واشترك المنطلقون من الرماة فى النهب .

٣ ـ هجوم المشركين المقابل :

(أ) انتهز خالد بن الوليد فرصة ترك رماة المسلمين لمواضعهم ، وكان على ميمنة خيل المشركين ، فهجم على مواضع الرماة التى تركوها ، واستطاع إجلاء الباقين منهم عن مواضعهم ؛ لقلة عددهم ، وعدم إمكانهم الصمود فى موضعهم الواسع بالنسبة لعددهم الذى أصبح قليلاً : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾[١] ولم يفطن المسلمون لهذه المباغتة ، وصاح خالد يعلن لقريش بأنه التف وراء المسلمين ، فعادت قوات قريش المنهزمة للقيام بهجوم مقابل حيوى ، ونادوا بشعارهم : ياللعزى ياهبل ، بينما قام خالد بالالتفاف من الخلف فأصبح المسلمون محاطين من كافة جوانبهم ؛ وتحرج موقفهم للغاية خاصة أن صفوفهم لم تكن رصينة فى مواضعها لتستطيع الصمود ، إذ تبعثر أفرادها لجمع الغنائم .

(ب) كانت هذه الحركة مباغتة تامة للمسلمين ؛ لم يكونوا يتوقعونها ، فتبعثر أكثرهم وبقى القليل منهم إلى جانب الرسول ﷺ ، يقاتلون ليشقوا لهم طريقاً من بين قوات قريش ، التى أطبقت عليهم من كل جانب ، واستشهد كثير من المسلمين وهم يحاولون شق طريقهم ، واستطاع المشركون أن يصلوا قريباً جداً من موضع الرسول ﷺ فرماه أحدهم بحجر أصاب أنفه وكسر رباعيته ، وتمالك الرسول نفسه وسار مع أصحابه الباقين ، فإذا به يقع فى حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، فأسرع إليه على بن أبى طالب وأخذ بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾[٢] .

---

(١) من الآية : ١٦٦ آل عمران .

(٢) الآية : ٣١ من سورة محمد ـ ﷺ

(جـ) أخذ المشركون يديمون زخم هجومهم للقضاء على الرسول ﷺ وأصحابه ونادى أحدهم : بأنه استطاع قتل محمد ؟ ولكن أصحابه استماتوا فى الدفاع عنه .

كانت أم عمارة نسيبة الخزرجية قد خرجت أول النهار ومعها سقاء لها فيه ماء ، تدور على المسلمين لتسقى منهم من استسقى ، فلما أحاط المشركون بالمسلمين ، وأصبح الخطر الداهم محدقاً بالرسول ﷺ نفسه ، ألقت نسيبة سقاءها ، واستلت سيفاً وأخذت تذود عن محمد ﷺ بالسيف ، وترمى عن القوس[1] ، حتى خلصت الجروح إليها ، وصد أبو دجانة بجسمه النبال المنهالة صوب محمد ﷺ ، فحنى ظهره عليه والنبل يقع فيه ، ووقف سعد بن أبى وقاص إلى جانب محمد ﷺ ، يرمى بالنبل دونه والرسول يناوله النبل ويترصد له إصاباته .

ورمى الرسول بنفسه عن قوسه حتى تحطمت القوس ، وتساقط المسلمون حوله صرعى واحداً بعد الآخر ، مستقتلين فى الدفاع عنه ، حتى استطاعوا شق طريقهم عبر صفوف قريش إلى رابية مشرفة من روابى جبل أحد ، وتركت هذه الاستماتة أثرها فى قريش ، فتوقف زخم الهجوم قليلاً ، واستفاد المسلمون من هذه الفرصة السانحة ، فصعد الرسول ﷺ بهم إلى جبل أحد ، وفى طريق صعوده رآه كعب بن مالك ، الذى كان مع المسلمين الذين تفرقوا عنه ، لهول صدمة مباغتة قريش لهم . ولانتشار إشاعة قتل الرسول ﷺ ، فنادى كعب بأعلى صوته : « يامعشر المسلمين . . أبشروا . . هذا رسول الله » فلما سمعت قريش صيحة كعب لم يصدقها أكثرهم ، وحسبها صيحة أريد بها شد عزائم المسلمين ، إلا أن بعضهم اندفع وراء محمد ﷺ وصحابته ، وتقدم أبى بن خلف ، وهو يقول : « أين محمد ؟ لانجوت إن نجا » فطعنه الرسول ﷺ بحربة الحارث بن الصِّمَّة طعنة جعلته ينقلب عن فرسه ويعود أدراجه ليموت فى الطريق ، وهو أول قتيل قتل بيد الرسول ﷺ .

(د) وصل المسلمون إلى هضبة مرتفعة من جبل أحد ، ولكن خالد بن الوليد وصل بفرسانه قريباً منهم فقام المسلمون عليه بهجوم مقابل واستطاعوا صد قواته .

(هـ) ذهبت كافة محاولات قريش للقضاء على المسلمين أدراج الرياح ، إذ تجمعوا حول الرسول ﷺ ، وأصبحوا تحت قيادته ، بعد أن فرقهم جمع الغنائم ، وصدمة المباغتة عنه ، فأصبحوا متفرقين وبدون قيادة .

وبلغ الإعياء برجال قريش حداً بالغاً ، وفشلت محاولاتهم الهجومية المتكررة للقضاء على المسلمين نهائياً ، فقررت قريش إنهاء القتال .

وقبل العودة ، أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى : « أفيكم محمد ، » فلم يجيبوه فقال : « أفيكم ابن أبى قحافة ؟ » فلم يجيبوه . فقال : « أفيكم عمر بن الخطاب ؟ » فلم يجيبوه ، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قريش أن قيام الإسلام بهم . فقال : « أما هؤلاء فقد كفيتموهم[2] » ، فلم يتمالك عمر أن

---

(١) ترمى بالنبال ، فكأنها كانت تقوم بدور مقاتلين اثنين ، مقاتل يصد البعيد بالرمى ، والثانى يدفع القريب بالسيف .
(٢) أى كفيتم جهدهم فى توحيد المسلمين بموتهم وذهابهم وكان صمت المسلمين عن الإجابة بأمر من الرسول ﷺ .

أجاب « ياعدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ، وإن محمداً يسمع كلامك الآن . . . » فقال أبو سفيان : « يوم بيوم بدر ؛ والحرب سجال » ثم جعل يرتجز ويقول : « أعل هبل . . أعل هبل » فقال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبونه ؟ » قالوا : يارسول الله بماذا نجيبه ؟ قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » قال أبو سفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم » . فقال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبونه ؟ » فقالوا : وبماذا نجيبه ؟ فقال : « فقولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : « وإن موعدكم بدر للعام القابل » . فقال الرسول ﷺ لرجل من أصحابه : « قل : نعم هو بيننا وبينك موعده وصدق الله العظيم : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ماأراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ؛ ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾(١) .

عودة الطرفين

١ ـ المشركون :

عاد المشركون أدراجهم إلى مكة ، فلما وصلوا موضع « الروحاء » على طريق المدينة ـ مكة سمع أبو سفيان بخروج المسلمين لقتاله ، فخاف أن يكون الرسول ﷺ قد جاء من المدينة بقوات جديدة ، فمر به معن الخزاعى ، وكان قد مر بمحمد ﷺ ومن معه ؛ فسأله أبو سفيان عن المسلمين فأجابه معن ؛ وكان لا يزال مشركاً . « إن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه ، وكلهم أشد ما يكون عليكم حقداً ومنكم للثأر طلباً . . »

فكَّر أبو سيفان أن انكسار قواته إذا اصطدم بالمسلمين ثانية ؛ معناه خسارة انتصاره فى (أحد) ، والقضاء على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً ، فلجأ إلى الحيلة وبعث مع ركب من بنى عبد القيس ، يقصدون المدينة أن يبلغوا محمداً ﷺ : أن أبا سيفان قد قرر السير إليهم ليستأصل بقيتهم ، ثم سارع بالرجوع إلى مكة .

٢ ـ المسلمون :

بعد عودة المشركين ووصول الرسول ﷺ وصحابته إلى المدينة ، قرر الرسول ﷺ القيام بحركة جريئة ، تخفف من وقع الهزيمة فى « أحد » ، وترد إلى المسلمين معنوياتهم ، وتدخل إلى روع اليهود والمنافقين الرهبة وتعيد إلى المسلمين سلطانهم بالمدينة المنورة قوياً كما كان .

لذلك خرج بأصحابه الذين شهدوا غزوة أحد فقط يوم الأحد ١٦ شوال من السنة الثالثة للهجرة ، أى فى اليوم الثانى من يوم أحد لمطاردة قوات قريش حتى وصل موضع « حمراء الأسد » ، وهى على مسافة

---

(١) الآية : ١٥٢ من سورة آل عمران .

ثمانية أميال من المدينة ، وعلى طريق المدينة ـ مكة ، جاءه من يخبره بأن قريشاً قررت السير إليه فلم تتضعضع معنويات المسلمين ، وقرروا لقاء قريش ، وبقوا ينتظرون هناك هذا الوعيد ثلاثة أيام ، فلما علموا بانسحاب قريش ، عادوا أدراجهم إلى المدينة . وبهذه الحركة الجريئة استرد المسلمون كثيراً من مكانتهم التى فقدوها فى « أحد » ، ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾[1]

خسائر الطرفين

١ ـ المشركون : قتل من قريش اثنان وعشرون رجلاً .
٢ ـ المسلمون : استشهد من المسلمين واحد وسبعون رجلاً

أسباب المحنة

١ ـ أنصر أم اندحار ؟

لا أتفق مع المؤرخين فى اعتبار نتيجة « أحد » نصراً للمشركين ، واندحاراً للمسلمين ، لأن مناقشة المعركة عسكرياً ، تظهر انتصار المسلمين ، على الرغم من خسائرهم الفادحة فى هذه المعركة ، ونبدأ المناقشة من الوجهة العسكرية البحتة لإظهار حقيقة نتائج غزوة أحد .

لقد انتصر المسلمون فى ابتداء المعركة ، حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم ، والإحاطة بنسائهم وأموالهم ، وتعفير لوائهم بالتراب ، ولكن التفاف خالد بن الوليد وراء المسلمين ، وقطع خط رجعتهم ، وهجوم المشركين من الأمام ، جعل قوات المشركين تطبق من كافة الجوانب على قوات المسلمين ، هذا الموقف فى المعركة جعل خسائر المسلمين تتكاثر ، ولكن بقى النصر . بجانبهم إلى الموقف الأخير ؛ ذلك لأن نتيجة كل معركة لا تقاس فى الناحية العسكرية بعدد الخسائر بالأرواح فقط ، بل تقاس بالحصول على هدف القتال الحيوى وهو القضاء المبرم على العدو مادياً ومعنوياً .

فهل استطاع المشركون القضاء على المسلمين مادياً ومعنوياً ؟

إن حركة خالد كانت مباغتة للمسلمين بلا شك ، وقيام المشركين بالهجوم المقابل وإطباقهم على قوات المسلمين من كافة الجوانب ، وهم متفوقون بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين ، كل ذلك كان يجب أن تكون نتائجه القضاء المبرم على كافة قوات المسلمين ، ولا يمكن أن يعد التفاف قوة متفوقة تفوقاً ساحقاً على قوة صغيرة أخرى من جميع جوانبها ، ثم نجاة تلك القوة الصغيرة بعد إعطاء خسائر عشرة بالمائة فقط من موجودها إلا انتصاراً لتلك القوة الصغيرة .

ولا يمكن اعتبار فشل القوة الكبيرة فى القضاء على القوة الصغيرة مادياً ومعنوياً ، فى مثل هذا الموقف الحرج للغاية ، إلا فشلاً لها .

---

(١) من الآية : ٨٤ من سورة النساء .

ولم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضاً ، وإلا لما استطاع المسلمون الخروج لمطاردة قريش بعد يوم واحد فقط من يوم « أحد » ، دون أن تتجرأ قريش على لقاء المسلمين ، بعيداً عن المدينة ، خاصة أن الرسول ﷺ خرج للقاء قريش بقوته التى اشتركت (فعلاً) بمعركة أحد ، دون أن يستعين بغيرهم من الناس .

إن نجاة المسلمين من موقفهم الحرج الذى كانوا فيه « بأحد » نصر عظيم لهم ، لأن أولى نتائج إطباق المشركين عليهم من كافة الجهات كان المفروض أن تكون القضاء التام ، ثم إن معركة « أحد » أتاحت للمسلمين معرفة المنافقين الذين كانوا بين صفوفهم بصورة لا تقبل الشك والمماراة ، وهذا مكسب عظيم لا يقدر بثمن ولا تعد خسائرهم بالأرواح إلى جانبه شيئاً مذكوراً .

٢ - أسباب خسائر المسلمين :

إن أسباب كثرة خسائر المسلمين فى معركة « أحد » هى مايلى :

(أ) عدم المطاردة :

لم يقم المسلمون بالمطاردة فى الصدمة الأولى من المعركة ، بعد انهزام المشركين بعيداً عن معسكرهم ، بل انشغلوا بالغنائم ، ولو أنهم قاموا بالمطاردة فوراً بعد انهزام المشركين ، لقضوا على قواتهم بسهولة ومن بعد ذلك يعودون لجمع الغنائم .

(ب) مخالفة الأوامر[1] :

تنفيذ الأوامر هو الضبط العسكرى الذى يعتبر روح الجندية ، والسبب المباشر المؤدى لكل انتصار فى كل معركة ، ومخالفة الرماة فى ترك مواقعهم والإسراع لجمع الغنائم ، خطأ كبير وقع فيه المسلمون حينذاك إذ كشف للعدو ظهورهم فاستفاد خالد من هذه الفرصة السانحة لتطويقهم من الخلف ، مما أدى إلى الإطباق عليهم من كافة الجهات .

(جـ) المباغتة :

المباغتة مبدأ من أهم مبادئ الحرب ، ومعناها ضرب العدو من مكان أو فى زمان ، أو بأسلوب لا يتوقعه ، بحيث يمكن تحطيم قوى العدو المادية والمعنوية ، وكان قيام خالد بن الوليد بالالتفاف وراء قوات المسلمين ، فى الوقت الذى انهزم فيه المشركون ، مباغتة تامة للمسلمين ، فارتبكت صفوفهم بدرجة لم يفرقوا معها بين قوات عدوهم وبين قواتهم ، كما تحطمت معنويات كثير منهم ، وأصبحوا لا يعرفون ما يصنعون .

---

(١) يعد السبب الثانى هو الأول فى المفهوم الايجابى بلزوم طاعة الرسول ﷺ طاعة مطلقة ؛ بينما السبب الأول هو الأول فعلا فى الأداء العسكرى البحت ، والحقيقة أن السببين ، وجهان لعملة واحدة إذ الطاعة المطلقة والأداء العسكرى الجاد من أهداف الرسول ﷺ وبهما يتحقق نصر الله .

إن هذه المباغتة أتاحت الفرصة لقريش للقضاء على المسلمين وإبادة قواتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستفادة من موقفهم الممتاز هذا ، فضيعوا هذه الفرصة السانحة ، لجعل معركة « أحد » حاسمة فى نتائجها .

دروس من أحد

١ ــ الحصول على المعلومات :

حصل المسلمون على المعلومات الكافية عن نوايا قريش وقوتها وحركتها ، من رسالة العباس عم النبى ﷺ ، قبل وقت مناسب من حركة قريش باتجاه المدينة لغزو المسلمين ، كما أرسل المسلمون دوريات استطلاعية قبل معركة « أحد » فعرفوا مواضع قوات قريش وأرسلوا دوريات استطلاعية بعد المعركة ، باتجاه حركة عودة المشركين .

لقد كان عمل المسلمين فى الحصول على المعلومات مفيداً فى منع المشركين من مباغتتهم فى المدينة .

٢ ــ القيادة :

كان لقريش فى معركة « أحد » قائد عام هو أبو سفيان ، ولم تظهر أية حنكَة لهذا القائد فى المعركة ، كما كانت سيطرته ضعيفة على ما يظهر ؛ بدرجة أن نساء المشركين مثلوا بشهداء المسلمين دون رغبته فلم يستطع أن يفعل شيئاً . ولو كانت قيادة أبى سفيان على شىء من الكفاءة ، لاستطاع الإيقاع بالمسلمين بعد تطويقهم التام أما قيادة الرسول ﷺ ، فقد ظهرت بشكل ظاهر فى هذه المعركة .

انتخب الموضع المناسب للمعركة ، واضطرت قريشاً إلى قبول المعركة فيه ، ونظم خطة القتال فانتخب مواضع الرماة لحماية ظهور المسلمين ، وخصص لهذه المواضع قوة كافية للدفاع عنها بإمرة قائد مسئول .

إن كل ذلك على أهميته لا يعتبر شيئاً بالنسبة إلى ظهور عبقرية قيادته فى أثناء القتال ، خلال الصفحة الثانية من معركة « أحد » حين طوق المشركون المتفوقون بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين قوة المسلمين القليلة ، بعد أن انهارت معنويات كثير منهم ؛ لما سمعوا خبر مقتل الرسول ﷺ فى المعركة ؛ فلجأوا إلى الهضاب بعيدا عن ساحة المعركة ، وبقى الرسول ﷺ ومعه شرذمة قليلة من المسلمين ، يقاومون وحدهم زخم هجوم قريش فى أوج قوته وعنفوانه .

لقد استطاع الرسول بهذا الموقف الصعب للغاية بالنسبة للمسلمين ؛ الموفق للغاية بالنسبة للمشركين ، أن يسيطر على الموقف فى معركة يائسة جداً ، ويقود الباقين من المسلمين لشق طريقهم من بين القوات المعادية المتفوقة المحيطة بهم ، ثم يحتل موضعاً مشرفاً ويقوم بإعادة تنظيم قواته الباقية ، ويعيد إليها

معنوياتها وبأسها وقوتها ؛ ويصد بها هجمات مقابلة شديدة للمشركين فيحيل الهزيمة المتوقعة إلى نصر ، لأنه اضطر قريشاً إلى اليأس من القضاء على المسلمين ، بعد أن كان فناء المسلمين أمراً « حتمياً » ثم اضطرهم إلى الانسحاب من المعركة ؛ بعد اليأس من إبادة المسلمين .

ولم يكتف بذلك بل خرج فى اليوم الثانى للمعركة لمطاردة قوات المشركين ، حتى اضطرهم إلى استعمال الحيلة بإرسال المعلومات الكاذبة للمسلمين ، عن اعتزامهم إعادة الكرة على قوات الرسول ﷺ ، فلم يكترث بهذا التهديد وإنما أعد العدة وقرر لقاء المشركين مهما تكن الظروف والأحوال[١] .

هذه قيادة عبقرية ؛ ظهرت للرسول ﷺ بهذه المعركة بشكل واضح كل الوضوح ، كان من بعض نتائجها أنها جعلت النصر إلى جانب المسلمين المغلوبين : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٢] .

٣ ـ القضايا التعبوية :

(أ) مخالفة الأوامر :

أخطأ رماة المسلمين فى مخالفتهم لأوامر الرسول ﷺ ، وانسحابهم من مواضعهم الأصلية لجمع الغنائم ، ولولا انسحابهم لما استطاع خالد بن الوليد ضرب مؤخرتهم ، ولما استطاعت قريش تطويق المسلمين . « إن مخالفة الأوامر فى « أحد » درس فى نتائج كل مخالفة عسكرية للأوامر فى الحرب ، وإن نتائجها المعروفة كافية لغرس هذا الدرس فى النفوس لكى لا يعود أحد لمثلها أبداً ». ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾[٣] .

(ب) عدم المطاردة :

بعد كل هجوم ناجح لا بد من مطاردة عنيفة للقضاء على العدو . وقد أخطأ المسلمون فى عدم مطاردتهم للمشركين ، بعد فرار المشركين من مواضعهم ، وابتعادهم عن معسكرهم ، والتفاف المسلمين حول نساء المشركين ، ومواشيهم وإبلهم ، فى الصفحة الأولى من يوم « أحد » ، ولو قام المسلمون بالمطاردة إلى مسافة عشرة أميال على الأقل لأوقعوا بالمشركين خسائر فادحة ، ولانتهت معركة « أحد » بنتائج فى مصلحة المسلمين .

---

(١) وهو ما تشير إليه الآيات ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ ١٧٣ ، ١٧٤ آل عمران .

(٢) آية : ٢١ من سورة المجادلة .

(٣) آية : ١٣٢ من سورة آل عمران . . والمخالفة التى حصلت من الرماة هى التى أشارت إليها الآية ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . . ﴾ الآية : ١٥٢ من آل عمران .

(جـ) أسلوب القتال :

لقد جرى القتال بين الطرفين بأسلوب الصفوف ، وبذلك استطاعت قريش أن تسيطر على المعركة ؛ بشكل أفضل من سيطرتها التى تجرى بأسلوب الكرّ والفر .

٤ ـ القضايا الإدارية :

(أ) الإدامة والنقلية :

كان المشركون متفوقين على المسلمين بإدامة قواتهم وإعاشتها وتسليحها وفى نقليتها تفوقاً محسوساً مما كان له أثر طيب على سير القتال لصالح المشركين .

(ب) الدفن :

دفن المشركون قتلاهم وتركوا قتلى المسلمين ، ولم يكتفوا بذلك بل مثلوا أشنع تمثيل ، فقد انطلقت هند بنت عتبة والنسوة اللائى معها يمثلن بالشهداء : يجدعن الآذان والأنوف .. ألخ .

أحد فى التاريخ :

لقد أجمع المؤرخون على اعتبار نتيجة « أحد » نصراً للمشركين على المسلمين ولكن الحقائق العسكرية لا تتفق مع ما أجمع عليه المؤرخون .

لقد كان بإمكان المشركين القضاء على قوات المسلمين فى معركة « أحد » بعد أن استطاعوا إحاطتهم من كافة الجوانب بقوات متفوقة عليهم تفوقاً ساحقاً .

ومع ذلك استطاع محمد ﷺ أن يشق طريقه بين القوات المحيطة به ويخلص تسعة أعشار قواته من فناء أكيد .

إن فشل المشركين فى القضاء على قوات المسلمين بعد إحاطتهم بقواتهم المتفوقة يعتبر اندحاراً لهم .

وإن نجاح المسلمين فى الخروج من تطويق المشركين بخسائر عشرة بالمائة من قواتهم القليلة يعتبر نصراً لهم .

بالإضافة إلى نجاح المسلمين فى التخلص من الفناء التام فى معركة « أحد » ؛ فقد نجحوا فى معرفة المنافقين بين صفوفهم قبل المعركة وبعدها ، مما أتاح لهم القيام بالتطهير العام فى صفوفهم بعد « أحد » ، على هدى وبصيرة . وجزى الله الشدائد كل خير[1] .

وبذلك تظهر الفائدة العظيمة لغزوة أحد للمسلمين .

إن نتيجة معركة أحد نصر « تعبوى » للمشركين على المسلمين ولكنها فشل (سوقى) للمشركين ، ولا يعد النصر التعبوى شيئاً يذكر إلى جانب الفشل السوقى[2] .

(١) وهذا ما عنته الآيات : ١٥٤ ، ١٥٥ من سورة آل عمران .
(٢) يعنى بذلك تحقيق النصر الفعلى بحسم المعركة تماما لصالح السلامة التعبوية .

وصدق الله العظيم : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين * ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[1] .

شهداء المسلمين فى أحد رضى الله عنهم :

١ ـ المهاجرون :

(أ) من قريش ثم من بنى هاشم بن عبد مناف بن عبد المطلب :

١ ـ حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم .

(ب) من بنى أمية بن عبد شمس :

٢ ـ عبد الله بن جحش « حليف لهم من بنى أسد بن خزاعة »

(جـ) من بنى عبد الدار بن قصى :

٣ ـ مصعب بن عمير .

(د) من بنى مخزوم بن يقظة :

٤ ـ شماس بن عثمان .

٢ ـ الأنصار :

(أ) من الأوس ثم من بنى عبد الأشهل :

٥ ـ عمرو بن معاذ بن النعمان .

٦ ـ الحارث بن أنس بن رافع .

٧ ـ عمارة بن زياد بن السكن .

٨ ـ سلمة بن ثابت بن وقش .

٩ ـ عمرو بن ثابت بن وقش .

١٠ ـ ثابت بن وقش « والد عمرو وسلمة » .

١١ ـ رفاعة بن وقش « أخو ثابت » .

١٢ ـ فيض بن قيظى .

١٣ ـ حباب بن قيظى .

١٤ ـ عباد بن سهل .

---

(١) الآيات : ١٣٨ - ١٤٢ من سورة آل عمران .

١٥ ـ الحارث بن سهل بن معاذ « ابن أخى سعد بن معاذ » .
١٦ ـ حسيل بن جابر « اليمان » والد حذيفة بن اليمان .

(ب) من أهل لاتج « اسم أطم من آطام المدينة » من بنى عبد الأشهل :

١٧ ـ إياس بن أوس بن عتيك بن عمرو .
١٨ ـ عبيد بن التيهان .
١٩ ـ عتيك بن التيهان .
٢٠ ـ حبيب بن زيد بن تيم .

(جـ) من بنى ظفر :

٢١ ـ يزيد بن حاطب بن أمية بن رافع .

(د) من بنى عمرو بن عوف ثم من بنى ضبعية بن زيد :

٢٢ ـ أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد .
٢٣ ـ حنظله الغسيل بن أبى عامر بن صيفى بن النعمان[1] .
٢٤ ـ قيس بن زيد بن ضبيعة .
٢٥ ـ مالك بن أمة بن ضبيعة .

(هـ) من بنى عبيد بن زيد .

٢٦ ـ أنيس بن قتادة .

(و) من بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف :

٢٧ ـ أبو حبة بن عمرو بن ثابت « أخو سعد بن حيثمة لأمه » .
٢٨ ـ عبد الله بن جبير بن النعمان « أمير الرماة[2] » .

(ز) من بنى السلم بن امرىء القيس بن مالك بن الأوس :

٢٩ ـ حيثمة « والد سعد بن حيثمة » .
٣٠ ـ عبد الله بن سلمة « حليف من بنى العجلان » .

(ح) من بنى معاوية بن مالك :

٣١ ـ سبيع بن حاطب بن الحارث بن قيس بن هيشة .
٣٢ ـ سويبق بن الحارث بن حاطب بن هيشة .
٣٣ ـ مالك بن عميلة « حليف لهم » .

---

(١) وذلك لأن الملائكة غسلته . . إذ قاتل وكانت به جنابة .
(٢) استمر فى موقعه مع قليل من الرماة التزاما لأمر الرسول ﷺ فاستشهدوا .

(ط) **من بن حطمة :**

٣٤ ـ الحارث بن عدى .

٣٥ ـ عمير بن عدى .

(ى) **من بنى النجار ثم من بنى سواد بن مالك بن غنم :**

٣٦ ـ عمرو بن قيس بن زيد .

٣٧ ـ قيس بن عمرو بن قيس « ابنه » .

٣٨ ـ ثابت بن عمرو بن زيد .

٣٩ ـ عامر بن مخلد .

(ك) **من بنى مبذول :**

٤٠ ـ أبو هبيرة بن الحارث بن علقمة .

٤١ ـ عمرو بن مطرف بن علقمة بن عمرو .

(ل) **من بنى عمرو بن مالك بن النجار :**

٤٢ ـ أوس بن ثابت بن المنذر « أخو حسان بن ثابت » .

(م) **من بنى عدى بن النجار :**

٤٣ ـ أنس بن النضير بن خضم « عم أنس بن مالك خادم النبى ﷺ » .

(ن) **من بنى مازن بن النجار :**

٤٤ ـ قيس بن مخلد .

٤٥ ـ كيسان « عبد هم » .

(س) **من بنى دينار بن النجار :**

٤٦ ـ سليم بن الحارث .

٤٧ ـ نعمان بن عبد عمرو .

(ع) **من بنى الحارث بن الخزرج :**

٤٨ ـ خارجة بن زيد بن أبى زهير .

٤٩ ـ أوس بن أرقم بن زيد .

٥٠ ـ سعد بن الربيع بن عمرو بن أبى زهير .

(ف) **من بنى الأنجر وهم بنو خدر :**

٥١ ـ مالك بن سنان « والد أبى سعيد الخدرى » .

٥٢ ـ سعيد بن سويد بن قيس .

٥٣ ـ عتبة بن ربيع بن رافع .

(ص) من بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج :

٥٤ ـ ثعلبة بن سعد بن مالك بن خالد .

٥٥ ـ ثقف بن فروة بن البدن :

(ق) من بنى طريف رهط سعد بن عبادة :

٥٦ ـ عبد الله بن عمرو بن وهب .

٥٧ ـ حمزة « حليف لهم من جهينة » .

(ر) من بنى عوف بن الخزرج ثم من بنى سالم ثم من بنى مالك بن العجلان :

٥٨ ـ نوفل بن عبد الله .

٥٩ ـ عباس بن عبادة بن نضلة .

٦٠ ـ نعمان بن مالك بن ثعلبة بن فهد .

٦١ ـ المحذر بن زياد العلوى « حليف لهم » .

٦٢ ـ عبادة بن الحسحاس .

(ش) من بنى سلمة بن حرام :

٦٣ ـ عبد الله بن عمرو بن حرام « والد جابر بن عبد الله » .

٦٤ ـ عمرو بن الجموح .

٦٥ ـ خلاد بن عمرو بن الجموح .

٦٦ ـ أبو أعين « مولى عمرو بن الجموح » .

(ت) من بنى سواد بن غنم :

٦٧ ـ سليم بن عمرو بن حديده .

٦٨ ـ عنترة « مولى سليم بن عمرو » .

٦٩ ـ سهل بن قيس بن أبى كعب .

(ث) من بنى زريق بن عامر :

٧٠ ـ ذكوان بن عبد بن قيس .

٧١ ـ عبيد بن عبد المعلى بن لودان من بنى حبيب .

قال الشيخ المراغى[١] تحت عنوان « استطراد دعت إليه الحاجة » :

« من هذه الآيات إلى ستين آية بعدها ، نزلت فى غزوة أحد ، فوجب ذكر طرف من أخبار هذه الواقعة ، ليستعين به القارىء على فهمها ، ويعرف مواقع أخبارها ، ويستيقن من حكمها وأحكامها ، ولكن عليك أن تعرف قبل هذا أن قريشاً اغتاظت من هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وحقدوا على أهلها إيواءهم للمسلمين ، وتهددوهم ، فكان لا بد من الاستعداد للدفاع ، وقد صار النبى ﷺ داعية للدين ، ورئيساً لحكومة المدينة ، وقائداً لجيشها . هذا وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الغزوات ، بها انتشر الإسلام بسرعة لم تعهد فى التاريخ ، وقد اشترك النبى ﷺ فى تسع من أشهرها أ . هـ .

وقعة بدر :

كانت قريش ترى أن محمداً وأصحابه شرذمة من الثوار ، يجب أن تقتل ، ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة فى المدينة ، وهى على طريق التجارة إلى الشام ، فجد المسلمون فى مهاجمة قوافل مكة ، ونالوا أول انتصارهم فى السنة الثانية من الهجرة ، فى غزوة بدر - بئر بين مكة والمدينة كانت لرجل يسمى بدراً فسميت باسمه - وكانت هذه الواقعة نصراً مؤ زراً للمسلمين ، وكارثة كبرى على المشركين وكان لها دوى عظيم فى أرجاء البلاد العربية ، من أقصاها إلى أقصاها .

وقعة أحد :

أحد جبل على نحو ميل من المدينة إلى الشمال .

ولما خذل المشركون فى وقعة بدر ، ورجع فلُّهم إلى مكة مقهورين - أخذ أبو سفيان يؤلب المشركين على رسول الله ﷺ ، إذ كان هو الرئيس بعد مقتل من قُتِل من صناديد قريش ، فاجتمعوا للحرب وكانوا نحو ثلاثة آلاف ، فيهم سبعمائة دارع ، ومعهم مائتا فرس وقائدهم أبو سفيان بن حرب ، ومعه زوجته هند بنت عتبة ، وكان حجلة النساء خمس عشرة امرأة ، ومعهن الدفوف يضربن بها ويبكين على قتلى بدر ، ويحرضن المشركين على حرب المسلمين ، وساروا من مكة حتى نزلوا مقابل المدينة ، فى شوال سنة ثلاث من الهجرة ، وكان رأى رسول الله ﷺ المقام فى المدينة وقتالهم بها ، ورأى باقى الصحابة الخروج لقتالهم ، فخرج فى ألف من الصحابة ، إلى أن صار بين المدينة وأحد ، فانخذل عنه عبد الله بن أبى ابن سلول فى ثلث الناس ، ونزل رسول الله ﷺ الشعب من أحد ، وجعل ظهره إلى الجبل .

وكان عدة أصحاب رسول الله ﷺ سبعمائة ، فيهم مائة دارع ، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين ، وكان لواء رسول الله ﷺ مع مصعب بن عمير ، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ، ولواؤهم مع بنى عبد الدار .

---

(١) شيخ الجامع الأزهر فى فترتين من الثلاثينيات والأربعينيات أيام الملكين فؤاد وفاروق .

ولما التقى الجمعان قامت هند زوج أبي سفيان ومعها النسوة يضربن بالدفوف وهى تقول : ويهاً بنى عبد الدار . . ويهاً حماة الأديار . . ضرباً بكل بتار .

وقاتل حمزة قتالاً شديداً ، ولما قتل مصعب بن عمير ، أعطى النبى ﷺ الراية لعلى بن أبى طالب .

ولما انهزم المشركون طمعت الرماة فى الغنيمة ، وفارقوا المكان الذى أمرهم النبى ﷺ بملازمته ؛ فأتى خالد بن الوليد مع خيل المشركين من خلف المسلمين ، ووقع الصراخ أن محمداً قد قتل ، وانكشف المسلمون وأصاب العدو منهم ، وكان يوم بلاء على المسلمين ، وكان عدد الشهداء سبعين رجلاً ، وعدد قتلى المشركين اثنين وعشرين رجلاً ، ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ وأصابته حجارتهم ، حتى وقع وأصيبت رباعيته ، وشج فى وجهه وكلمت شفته وجعل الدم يسيل على وجهه ، وهو يقول : « كيف يفلح قوم قد خضبوا وجه نبيهم بالدم » وجعل يدعوهم إلى ربهم فنزل قوله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾[1] .

ودخنت حلقتان من حلق المغفر فى وجه رسول الله ﷺ فى الشجة ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه ﷺ ، فسقطت ثنية من ثنياته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، وامتص مالك ابن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته وطمع فيه المشركون وأدركوه يريدون منه ما الله عاصمه منه كما قال : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[2] وأصابت طلحة يومئذ ضربة شديدة شلت يده ، وهو يدافع عن رسول الله ﷺ ، ومثلت هند وصواحبها بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ فجدعن الأنوف وصلمن الآذان ، واتخذن منها قلائد ، وبقرت عن كبد حمزة ، ولاكتها ولم تستسغها ، وضرب أبو سفيان شدق حمزة بزج الرمح ، وصعد الجبل وصرخ بأعلى صوته : الحرب سجال يوم بيوم ، اعل هبل (صنم الكعبة) أى ظهر دينك ، ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل ، فقال النبى ﷺ : قولوا : هو بيننا وبينكم ، ثم سار المشركون إلى مكة وبحث رسول الله ﷺ عن عمه حمزة ، فوجده مبقور البطن مجدوع الأنف مصلوم الأذن ، فقال : (لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين منهم) ، ثم أمر أن يسجى ببردته ثم صلى عليه ، فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى فوضعهم إلى جانب حمزة واحداً بعد واحد ، حتى صلى عليهم اثنتين وسبعين صلاة ، ثم أمر بحمزة فدفن ، واحتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة . . فدفنوهم بها ، ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك ، وقال : (ادفنوهم حيث صرعوا) .

إذا علمت ما تقدم سهل عليك فهم هذه الآيات وما بعدها ، مما له صلة بهذه الوقعة الهامة فى تاريخ الإسلام ، وما فيها من عظة وعبرة للمسلمين ، فقد كانت نبراساً لهم فى كل حروبهم وأعمالهم ، فى حياة النبى ﷺ وبعده - إذ علموا أن مخالفة القائد الأعظم لها أسوأ الآثار ، وأن كل ما حدث فيها إنما جر إليه الطمع فى الغنيمة وجمع حطام الدنيا وهو ظل زائل وعرض مفارق .

---

(١) الآية : ١٢٨ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية : ٦٧ من سورة المائدة .

المعنى الجملى :

بعد أن نهى الله المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الأعداء الذين كاشفوهم بالعداوة ، ثم أعلمهم ببغضهم إياهم ، ثم أمرهم بالصبر والتقوى ، وأنهم إذا فعلوا ذلك لا يضرهم كيدهم شيئاً ، ذكرهم فى هذه الآيات بوقعة أحد ، وما كان فيها من كيد المنافقين ، إذ أذاعوا عن المؤمنين من قالة السوء ما أذاعوا ، ثم خرجوا معهم وانشقوا عنهم فى الطريق ، ورجعوا بثلث الجيش ليوقعوا الفشل بين صفوفهم ، ويخذلوهم أمام عدوهم ، وما كان من كيد المشركين ، وتألبهم عليهم ، ولم يكن لذلك من واق إلا الصبر حتى عن الغنيمة التى طمع فيها الرماة ، فتركوا مواقعهم ، وإلا تقوى الله ، ومن أهم دعائمها طاعة الرسول فيما به أمر وعنه نهى ، وذكرهم أيضاً بما كان يوم بدر من نصرهم على عدوهم على قلتهم إذ جعلوا الصبر جنتهم ، وتقوى الله عدتهم ، فأصابوا من عدوهم ما أصابوا ، وكان لهم النصر عليهم ، مما لا يزال مكتوباً فى صحيفة الدهر ، مثلاً خالداً لصدق العزيمة ، والبعد عن مطامع هذه الحياة .

الإيضاح :

﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال** ﴾ . أى واذكر لهم أيها الرسول وقت خروجك من بيتك غدوة سحر يوم السبت سابع يوم من شوال سنة ثلاث للهجرة ؛ تهيىء أمكنة للقتال ، منها مواضع للرماة للفرسان ، ومواضع لسائر المؤمنين .

﴿ **والله سميع عليم** ﴾ أى والله سميع لما يقول المؤمنون ؛ فيما شاورتهم فيه من موضع لقائك عدوك وعدوهم ، كقول من قال : اخرج بنا إليهم حتى نلقاهم فى خارج المدينة ، وقول من قال : لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا ، ولما تشير به أنت عليهم ، عليم بأصلح تلك الآراء لك ولهم وبنية كل قائل ؛ من أخلص منهم فى قوله ، وإن أخطأ فى رأيه ، كالقائلين بالخروج إليهم ، ومن لم يخلص فى قوله ، وإن كان صواباً كعبد الله بن أبى ومن معه من المنافقين .

قال ابن جرير : ضرب الله مثلاً أو مثلين على صدق وعده فى الآية السابقة :

﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ﴾ بتذكيرهم بما كان يوم أحد يوم وقوع المصيبة بهم عند ترك الرماة الصبر ــ وذنب الجماعة أو الأمة لا يكون عقابه مقصوراً على من اقترفه ، بل يكون عاماً ــ وبما كان يوم بدر إذ نصرهم على قلتهم وذلتهم .

﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ أى : والله سميع عليم حين همت بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ، وكانا جناحى عسكر رسول الله ﷺ - أن تضعفا وتجبنا عن القتال ، حين رأوا انخذال عبد الله بن أبى ومن معه عن رسول الله ﷺ .

وهذا الهم لم يكن عزيمة ممضاة ، ولكنه كان حديث نفس ، وقلما تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ، فإن ساعدها صاحبها ذم ، وإن ردها إلى الثبات والصبر فلا بأس بما فعل ، ومما يدل على أن ذلك الهم لم يصل إلى حد العصيان قوله تعالى : ﴿ **والله وليهما** ﴾ أى متولى أمورهما لصدق إيمانهما ، لذلك صرف الفشل عنهما وثبتهما فلم يجيبا داعى الضعف الذى ألم بهما عند رجوع المنافقين ، وكانوا نحو ثلث العسكر بل تذكروا ولاية الله للمؤمنين فوثقوا به وتوكلوا عليه .

﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أى إن المؤمنين ينبغى أن يدفعوا ما يعرض لهم من جزع أو مكروه ، بالتوكل على الله لا بحولهم وقوتهم ، ولا بأنصارهم وأعوانهم ، بعد أخذ الأهبة والعدة تحقيقاً لسنن الله فى خلقه ، إذ جعل الأسباب مفضية إلى المسببات وهو الخالق للسبب والمسبب ، والموجد للصلة بينهما .

فبقدرته تعالى ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، كما نصر المؤمنين يوم بدر على قلة منهم فى العدد والعُدد والسلاح ، وفى سائر عتاد الجيش ، ولذا قال : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** ﴾ أى إنكم إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، وينصركم ربكم كما نصركم على أعدائكم ، وأنتم يومئذ فى قلة من العدد ، وفى غير منعة من الناس ، حتى أظهركم على عدوكم ، مع كثرة عددهم وعظيم منعتهم ، فأنتم اليوم أكثر عدداً منكم حينئذ ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم فى ذلك اليوم ، ولا ضير فى الذل إذا لم يكن عن قهر من البغاة والظالمين ، ولم يكن المؤمنون بمقهورين ولا بمستذلين من الكفار وإنما كانت قوتهم فى بداية تكوينها .

﴿ **فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ أى فاتقوا الله ربكم بطاعته واجتناب محارمه ، لتعدوا أنفسكم لشكره على ما مَنَّ به عليكم ، من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم ، ولما هداكم له من الحق الذى ضل عنه مخالفوكم ؛ إذ من لم يروض نفسه بالتقوى ، يغلب عليه الهوى واتباع الشهوات ، فلا يرجى منه الشكر لأنعم الله ، بصرفها فيما خلقت لأجله من الحكم والمنافع .

﴿ **إذ تقول للمؤمنين** ﴾ أى ولقد نصركم الله ببدر فى ذلك الحين ، الذى كنت تقول فيه : ﴿ **ألن يكفيكم** ﴾ . . إلخ .

أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبى أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم ، فأنزل الله : ﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم** ﴾ . . إلى قوله : ﴿ **من الملائكة مسومين** ﴾ فبلغته هزيمة المشركين ، فلم يمد أصحابه ، ولم يُمَدُّوا بالخمسة آلاف .

﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين** ﴾ قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير ، « أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم تقاتل الملائكة سوى فى يوم بدر ، وفيما سواه كانوا عدداً ومدداً لا يقاتلون ولا يضربون » .

﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾

أى بلى يكفيكم ذلك ، ثم وعدهم بالزيادة بشرط الصبر والتقوى ، حثا لهم عليهما وتقوية لقلوبهم ؛ أى إن تصبروا على لقاء العدو ومناهضتهم وتتقوا معصية الله ومخالفة نبيه ﷺ ، يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة ليعجل نصركم ويسهل فتحكم .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين : ﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة** ﴾ ثم وعدهم بعد الآلاف الثلاثة بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا ، ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ، ولا على أنهم لم يمدوا بهم ، وقد يجوز أن يكون الله لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك ، ولا خبر عندنا صحَّ من الوجه الذى يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف ، وغير جائز أن يقال فى ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به ولا خبر فنسلم لأحد الفريقين قوله .

غير أنه فى القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة ، وذلك قوله : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾[1] . أما فى أُحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها فى أنهم أمدوا ، وذلك أنهم لم يقعوا فى المحنة ونيل منهم ما نيل .

﴿ **وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به** ﴾ قال الزجاج : وماجعل الله ذكر المدد إلا بشرى يعنى وماجعل الله ذلك القول الذى قاله الرسول ﷺ لكم ﴿ **ألن يكفيكم** ﴾ الآية إلا بشرى ، يفرح بها روعكم وطمأنينة لقلوبكم التى طرقها الخوف من كثرة عدد عدوكم ، وعظيم استعداده ، وفى هذا إيماء إلى أن فى ذكر الإمداد غايتين :

١ ــ إدخال السرور فى القلوب .

٢ ــ حصول الطمأنينة ببيان أن معونة الله ونصرته معهم فلا يجبنوا عن المحاربة .

﴿ **وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾ العزيز هو القوى الذى لا يمتنع عليه شىء ، والحكيم هو الذى يدبر الأمور مى خير السنن وأقوم الوسائل ، فيهدى لأسباب النصر الظاهرة والباطنة من يشاء ويصرفها عمن يشاء .

والمراد - أنه يجب توكلكم على الله ، لا على الملائكة ، فيجب على العبد ألا يتكل على الأسباب فقط بل يقبل على مسبب الأسباب ، إذ هو الذى لا يعجز عن إجابة الدعوات ، فعليكم ألا تتوقعوا النصر إلا من رحمته ولا المعونة إلا من فضله وكرمه .

فإن حصل الإمداد بالملائكة فليس ذلك إلا جزءاً من أسباب النصر ، وهناك أسباب أخرى كإلقاء الرعب فى قلوب الأعداء ، ومعرفة المواقع كما فعل النبى ﷺ ، إذ سلك إلى أحد أقرب الطرق وأخفاها على العدو ، وعسكر فى أحسن موضع وهو الشعب (الوادى) وجعل ظهر عسكره إلى الجبل ، وجعل الرماة من

(١) الآية : ٩ من سورة الأنفال .

ورائهم ، إلى نحو ذلك من الأسباب التى تمكنه من الظهور على عدوه والغلبة عليه . فلما اختل بعض هذه التدبيرات ، وفات الرماة مواضعهم ، وقعوا فى الشدة .

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾ أى أن المقصود من نصركم بإمداد الملائكة أن يهلك طائفة منهم ، ويخزى طائفة أخرى بالهزيمة ، فيرجعوا خائبين لا أمل لهم فى نصر .

وعبر بالطرف لأنه أقرب إلى المؤمنين من الوسط ، فهو أول ما يوصل إليه من الجيش ، وقد أهلك الله من المشركين طائفة أول الحرب يوم أحد ، قدر عددهم بنحو ثمانية عشر رجلاً ، وعبر بالخيبة دون اليأس لأن الأولى لا تكون إلا بعد توقع النصر وانتظاره ، والثانية بعده وبدونه ، وضد الخيبة الظفر وضد اليأس الرجاء .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، لبيان أن الأمر كله بيد الله ، فقال : **﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾** أى ليس إليك أيها الرسول من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمرى ، وتنتهى فيهم إلى طاعتى ، ثم أمرهم بعد ذلك والقضاء فيهم بيدى دون غيرى ، أقضى فيهم وأحكم بالذى أشاء من التوبة أو عاجل العذاب بالقتل والنقم ؛ أو آجله بما أعددت لأهل الكفر بى من العذاب فى الآخرة .

﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ أى ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم ليس لك من الأمر فى شىء .

روى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد : (اللهم ألعن أبا سفيان ، اللهم ألعن الحارث بن هشام ، اللهم ألعن صفوان بن أمية) ، فنزلت هذه الآية فتاب الله عليهم كلهم[١] . وروى أحمد ومسلم عن أنس « أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى وجهه ، حتى سال الدم على وجهه . فقال : كيف يفلح قوم فعلوا بنبيهم هذا ، وهو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله : **﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾** الآية .

وإن لما حدث فى وقعة أحد لحكمة دينية واجتماعية وحربية يمكن أن نجملها لك فيما يلى :

كان المؤمنون فى وقعة بدر واثقين بنصر الله لنبيه وإظهار دينه ، لم يضعف إيمانهم بسبب قلتهم وضعفهم ، ولا إخراج المشركين للمهاجرين من ديارهم وأموالهم ، ولما رأوا تباشير النصر ازدادوا إيماناً بأنهم المنصورون ، وأن جندهم هم الغالبون ، ولكن خُيل إلى كثير منهم : أن النصر سيكون بالآيات وخوارق العادات ، من غير التزام السنن الإلهية التى جعلها الله فى هذا الكون ، وبنى عليها نظم الحياة ، وأن وجود الرسول بين ظهرانيهم ودعاءه ربه واستغاثته إياه ، أشد نكالاً بالعدو من اتباع السنن الظاهرة التى من أهمها التزام النظام العسكرى ، وإطاعة القائد ، وجودة التعبئة ، وحسن الحيلة والتدبير فى وضع الخطط الحربية ، وما إلى ذلك ، وفاتهم أن الدين الإسلامى دين الفطرة ، لا دين خوارق العادات وسلوك طريق المعجزات .

---

(١) وتوبة الله عليهم باسلامهم يوم فتح مكة .

فلما قصّروا بالأخذ بالأسباب يوم أحد ، ظهر عليهم عدوهم وجرح الرسول ﷺ ، وإن كان هو لم يقصر ولم ينهزم ، ولكن البلاء إذا نزل لا يخص من كان السبب فى وجوده ، كما قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾[1] وكان من هذا درس عظيم للمؤمنين لمسوه بأيديهم ، وعلموا أن الرسول ﷺ بشر ليس له من أمر العباد شىء ، وإنما هو معلّم وأسوة حسنة فيما يعلم ، والأمر كله لله يدبره بمقتضى سننه فى الخلق .

هذا البيان الإلهى فى تلك الموقعة التى رأوا نتائجها بأعينهم ، برهان ساطع أمام الملأ على نبوة محمد ﷺ ، إذ لو كان زعيماً سياسياً ، ومؤسساً لبناء مملكة يريد توطيد دعائمها بفتوحه لأطراف البلاد ، لما قال مثل هذا القول فى مواطن الدفاع ، وحب النصر على الأعداء ، ولا سبيل للنصر على العدو إلا بالاستعداد والحيطة وحسن التدبير ، والكياسة الحربية ، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾[2] ولا قوة إلا بالعلم والمال ، ولا مال إلا إذا انتشر العدل فى الأمة ، وبث بين أفرادها روح التعاون والشورى فى مهام الأمور ، كما قال : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾[3] .

﴿ **ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم** ﴾ قال ابن جرير : أى لله جميع مابين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها ، دونك ودونهم ، يحكم فيهم بما شاء ويقضى فيهم بما أحب ، فيتوب على من يشاء من خلقه العاصين أمره ونهيه ، ثم يغفر له ، ويعاقب من يشاء منهم على جرمه ، فينتقم منه ، فهو الغفور يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح ، وهو الرحيم بهم فى تركه عقوبتهم عاجلاً على عظيم ما يأتون من المآثم .

وفى هذا تأديب من الله لرسوله ، وإعلام له بأن الدعاء على المشركين ولعنهم مما لم يكن ينبغى منك ، إذ الأمر كله لله ، وليس لأحد من أهل السموات والأرض شركة معه ، ولا رأى ولا تدبير فيهما وإن كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً ، إلا من سخره الله للقيام بشىء من ذلك ، فيكون خاضعاً لذلك التسخير لا يستطيع الخروج فيه عن السنن العامة ، التى قام بها نظام الاجتماع .

---

(١) من الآية : ٢٥ من سورة الأنفال .
(٢) من الآية : ٦٠ من سورة الأنفال .
(٣) من الآية : ٤٦ من سورة الأنفال .

أوامر وتوجيهات

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ * وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

المفردات : ضعف الشيء : مثله الذى يثنيه ، فضعف الواحد واحداً ، لأنه إذا أضيف إليه ثناه ، وإذا ضاعفت الشيء منحت إليه مثله مرة فأكثر ، وهذه المضاعفة إما فى الزيادة فقط التى هى الربا ، وإما بالنسبة إلى رأس المال ، كما هو حاصل الآن فقد يستدين الإنسان المائة بثلاثمائة . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أى اجعلوا لأنفسكم وقاية من عذابه . ﴿ **أعدت** ﴾ أى هيئت ، والمسارعة إلى المغفرة والجنة ؛ المبادرة إلى الأسباب الموصلة إليهما من الأعمال الصالحة ، ﴿ **عرضها السموات والأرض** ﴾ : يراد وصفها بالسعة والعرب تقول : دعوى عريضة أى واسعة عظيمة . ﴿ **السراء** ﴾ الحال التى تسر ، ﴿ **والضراء** ﴾ الحال التى تضر ، وفسرهما ابن عباس باليسر والعسر ، أى السعة والضيق ، ويقال كظم القربة أى ملأها وسد رأسها ، وكظم الباب سده ، وكظم البعير جرته ؛ وإذا ازدردها وكف عن الاجترار ، ثم قالوا : **كظم الغيظ** : فهو كاظم ، وكظمه الغيظ والغم ، أخذ بنفسه فهو مكظوم ، وكظيم ، قال الله تعالى : ﴿ ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾[1] وأخذ فلان يكظم فلاناً : إذا أخذ بمجرى نفسه و﴿ **الغيظ** ﴾ ألم يعرض للنفس إذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال ، أو المعنوية كالشرف ، والعرض ، فيزعجها ذلك ، ويحفزها على التحفظ والانتقام . **والعفو عن الناس** : التجاوز عن ذنوبهم ، وترك مؤاخذتهم ، مع القدرة على ذلك ، **والإحسان** : هنا الإنعام ، والتفضل على غيرك ، على وجه لا مذمة فيه ولا قبح . **الفاحشة** : الفعلة الشنيعة القبح ، التى

(١) جزء من الآية : ٥٩ من سورة النحل ، ومن الآية : ١٧ من سورة الزخرف .

يتعدى أثرها إلى غيرك ، كالزنا والغيبة ونحوهما ، وظلم **النفس** : هو الذنب الذى يكون مقصوراً على الفاعل . وذكر الله عند الذنب يكون بتذكر وعده ووعيده ، وأمره ونهيه وعظمته وجلاله ، **الإصرار** : الشدُّ ، من الصرِّ ويراد به شرعاً الإقامة على القبيح من غير استغفار ورجوع بالتوبة .

قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة** ﴾ أى لاتأكلوا الربا حال كونه أضعافاً مضاعفة بتأخير أجل الدين الذى هو رأس المال ، وزيادة المال إلى ضعف ما كان ، كما كنتم تفعلون فى الجاهلية ، فإن الإسلام لا يبيح لكم ذلك ؛ لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته .

قال ابن جرير : لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة فى إسلامكم ، بعد إذ هداكم الله ، كما كنتم تأكلونه فى جاهليتكم ، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم : أن الرجل منهم يكون له على الرجل مال إلى أجل . فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ؛ فيقول له الذى عليه المال : أخر دينك عنى وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه .

وقال الرازى : كان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ، فإذا جاء الأجل ولم يكن المدين واجداً لذلك المال ، قال الدائن زد فى المال حتى أزيد فى الأجل ، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك ، إلى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها ، فهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ **أضعافاً مضاعفة** ﴾ .

وربا الجاهلية هو ما يسمى فى عصرنا بالربا الفاحش ، وهو ربح مركب ، وهذه الزيادة الفاحشة كانت بعد حلول الأجل ، ولا شىء منها فى العقد الأول ، كأن يعطيه المائة بالمائة وعشرة أو أكثر أو أقل وكأنهم يكتفون فى العقد الأول بالقليل من الربح ، فإذا حل الأجل ولم يقض الدين ، وهو فى قبضتهم ، اضطروه إلى قبول التضعيف فى مقابلة الإنساء ، وهذا هو الربا النسيئة ، قال ابن عباس : إن نص القرآن الحكيم ينصرف إلى ربا النسيئة الذى كان معروفاً عندهم .

وعلى الجملة فالربا نوعان :

١ ــ ربا النسيئة وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، وهو أن يؤخر دينه ، ويزيده فى المال ، وكلما أخره زاد فى المال ، حتى تصير المائة آلافاً مؤلفة .

وفى الغالب لا يفعل مثل ذلك إلا معدم محتاج ؛ فهو يبذل الزيادة ليفتدى من أسر المطالبة ، ولايزال كذلك يعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده ، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ، ويزيد مال المرابى من غير نفع يحصل منه لأخيه ، فيأكل مال أخيه بالباطل ، ويوقعه فى المشقة والعذر ، فمن رحمة الله وحكمته وإحسانه إلى خلقه ؛ أن حرم الربا ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهده ، وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله ، ولم يجئ مثل هذا الوعيد فى كبيرة غيره ، ولهذا كان من أكبر الكبائر .

٢ ـ ربا الفضل كأن يبيع قطعة من الحلى كسوار بأكثر من وزنها دنانير ، أو بيع كيلة من التمر الجيد بكيلة وحفنة من التمر الردىء ، مع تراضى المتبايعين ، وحاجة كل منهما إلى ما أخذه .

ومثل هذا لا يدخل فى نهى القرآن ، ولا فى وعيده ، ولكنه ثبت بالسنة : فقد روى ابن عمر قوله ﷺ : (لا تبيعوا الذهب بالذهب ، إلا مثلاً بمثل ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، ولا تشفوا بعضه على بعض إنى أخشى عليكم الرّماء - الربا -)[1].

ولقد ورد فى الأثر : « إن آخذ الربا لا يقبل منه صدقة ولا جهاد ولا حج ولا صلاة » .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أى احذروا أن تقعوا فيما نهاكم عنه ، أو أن تتركوا ما أمركم به فطريق فلاحكم : أن تمتثلوا الأوامر ، وتجتنبوا النواهى ، ثم أمر سبحانه وتعالى بتقوى النار فقال : ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ . ومعنى ذلك : أن يحذر المسلم الأسباب التى تؤدى إلى عذاب النار ، كفعل الذنوب واقتراف المآثم ، وهذه الآية الكريمة تفيد أن النار خلقت وأعدت وهيئت . قال الله تبارك وتعالى فى شأن قوم نوح : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾[2] . وقال تعالى فى شأن آل فرعون : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[3] وهاكم بعض الأحاديث النبوية التى ذكرت فيها النار وأصحابها والذنوب التى اقترفوها ، لعل الله تعالى يرزقنا البعد عما يغضبه ويهدينا سواء الصراط .

١ ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ، قولوا : (اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيخ الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) رواه مالك ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

٢ ـ وعن أم حبيبة رضى الله عنها قالت : سمعنى رسول الله ﷺ وأنا أقول : اللهم أمتعنى بزوجى رسول الله وبأبى سفيان وبأخى معاوية ، فقال : (سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة ، لن يعجل شيئاً منها قبل أجله ولا يؤخر ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من النار وعذاب القبر ، كان خيراً وأفضل) . رواه مسلم .

٣ ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار : يا رب إن عبدك فلاناً استجار منى فأجره ، ولا سأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة : يا رب إن عبدك فلاناً سألنى فأدخله الجنة) . رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخارى ومسلم .

---

(١) متفق عليه .
(٢) الآية : ٢٥ من سورة نوح .
(٣) من الآيتين : ٤٥ ، ٤٦ من سورة غافر .

٤ - وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة اللهم أدخله الجنة ، ومن استجار من النار ثلاث مرا ت قالت النار : اللهم أجره من النار) . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ولفظهم واحد ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٥ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن لله ملائكة سيارة يتبعون مجالس الذكر - فذكر الحديث - إلى أن قال : فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عبادٍ لك يسبحونك ويكبرونك ، ويهللونك ويحمدونك ويسألونك . قال : فما يسألونى ؟ قالوا يسألونك جنتك ، قال : وهل رأوا جنتى ؟ قالوا : لا أى رب ، قال : فكيف لو رأوا جنتى ؟ قالوا : ويستجيرونك . قال ومم يستجيروننى ؟ قالوا : من نارك يارب . قال : وهل رأوا نارى ؟ قالوا : لا . قال : فكيف لو رأوا نارى ؟ قالوا : ويستغفرونك . قال فيقول : قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا) . الحديث رواه البخارى ومسلم واللفظ له .

صدقت ربنا وتعاليت فأنت القائل : ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[١] وصدق رسولك الكريم : إذ أمرنا أن نستعيذ من النار ، ونأخذ من الأعمال ما نتزود به للجنة ، فنعم الجنة دار المتقين ، وبئس المهاد فى جهنم مهاد الفاسقين .

١ - عن أنس رضى الله عنه قال : كان أكثر دعاء النبى ﷺ : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾[٢] . رواه البخارى .

٢ - وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار ، قال وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً ، حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » . رواه البخارى ومسلم .

٣ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[٣] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص ، فقال : (يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً) . رواه مسلم واللفظ له ، والبخارى والترمذى والنسائى بنحوه .

---

(١) الآية : ٦ من سورة التحريم .
(٢) من الآية : ٢٠١ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٢١٤ من سورة الشعراء .

وما للقلوب أصبحت لا تخشع ، وما للآذان أصبحت لا تسمع ، وما للعيون أصبحت لا تدمع ، وما للأبدان أصبحت لا تسجد لله ولا تركع .

يا أخا الإسلام اعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها ، واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها ، واسمع إلى هذا الحديث الذى رواه النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب فيقول : (أنذرتكم النار أنذرتكم النار ، حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامى هذا ، حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه) . رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

٥ ــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إنما مثلى ومثل أمتى : كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقعون فيها) . رواه البخارى ومسلم .

٦ ــ وروى عن كليب بن حزن رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (اطلبوا الجنة جهدكم ، واهربوا من النار جهدكم ، فإن الجنة لا ينام طالبها ، وإن النار لا ينام هاربها ، وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره ، وإن الدنيا محفوفة بالملذات والشهوات ، فلا تلهينكم عن الآخرة) . رواه الطبرانى .

٧ ــ وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (يا معشر المسلمين : ارغبوا فيما رغبكم الله فيه، واحذروا مما حذركم الله منه ، وخافوا مما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ، ومن جهنم ، فإنها ولو كانت قطرة من الجنة معكم فى دنياكم التى أنتم فيها حلّتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها خبثتها عليكم) . رواه البيهقى ــ ولا يحضرنى الآن إسناده .

صور متنوعة :

٨ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : أُتِىَ بفرس يجعل كل خطو منه أقصى بصره[1] فسار وسار معه جبريل عليه السلام ، فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه ، ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شىء ، قال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تثاقلت رءوسهم عن الصلاة ، ثم أتى على قوم على أدبارهم رقاع ، وعلى أقبالهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع والزقوم[2] ورضف جهنم قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد ، ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يريد أن يزيد عليها ، قال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة الناس

(١) هو البراق وكان ذلك فى خلال رحلة الإسراء .
(٢) الضريع والزقوم طعام أهل النار ، والرضف كذلك .

لا يستطيع أداءها وهو يريد أن يزيد عليها ، ثم أتى على قوم تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : يا جبريل ما هؤلاء ؟ قال : خطباء الفتنة ؛ ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فيريد الثورأن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع ؟ قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، فيندم عليها ، فيريد أن يردها فلا يستطيع ، ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيباً ، ووجد ريح مسك مع الصوت ، فقال : ما هذا ؟ قال : صوت الجنة تقول : يا رب ائتنى بأهلى ، وبما وعدتنى فقد كثر غرسى وحريرى وسندسى وإستبرقى ومرجانى وفضتى وذهبى ، وأكوابى وصحافى وأباريقى وفواكهى وعسلى ومائى ولبنى وخمرى ائتنى بما وعدتنى ، قال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحاً ولم يشرك بى شيئاً ، ولم يتخذ من دونى أنداداً ، فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته ومن أقرضنى جزيته ، ومن توكل علىَّ كفيته ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا لا خلف لميعادي ، قد أفلح المؤمنون تبارك الله أحسن الخالقين . فقالت : قد رضيت ، ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً . فقال : ياجبريل ماهذا الصوت ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : يا رب ائتنى بأهلى وبما وعدتنى ؛ فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وغساقى وغسلينى وقد بعد قعرى واشتد حرى ، ائتنى بما وعدتنى ، قال : لك كل مشرك ومشركة وخبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قد رضيت ، فذكر الحديث فى قصة الإسراء وفرض الصلاة وغير ذلك . رواه البزار عن الربيع بن أنس عن أبى العالية أو غيره عن أبى هريرة . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** ﴾ هذا أمر من الله تعالى بالطاعة بعد أن أمر بالتقوى ، ومع تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله تكون الرحمة ، وليس بعد الرحمة من هدف ينشده المؤمنون لسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

لقد وصف الله تعالى المجتمع الإيمانى وصفاً دقيقاً فى قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾[1] ففى هذه الآية ستة أركان لا بد أن يقوم عليها المجتمع الإيمانى :

أولها : ولاية بعضهم بعضاً بالنصرة والمحبة والمودة ؛ بحيث يكونون فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وثانيها : الأمر بالمعروف إذ أن ذلك يؤدى إلى استمساك الناس بالخير والحق والصدق والأمانة .

إن المكارم أخلاق مطهرة ... الدين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والفضل ساديها[2]
والبر سابعها والشكر ثامنها ... والصبر تاسعها واللين باقيها

---

(١) الآية : ٧١ من سورة التوبة .
(٢) يعنى سادسها وإنما حورت الكلمة لضرورة وزن الشعر .

والنفس تعلم أنى لا أصدقهـا ولست أرشد إلا حين أعصيها
لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنينا ويفـنيها
واعمل لدار غداً رضوان خازنها والجار أحمد والـرحمن مـنشيها
قصورها ذهب والمسك طيـنتها والزعفـران حشيش نـابت فيها

وثالث الأركان : النهى عن المنكر ، فقد لعن الله بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، فصبت اللعنة على الذين كفروا منهم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ثم ماذا ؟ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه[١] ، وقد جاء فى حديث جامع للنبى ﷺ ، رواه الإمام الترمذى عن على رضى الله عنه قال فيه النبى ﷺ : (إذا صار المغنم دولاً والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرما ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه ، وأكرم صديقه وجفا أباه وأكرم الرجل مخافة شره ، وتعلم لغير الله ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وصار زعيم القوم أرذلهم ، وشربوا الخمور واتخذوا القينات والمعازف ، ولبسوا الحرير ، ولعن آخر هذه الأمة أولها) . قال النبى ﷺ : (إذا فعلت الأمة ذلك حل بهم البلاء ، وقال فى آخر الحديث فليرتقبوا ريحاً حمراء أو خسفاً ومسخاً .

ورابع الأركان الصلاة . والصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هـدم الدين[٢] ، وهى أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة[٣] ، كما أنها مفتاح الجنة ، ومن حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة[٤] ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة يوم القيامة ، وكان مع فرعون وهامان وقارون وأبى بن خلف[٥] .

وخامس الأركان : ويؤتون الزكاة . وهى تمثل الجانب المالى فى الإسلام ، لأنها تشمل زكاة النقدين وعروض التجارة والأنعام والزروع والثمار ، والركاز فى باطن الأرض ، فلو طبقت بكل مصادرها ومقاديرها ما رأينا فى الطريق سائلاً ، ولا فى البيوت عاطلاً ، ولا فى السجون قاتلاً ، ذلك أيضاً بجانب صـدقات الفطر ، والأضاحى ، والهدى الذى يذبح فى منى ، ويمثل ثروة حيوانية من أصواف وأوبار وأشعار ولحوم وجلود وعظام وقرون .

فلو أن هذه الثروات علبت بعد تصنيعها ووزعت على مستحقيها بالمجان ، لأطعمت بطوناً جائعة ،

---

(١) وذلك مفهوم الآية : ٧٨ من سورة المائدة .
(٢) من حديث نبوى رواه الشيخان .
(٣) معنى حديث رواه مسلم .
(٤) من حديث رواه الشيخان .
(٥) من الحديث السابق .

وكست أجساماً عارية ، وسدت ديوناً ، وزوجت عزاباً ، وأعتقت رقاب ذوى الحاجات ، وخلصتها من ذل السؤال ، فاللهم اهدنا صراطك المستقيم[(١)] .

والركن السادس : وهو طاعة الله ورسوله ، كما نص على ذلك الله تعالى فى قوله : ﴿ **ويطيعون الله ورسوله** ﴾ قال ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[(٢)] رواه مسلم .

الحكم الإلهى :

لقد حكم الله تعالى لهذا المجتمع الإيمانى إذا توافرت له تلك الأركان الستة بقوله : ﴿ **أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ قال الله تعالى فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ عن رب العزة قال : (إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى) .

وقال النبى ﷺ : (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) .

نعم ما أعظم مجتمع التراحم ، فلو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ، ولا مغبون ولا مهضوم ، ولأقفرت الجفون من المدامع ، ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع ، كما يمحو نور الصبح سواد الظلام ، فيأيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الأشقياء وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

الوعد الحق :

ما وعد الله لهؤلاء المؤمنين والمؤمنات فى الآخرة ؟ .

قال جل شأنه : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾[(٣)] .

صدقت ياربنا فأنت القائل : ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون * وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ .

إذا كان الأمر أمر الآخرة جاء الأمر بالمسارعة والمسابقة : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾[(٤)] والاستباق : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾[(٥)] التنافس : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾[(٦)] . والحث على العمل : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾[(٧)] كما قال عمر رضى الله عنه :

---

(١) من فضل الله أن هدى بعض القائمين على شئون الحج إلى تنظيم هذه العملية باشراف إدارى وتنفيذى لبعض بيوت التنمية الإسلامية وتم توزيع لحوم هدى وذبائح أكثر من موسم من مواسم الحج وبدأ التنفيذ سنة ١٤٠٤ هـ . وتم التوزيع فى مخيمات لاجئى افغانستان ، السودان والصومال .، إلخ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) الآية : ٧٢ من سورة التوبة .

(٤) من الآية ٢١ من سورة الحديد .

(٥) من الآية ١٤٨ من سورة البقرة .

(٦) من الآية ٢٦ من سورة المطففين .

(٧) من الآية ٦١ من سورة الصافات .

التؤدة فى كل شىء إلا إذا كان الأمر أمر الآخرة وذلك كقوله تعالى فى شأن الدنيا : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوامن فضل الله ﴾[1] وقوله جل شأنه : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[2] .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل — الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا — لكنه خلق الإنسان من عجل

واعلم يا ابن آدم أن ما قدر على ماضغيك أن يمضغاه فلا بد أن يمضغاه ، فامضغه بعزة ، ولو ركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فم ابن آدم ، وصدق أحدهم إذ يقول : نزح بحرين بغربالين وحفر بئرين بإبرتين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين ، خير لى من أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى .

لا تخضعن لمخلوق على طمع — فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة — إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعز به — وكن عفيفاً وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه — فإن زرقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك — كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وما أجمل ما قاله النبى ﷺ : (إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله واجملوا فى الطلب)[3] رواه مسلم .

إن الأمر بالمسارعة إلى أسباب المغفرة من التوبة والاستغفار ، وذكر الله وأداء الواجب ، والبعد عن المحرم ، كل هذا يؤدى إلى جنة واسعة كسعة السموات والأرض .

فالمراد بالعرض هنا السعة ، فلا يقولن قائل إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض ؛ فأين توجد النار ؟ لأن السموات والأرض شىء من ملك الله . وما السموات والأرض ، بالنسبة للكرسى ليس إلا كحلقة فى فلاة ، وما الكرسى بالنسبة للعرش إلا كحلقة فى فلاة ، وما العرش بالنسبة لعلم الله إلا حلقة فى فلاة ، فسبحان الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وسبحان من له ما فى السموات وما فى الأرض ، وسبحان من وسع كرسيه السموات والأرض وسبحان من لا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم .

هذه الجنة بسعتها أعدت للمتقين وخلقت وهيئت : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً * يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء

(١) من الآية ١٠ من سورة الجمعة .
(٢) الآية ١٥ من سورة الملك .
(٣) رواه مسلم .

ولا شكورًا * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً * وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً * متكئين فيها على الآرائك لا يرون فيها شمسا ولازمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قواريرا من فضة قدروها تقديراً * ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً * عيناً فيها تسمي سلسبيلاً * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً * وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً * إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾[١] .

بم وصف الله المتقين ؟

قال جل شأنه : ﴿ **الذين ينفقون فى السراء والضراء** ﴾ . أى فى الرخاء والشدة واليسر والعسر والضيق والسرور ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ أى الذين يملكون أنفسهم عند الغضب فليس الشديد بالقوة البدنية إنما الشديد هو الذى يملك نفسه عند الغضب ، قال تعالى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾[٢] وقال ﷺ : (لا تغضب) .

﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ قال سبحانه : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾[٣] .

وقال : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾[٤] .

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... وآبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وأزيد حلماً ... كعود زاده الإحراق طيبا

﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ والإحسان فى كل شىء أداؤه على وجهه الأكمل ، أو كما قال الصادق المعصوم : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٥] وكان لأحد الناس غلام[٦] يصب له الماء فوقع الإبريق فى الطشت فطار الرشاش على وجه سيده ، فغضب السيد غضباً شديدا كأنه أسد ديس عرينه فقال له الغلام ياسيدى أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ قال له ياغلام : كظمت غيظى ،

---

(١) الآيات : ٥ - ٢٢ من سورة الإنسان .
(٢) من الآية : ٣٧ من سورة الشورى .
(٣) من الآية ٤٠ من سورة الشورى .
(٤) الآية ٤٣ من سورة الشورى .
(٥) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عن ، عن مجىء جبريل يسأل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام . . الخ .
(٦) اشتهر الخبر عن جعفر الصادق . . كما روى مثله عن ميمون بن مهران إذ جاءته جاريته ذات يوم بصحفة فيها مرق حار ، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرق عليه ، فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يامولاى استعمل قول الله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال لها قد فعلت ، فقالت اعمل بما بعده ؛ ﴿ والعافين عن الناس ﴾ فقال قد عفوت عنك ، فقالت الجارية ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ فقال : قد أحسنت اليك فأنت حرة لوجه الله وروى مثله عن الأحنف بن قيس . ا . هـ . قرطبى جـ ٤ صـ ٢٠٧ .

قال الغلام : ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : عفوت عنك . قال الغلام : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال السيد : أنت حر ولك منى ألف درهم . فانظر إلى آثار رحمة الله ، كيف نزل القرآن فى شدة الغضب على ابن آدم كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظامئة فأطفأ غضب القلوب وهدأ من ثورتها .

ومن صفات هؤلاء : أنهم إذا فعلوا شيئاً يغضب الله ، أو ظلموا أنفسهم بشىء من الذنوب ، بادروا بالتوبة فأقلعوا عن الذنب ، وندموا على ما فات ، وعزموا على عدم العودة ، وأدوا الحقوق لأصحابها ، والفرائض التى تكاسلوا عنها ، ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[(١)] .

ما جزاء هؤلاء ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا يغفر الذنوب إلا الله كما قال تعالى : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) . ما جزاؤ هم ؟ وهم الذين وصفهم الله بالمنفقين فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والتائبين المستغفرين ، الذين لا يصرون على ما فعلوا من المخالفات .

الحكم العادل :

قال جل شأنه : ﴿ **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾ . تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت ، ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾[(٢)] .

نعم لهم مغفرة لذنوبهم فقد ذكروا الله واستغفروا لذنوبهم ، ولم يصروا على ما فعلوا : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾[(٣)] لهم مع المغفرة جنات وخلود ، ولهم فى الجنات نعيم مقيم ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴾[(٤)] .

وها نحن أولاء نسوق قبساً من السنة المطهرة ، ومن الأحاديث التى رويت عن رسول الله ﷺ فى صفة الجنة ونعيمها حتى نكون على علم بالوعد والوعيد وهكذا تكون حال المؤمن ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾[(٥)] .

---

(١) الآية : ٢٠١/ من سورة الأعراف .
(٢) الآيتان : ٧٣ ، ٧٤ من سورة الزمر .
(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور .
(٤) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة التوبة .
(٥) من الآية : ٩٠ من سورة الأنبياء .

١ – عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم) . رواه الطبرانى من رواية جابر الجعفى .

٢ – عن على رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾(١) إلى آخرها قال : قلت يارسول الله ما الوفد إلا ركب ؟ قال النبى ﷺ : (والذى نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة ، عليها رحال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مثل مد البصر ، وينتهون إلى باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب وإذا شجرة على باب الجنة ، ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من إحداهما جرت فى وجوههم نضرة النعيم ، وإذا توضأوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبداً ، فيضربون الحلقة بالصغيرة فلو سمعت طنين الحلقة ياعلى ؛ فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل ، فتستخفها العجلة ، فتبعث قيمها فيفتح له الباب ، فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخرله ساجداً مما يرى من النور والبهاء ، فيقول أنا قيمك الذى وكلت بأمرك فيتبعه فيقفو أثره ، فيأتى زوجته ، فتستخفها العجلة فتخرج من الخيمة فتعانقه وتقول : أنت حبى وأنا حبك وأنا الراضية فلا أسخط أبداً ، وأنا الناعمة فلا أبأس أبداً ، وأنا الخالدة فلا أظعن أبداً ، فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت ، طرائق حمر وطرائق خضر ، ما منها طريقة تشاكل صاحبتها ، فيأتى الأريكة فإذا عليها سرير ، على السرير سبعون فراشاً ، على كل فراش سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يُرى مخ ساقها من باطن الحلل ، يقضى جماعهن فى مقدار ليلة ، تجرى من تحتهم أنهار مطردة ، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر ، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه لم يخرج من بطون الماشية ، فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طير بيض فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها من أى الألوان شاءوا ، ثم تطير فتذهب ، وفيها ثمار متدلية ، إذا اشتهوها انبعث الغصن إليهم ، فيأكلون من أى الثمار شاءوا ، إن شاء قائماً وإن شاء متكئا وذلك قول الله تعالى : ﴿ وجنا الجنتين دان ﴾(٢) وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ ﴾ . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب صفة الجنة عن الحارث وهو الأعور عن على مرفوعاً هكذا ، ورواه ابن أبى الدنيا أيضاً والبيهقى وغيرهما عن عاصم بن حمزة عن على موقوفاً عليه بنحوه وهو أصح وأشهر .

٣ – وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : (أن موسى عليه السلام سأل ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل يجىء بعدما دخل أهل الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ؟ فيقول : رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب ، قال رب : فأعلاهم منزلة قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر) . رواه مسلم .

---

(١) الآية : ٨٥ من سورة مريم .

(٢) من الآية : ٥٤ من سورة الرحمن .

عبرة وعظة

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾

المناسبة :

كان الكلام فى وقعة بدر وأحد وما حصل للمؤمنين فيهما ، وموقف الكفار وصفتهم ، مع بيان صفة المؤمنين وجزائهم ، ثم بعد هذا ذكر القرآن سنة الله فى الخلق وأن ما حصل كان موافقاً للسنة مع بيان الحكمة فيما وقع .

أى انظروا أيها المسلمون فأنتم أولى بالنظر والاعتبار ، انظروا إلى من تقدمكم من الأمم ، وسيروا فى الأرض حتى تقفوا على أخبار الماضين ، فستجدون أن لله طريقاً واحداً لا يتخلف :

قول تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[1] أى فإن أنتم أيها المسلمون سرتم سير الطائعين الموفقين ، وصلتم إلى ما وصلوا إليه حتما ، وإن سرتم سير العصاة المكذبين كانت عاقبتكم خسراً .

وفى هذا تنبيه لمن خالف النبى ﷺ يوم أحد ، فكأنهم انتصروا يوم بدر لسلوكهم سبيل الطائعين المتوكلين على الله ، وامتحنوا يوم أحد لأنهم تنازعوا ، ففشلوا وخالفوا أمر الرسول ولم يصبروا ولم يتقوا كما أمروا .

ففى الآية الكريمة سبيل الأمن والخوف ، وفى طيها الوعد والوعيد ، والقرآن الكريم يشير فى جملته إلى أن مشيئة الله تسير على نظم ثابتة ، قد ربطت فيها الأسباب بالمسببات ، والله قدير على كل شىء ، ففى الحرب أو الزرع أو التجارة مثلاً إذا سار فيها صاحبها على الطرق المألوفة والنظم المحكمة نجح ، وإن كان شريراً مجوسياً ، وإن جانب المألوف وركب رأسه واتبع غير المعقول ، كان من الخاسرين ولو كان شريفاً علويا .

---

(١) الآية : ٦٢ من سورة الأحزاب ، وهناك : ﴿ سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ٢٣ من سورة الفتح .

وأحق الناس بالسير على المعقول والاستفادة بهدى القرآن هم المؤمنون ، فى كل ما يأتون ويذرون ، والسير فى الأرض ومشاهدة الآثار أثبت فى معرفة الأخبار من التاريخ ورواية الأخبار « فما راء كمن سمعا » .

كل إنسان له عقل يفكر به ، يعرف أن الله سنة فى الكون لا تختلف عند جميع الناس فى كل العصور ، مؤمنهم وكافرهم ، وبارهم وفاجرهم ، والله يهدى من يحب إلى صراط مستقيم .

فبيان سنن الكون للناس جميعاً ، وأما كون ما ذكر هداية وعظة ، فهو خاص بالمتقين ، لأنهم المنتفعون بهدى القرآن ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾[1] ، ولذا قال الله : ﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ .

وإذا كان المؤمنون هم المنتفعون بما ذكر ، فيجب ألا يضعفوا لما أصابهم من مس السلاح عند القتال ، وما يلزمه من التدبير ، ولا يحزنوا على من قتل منهم فى أحد ، فهو شهيد مكرم عند الله يوم القيامة ، وما وقع ليس نصراً للمشركين ولكنه درس للمسلمين ، لما فى تلك الغزوة من التربية لكم على المشاق ، وبيان أن خروجكم على نبيكم ومخالفة أمره ، خروج على سنة الله فى أسباب الظفر ، فلا تعودوا لمثله أبداً ، وكيف تهنون وتحزنون والحال أنكم الأعلون ، بمقتضى سنة الله فى جعل العاقبة للمتقين ؟ ألا تعلمون أن قتلاهم فى النار وقتلاكم فى الجنة ، والمراد بالنهى عن الوهن والحزن : النهى عن الاستسلام إلى ذلك ، بمعنى التأهب والاستعداد مع العزيمة الصادقة ، والتوكل على الله ، والوثوق بالنصر ، فإن الله وعد بذلك ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ فاعملوا بهذا .

وكيف تضعفون ولا تعملون ؛ لما أصابكم من الألم ، فأنتم إن أصابكم ألم فى أحد فقد أصاب الكفار ألم أكثر منه فى بدر ، وإن امتحنتم فى أحد فقد انتصرتم فى بدر .

فيوم لنا ، ويوم علينا ، ويوما نساء ، ويوما نسر ، والأيام دول ، والحرب سجال . . وتلك الأيام نداولها بين الناس ، فنجعل للباطل جولة فى ساعة وللحق دولة إلى قيام الساعة ، والعاقبة والنصر فى النهاية للمتقين الصابرين ، كل ذلك ليستقر العدل ويعم ، ويعلم الناس أن الدنيا لمن سلك طريق النجاح والفوز . . .

فعل الله ما فعل مع المؤمنين لحكم يعلمها ، وليتحقق إيمان المؤمنين ، ويظهر واضحاً ، ولذا قال النبى ﷺ بعد موقعة أحد : « لا يذهب معنا فى القتال (فى غزوة حمراء الأسد)[2] إلا من قاتل » فذهب المؤمنون وهم فى أشد التعب والنصب . ﴿ **ليعلم الله الذين آمنوا** ﴾ هذه العبارة وأمثالها تفيد تحقق الإيمان ، وحصوله فى الخارج حتى يحصل علم الله به ، فإذا علم الله إيمان فلان كان لابد أن يكون إيمانه حاصلاً فى الواقع ، إذ علم الله لابد أن يكون مطابقاً للواقع ، وعلى ذلك فالمعنى : فعل الله بكم ذلك ، لحكم هو

---

(١) الآية : ٢ من سورة البقرة .
(٢) فى اليوم التالى ليوم أحد مباشرة .

يعلمها وليتحقق إيمان المؤمنين ويظهر ، وليكرم الله أناسا منكم بالشهادة ، والقتل فى سبيل الله ؛ والاستشهاد درجة عظيمة سيأتى بيانها : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ﴾[١] .

وهذه الشهادة لا يعطيها الله إلا لمن أحبه واصطفاه ، والله لا يحب الظالمين أبدا ، ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ وإيمانهم ، فهذه الحوادث العنيفة التى ترج المجتمع تمحص الإيمان الخالص ، من الإيمان المشوب بالضعف والاستكانة ، حتى تصفوا النفوس ، فلا يبقى فيها درن ، وكثير من الناس مصابون بداء الغرور الدينى ، فهم يفهمون فى أنفسهم أنهم كاملو الإيمان ، حتى إذا ما محصوا بالابتلاء اهتزوا ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾[٢] . ففى غزوة أحد تخلف البعض وفر البعض وأصعدوا فى الجبل لا يلوون على أحد ، وثبت البعض حول النبى ﷺ حتى استشهدوا ، واتخذ البعض نفسه ترساً واقياً للنبى ﷺ ورضى الله عن الجميع ، ووفقنا حتى تقتدى بهم .

ومن الحكم العالية لله ، محق الكافرين فإنهم إذا ظفروا مرة طغوا وبغوا فيكون هلاكهم مرة واحدة وإذا هزموا كما فى بدر تقلمت أظفارهم وأصابهم الضعف والهلاك شيئا فشيئا حتى يبادوا والعاقبة للمتقين .

عتاب لبعض من شهد غزوة أحد

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

المفردات : ﴿ ولما ﴾ بمعنى لم إلا أن مدخولها متوقع الحصول فالمراد نفى الجهاد فى الماضى ، وتوقعه فى المستقبل

الجهاد : احتمال المشقة ومكافحة الشدائد ﴿ تمنون الموت ﴾ المراد تمنى الشهادة فى سبيل الله .

﴿ تلقوه ﴾ تشاهدوا هوله وتروا خطره ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ انقلب على عقبيه ، ونكص على عقبيه رجع وراءه والمراد رجعتم كفاراً بعد إيمانكم .

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة النساء .
(٢) الآية : ١٤٣ من سورة آل عمران .

يبين الله فى هذه الآيات أن الثواب فى الآخرة منوط بالجهاد والصبر ، كما أن الفوز فى الدنيا منوط بإقامة العدل وسلوك الطرق المألوفة ، فسنة الله لا تختلف ، وقد ذكر مع هذا عتاباً لبعض من شهد أحداً .

لا ينبغى لكم أن تظنوا بالله الظنون ، وتصابوا بداء الغرور ، فتفهموا أن دخول الجنة يكون من غير جهاد فى الله ، وصبر على البأساء والضراء ، وحين البأس ، لأن دخول الجنة لا يكون إلا بالجهاد الكامل لإعلاء كلمة الله ، ورفع راية الوطن وهذا بجهاد العدو وجهاد النفس ، خاصة فى الشباب وجهاد حب المال عند البذل فى الأعمال العامة النافعة وغير ذلك .

وتمكن الصبر فى أنفسكم تمام التمكن على أداء التكاليف وعلى الطاعة وعلى البلاء والحوادث ، ونفى العلم من الله دليل على عدم وقوع الجهاد والصبر منكم ، فهو أبلغ من نفى الجهاد والصبر ، إذ هو كالدعوى ودليلها ، شبيه بهذا قوله تعالى : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ .

روى عن الحسن أنه قال : بلغنى أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون لئن لقينا مع النبى ﷺ لنفعلن ولنفعلن فابتلوا بذلك ، فلا والله ما كلهم صادق ، فأنزل الله : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه** ﴾ .

نعم لقد كان كثير منكم يتمنى لو يستشهد فى سبيل الله تمنيا من نفسه استحق أن يعبر عنه المولى بهذا التأكيد ﴿ **ولقد كنتم** ﴾ ، حتى إذا جد الجد وقامت الحرب ، وشهدتم بأعينكم مشاهدة كاملة ، وأنتم تنظرون نظرة فاحصة ، ليست عاجلة ، توانيتم وانحزتم إلى الجبل وأصعدتم فيه لا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فلا يجيبه أحد !.

وهذا عتاب . وأى عتاب ؟ نعم كان مع النبى من بايعه على الموت ، ودافع عنه دفاعاً مجيداً ، حتى قتل البعض ، ونجا البعض كما ثبت فى أحداث الغزوة ، ومع هذا كان الخطاب عاماً ، ليكون الإرشاد عاماً ، فيتهم المؤمنون الصادقون أنفسهم ليزدادوا إيماناً ، وليرعوى المقصرون فلا يعودوا لمثلها أبداً .

فى هذه الغزوة أشيع قتل النبى ﷺ ، وكانت هذه الإشاعة سبباً فى شيوع قالة السوء ، حتى قال بعض المنافقين لو كان نبيا ما قتل ، من لنا برسول إلى عبد الله بن أبى ليأخذ لنا الأمان عند أبى سفيان ؟ وهكذا مما جعل أنس بن النضر يبرأ إلى الله من مثل هذا الكلام ، ويقاتل حتى يقتل دفاعاً عن الدين . وكانت هذه الإشاعة سبباً فى انفضاض بعض الناس عن النبى ﷺ فعاتبهم الله بقوله : ﴿ **وما محمد إلا رسول** ﴾ كمن سبقه من الرسل ، فهم قد خلوا وانتهت حياتهم بموت كموسى وعيسى ، أو قتل كزكريا ويحيى ، ومع هذا ظلت ديانتهم كما هى ، وأتباعهم متمسكون بها ، فالمعقول أن تظلوا كما كنتم ، ولو مات أو قتل ، فإن الرسول بشر كسائر الأنبياء له فى الدنيا مهمة تنتهى بانتهاء أجله ، ومن كان يعبد الله فإن الله باق ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات .

أفتنقلبون على أعقابكم ، فترتدون عن دينكم ، أو يطير صوابكم لو مات أو قتل مع أنه رسول كسائر الرسل ، لم يدع أنه إله ، ولم يطلب لنفسه العبادة ، حتى إذا مات أو قتل تركتم دينه ورجعتم كفاراً .

﴿ ومن ينقلب على عقبيه ﴾ ويعود إلى الكفر ﴿ فلن يضر الله ﴾ بشيء من الضرر وإنما يضر نفسه ، وأما من ثبت على دينه ، وجاز هذا الامتحان الدقيق فهو من المجاهدين الصابرين الشاكرين ، الذين سيجزيهم الله الجزاء الأوفى ، وقد كانت هذه الآية تمهيداً لموت النبي ﷺ بعد أداء رسالته وقولاً فصلاً لأمثال عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

عتاب للمؤمنين وإرشادهم

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

المفردات : ﴿ مؤجلا ﴾ ذو أجل وهو المدة المضروبة للشيء ﴿ كأين ﴾ كلمة تفيد الكثرة ﴿ ربيون ﴾ جماعات كثيرة واحدهم ربى وهو الجماعة . الوهن : الضعف عامة ، وقيل فى القلب ، والضعف : اختلال فى الجسم ﴿ استكانوا ﴾ الاستكانة : الاستسلام والخضوع لأن صاحبها يسكن للخصم ﴿ إسرافنا ﴾ مجاوزة الحد فى كل شيء .

المناسبة :

بعد ما لام القرآن المؤمنين على ما بدر منهم حينما بلغهم قتل النبى ﷺ لامهم : بأنه رسول كبقية الرسل لم يطلب لنفسه العبادة ، حتى إذا مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم كافرين ، إنما كان يأمركم بعبادة الله والله حى لا يموت . ومهمة الرسول البلاغ فقط ، فإذن ليس لوجوده دخل فى استمرار عبادة الله .

وهنا يلومهم أيضاً على أن النبى لو قتل كما أشيع ، ما كان لكم أن تفعلوا ما فعلتم .

ليس من شأن النفوس ، ولا من سنة الله فيها ، أن تموت بغير إذنه أو مشيئته ، التى يجرى بها النظام العام فى الكون ، وارتباط الأسباب بالمسببات ، فالله وحده هو المتصرف فى كل شىء ، له الأمر ، فيأذن للملك بقبض الروح فى الموت العادى وغيره فى الإنس والجن ، حتى فى الملك نفسه الموكل بقبض الأرواح ، كتب هذا كتاباً محكماً ، موقتاً بوقت لا يتعداه ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾[1] . ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[2] .

وإذا كان العمر بيد الله ، وانقضاؤه بإذنه وإرادته ، فكيف يصح الجبن والوهن والضعف والتخاذل .؟؟

﴿ **ومن يرد ثواب الدنيا** ﴾ بجهاده وعمله ، أعطاه الله شيئاً من ثوابها ﴿ **ومن يرد ثواب الآخرة** ﴾ وجزاءها ، أعطاه الله شيئا من ثوابها ، على حسب إرادته ومشيئته ، فى كلا الحالين ، وأما أنتم يا من ضعفتم وفشلتم وتنازعتم وخالفتم أمر نبيكم وقائدكم ، لأجل الغنيمة ، وما الذى تريدونه بعملكم ؛ إن كنتم تريدون الدنيا ، فالله لا يمنعكم من ذلك ، ولكن ليس هذا طريقها ، إذ العمل الذى يدعوكم إليه محمد ﷺ هو للدنيا والآخرة .

والتعبير بقوله : ﴿ **يرد** ﴾ دليل على أن الإرادة للشخص هى التى تكيف العمل ، فتارة يكون خيراً ، وتارة يكون شراً . (إنما الأعمال بالنيات) وأن الله سبحانه وتعالى سيجزى الشاكرين عند حدوده ، الثابتين مع نبيه .

وكثير من الأنبياء السابقين قاتل معهم فى سبيل الله ولإعلاء كلمته ، جماعات فى أحرج الأوقات وأشدها ، فما وهنوا ولا ضعفوا ولا خضعوا للدنيا ومتاعها ، بل ظلوا كما هم لم تزعزعهم الأعاصير ، صابرين ثابتين والله يحب الصابرين ، الذين صابروا وصبروا ورابطوا واتقوا الله ، فهو : يهديهم ويرشدهم ، ولا شك أن هؤلاء مبالغون فى التعلق بربهم سبحانه وتعالى ، هذا عملهم ، أما قولهم فهو ﴿ **ربنا اغفر لنا ذنوبنا** ﴾ واستر ما ألممنا به ، مما تعلمه ولا نعلمه ، واغفرلنا ﴿ **إسرافنا** ﴾ وتجاوزنا أمرك ، فهم مما فعلوا من الخير ، يرون أنفسهم مقصرين أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ؛ ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ على صراطك المستقيم وأمام عدوك المبين ﴿ **وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ .

﴿ **فآتاهم الله ثواب الدنيا** ﴾ والسعادة فيها بالرضا والقناعة والعزة وحسن التوكل على الله ، ﴿ **وحسن ثواب الآخرة** ﴾ وهو الجزاء الأوفى ؛ أولئك رضى الله عنهم ورضوا عنه ؛ ذلك هو الفوز العظيم ، وأنتم يا أصحاب الرسول وأمة محمد خاتم الأنبياء والمرسلين أولى بهذا .

---

(١) من الآية : ١١ من سورة المنافقون .
(٢) من الآية : ٣٤ من سورة الأعراف .

متابعة الكافرين وعاقبتها

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

المفردات : ﴿ **الرعب** ﴾ شده الخوف ، ﴿ **سلطانا** ﴾ برهاناً وحجة ولما فيها من القوة على دفع الباطل ، سمى سلطاناً ﴿ **مثوى** ﴾ : المثوى المكان الذى يكون مقر الإنسان ومأواه .

سبب النزول :

روى أن بعض المنافقين حينما أذيع خبر مقتل النبى ﷺ ، قال : من لنا برسول إلى ابن أبى يأخذ أمانا لنا عند أبى سفيان ، وقال بعضهم لو كان نبياً ما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم ، وهذا أبو سفيان ينادى : العزى لنا ولا عزى لكم ، فنزلت هذه الآيات .

بعد ما رغَّب الله المؤمنين فى الاقتداء بأنصار الأنبياء السابقين ، وبيَّن جزاء هذا ، حذرهم من متابعة الكفار فإن فى ذلك خسارة لهم .

﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا** ﴾ كأبى سفيان وعبد الله بن أبى والداعين إليهما ، إن تطيعوهم يردوكم كافرين كما كنتم خاسرين فى الدنيا ، بالذلة بعد العزة ، وتحكم العدو فيكم ، وحرمانكم من السيادة والملك ، الذى وعده الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴿ ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[(١)] .

وأما خسران الآخرة فعذاب شديد يوم القيامة ، بل الله مولاكم ولا مولى لهم ، فلا يليق أن تفكروا فى ولاية أبى سفيان أو غيره ، ولا تأبهوا بكلام المنافقين الجبناء ، فالله نعم المولى وهو خير الناصرين .

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[(٢)] . ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[(٣)]

---

(١) من الآية : ٥٥ من سورة النور .
(٢) من الآية : ٨ من سورة المنافقون .
(٣) الآية : ١١ من سورة محمد ﷺ .

﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ بسبب شركهم بالله أصناماً وحجارة ، ليس لهم فى هذا حجة ولا برهان ، بل هم إذا خلوا وأنفسهم وجدوها تعبد معبودات ، كل حجتهم فى عبادتها ، أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين .

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾(١) وعبادتهم الأصنام تورث فى عقولهم خبالاً ، وفى نفوسهم ضعفاً وأى ضعف ؟ وإذا رأوكم متمسكين بدينكم ، كان ذلك أدعى إلى إلقاء الرعب فى قلوبهم وشكهم فى أنفسهم ، وهذا ما حصل ويحصل دائماً .

هذا حالهم فى الدنيا ، وفى الآخرة مأواهم النار وبئس القرار ، فإنهم الظالمون المشركون ، أما إذا رأيت المؤمنين مع الكافرين ، وقد انعكست الآية وقد ألقى الله الرعب فى قلوب المؤمنين ، فاعلم أنهم ليسوا مؤمنين حقاً ولكنهم مسلمون بالوراثة والاسم فقط .

ما أصاب المسلمين فى أحد ، وسببه

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ

(١) من الآيتين : ٢٢ و ٢٣ من سورة الزخرف .

مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

المفردات : ﴿ **تحسونهم** ﴾ تقتلونهم ، من حسه أى أذهب حسه بالقتل . ﴿ **بإذنه** ﴾ : بأمره ودعوته ﴿ **فشلتم** ﴾ : جبنتم وضعفتم . ﴿ **صرفكم عنهم** ﴾ : كفكم عنهم وحولكم . ﴿ **ليبتليكم** ﴾ : ليختبركم ، والمراد ليعاملكم معاملة من يختبر ، والإفالله عالم لا يحتاج إلى اختبار ﴿ **تصعدون** ﴾ : من أصعد بمعنى أبعد فى الذهاب وأمعن فيه ﴿ **ولا تلوون على أحد** ﴾ : ولا تلتفتون لأحد . ﴿ **أخراكم** ﴾ : جماعتكم المتأخرة التى وقفت تدافع عن النبى ﷺ . ﴿ **فأثابكم** ﴾ : فجازاكم ﴿ **أمنة** ﴾ : الأمنة والأمن سواء ﴿ **الغم** ﴾ : ألم وضيق فى الصدر من الأمر الذى لا يدرى الخلاص منه ﴿ **لبرز** ﴾ : لخرج ﴿ **مضاجعهم** ﴾ : مصارعهم التى يصرعون فيها ﴿ **استزلهم** ﴾ : أوقعهم فى الزلل والخطأ .

سبب النزول :

روى الواحدى عن محمد بن كعب قال : لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد قال ناس : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى النصر ؟ فأنزل الله : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده** ﴾ الآية . وتلاها ذكر الحوادث وأسبابها .

وتالله لقد وفى لكم ربكم وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم المشركين ، وقت أن أخذتم تقتلونهم قتلاً ، وتفتكون بهم فتكاً ، كل ذلك بتيسير الله ومعونته وإذنه وإرادته .

نعم : صدقكم الله وعده ، حتى ضعفتم فى الرأى ، وجبنتم فى الحرب ، وفشلتم وتنازعتم واختلفتم ، فقال قائل : فلم وقوفنا وقد انهزم المشركون ؟

وقال بعضهم لا نخالف أمر الرسول أبداً ، وما ثبت مكانه إلا عبد الله بن جبير فى نفر قليل من أصحابه ، وكان ما كان من أمر محنتكم مما ذكر فى (غزوة أحد) .

﴿ **منكم من يريد الدنيا** ﴾ : وهم الذين تركوا أماكنهم طلباً للغنيمة ﴿ **ومنكم من يريد الآخرة** ﴾ وهم الذين ثبتوا فى مكانهم ، ولم يخالفوا أمر الرسول ﷺ ، ثم كفكم عنهم حتى تحولت الحرب ودالت دولة المشركين ، فعل هذا بكم ليمتحن إيمانكم ويتبين أمركم ، فيظهر الصادقون من المنافقين ، وقد عفا الله عنكم بذلك الابتلاء الذى محا أثر الذنب من نفوسكم ، وتاب عليكم لما ندمتم على ما فرط منكم ، إنه هو التواب الرحيم ، وهو ﴿ **ذو الفضل العظيم** ﴾ على المؤمنين ؛ وكم نقمة فى طيها نعم ﴿ **صرفكم عنهم** ﴾

وقت أن كنتم ﴿ **تصعدون** ﴾ فى الجبل ، وتبعدون فى السير لا تلتفتون وراءكم ، والحال أن رسول الله ﷺ ﴿ **يدعوكم** ﴾ قائلاً : « إلىَّ عباد الله إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكرّ فله الجنة » . . ﴿ **يدعوكم** ﴾ فى الجماعة المتأخرة الذين ثبتوا مكانهم ولم تنخلع قلوبهم وظلوا يدافعون عن النبى ﷺ ، ﴿ **صرفكم** ﴾ الله ﴿ **عنهم** ﴾ فجازاكم ﴿ **غمًّا** ﴾ وغماً حين ابتلاكم بالمحنة ، بسبب غم ألحقتموه للنبى ﷺ بعصيانكم أمره ، ومخالفة رأيه .

ويصح أن يفهم ﴿ **أصابكم غماً** ﴾ ، بعد غم بإشاعة قتل النبى ﷺ ، وقتل الأحبة ، وفوات النصر والغنيمة ، وما فعل بكم ذلك كله إلا ليمرنكم على الشدائد ، فإنها هى التى تبنى الأفراد والأمم ، ولئلا تحزنوا على شىء فات ، ﴿ **ولا ما أصابكم** ﴾ من عدوكم ﴿ **والله خبير** ﴾ بأعمالكم مجازيكم عليها .

روى عن ابن الزبير رضى الله عنه أنه قال ، لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ ، حين اشتد علينا الخوف فأرسل الله علينا النوم ، والله إنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ﴿ **لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا** ﴾ .

ثم أنزل الله الأمن على القلوب ، والطمأنينة على النفوس بالنعاس عليهم ، حتى كان يسقط السيف من أحدهم فيأخذه ، والنعاس فى هذه الحالة نعمة من نعم الله ، وحد فاصل بين حالتى الأمن والخوف .

هذا النعاس غشى طائفة من الناس هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله ﷺ ، ﴿ **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم** ﴾ وملأ الخوف قلوبهم ، ما بهم همّ أنفسهم ، إلاهمّ الدين ولاهم الرسول والمسلمين ، وذلك لأنهم لا يثقون بنصر الله ولا يؤمنون بالرسول ﷺ ، فقلوبهم هواء ، هؤلاء هم المنافقون كمعتب بن قشير ومن لف لفه من أتباع ابن أبىّ ﴿ **يظنون بالله غير** ﴾ الظن ﴿ **الحق ظن الجاهلية** ﴾ الأولى ﴿ **يقولون** ﴾ لرسول الله ﷺ ﴿ **هل لنا من الأمر** ﴾ والنصر نصيب ؟ يسألون كالمؤمنين فى الظاهر والواقع أنهم ينكرون أن لهم شيئاً من النصر والغلب .

﴿ **قل** ﴾ يامحمد : ﴿ **إن الأمر** ﴾ والنصر ﴿ **كله لله** ﴾ ولا يكون من غيره ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** ﴾ .[1] ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[2] .

وهم يضمرون فى أنفسهم العداوة والحقد لكم ، ويظهرون غير ذلك ، ولا غرابة فهم المنافقون المخادعون .

﴿ **يقولون لو كان لنا** ﴾ من النصر والفوز نصيب ، ما قتلنا ها هنا ، فمحنتنا دليل واضح على أن النصر لن يأتى لنا ، وأن محمداً ليس نبياً ، إذ لو كان نبياً ما حدث لنا ما حدث ، فهم يربطون بين النبوة والنصر ، وما علموا أن النصر من عند الله ، وتوفيقه ، وأن المحنة من أعمالهم ومخالفتهم ومع ذلك فالعاقبة للمتقين .

---

(١) من الآية : ٢١ من سورة المجادلة .
(٢) الآية : ١٧٣ من سورة الصافات .

وهؤلاء ختم الله على قلوبهم ، فغفلوا عن أن الأعمار بيد الله ، وأن النصر من عنده ، وأن الذين كتب عليهم القتل لابد من حصوله ، ولو كانوا ﴿ فى بروج مشيدة ﴾ قل لهم : ﴿ لو كنتم فى بيوتكم ﴾ وقد كتب عليكم القتل ﴿ لبـرز الذين كتب عليهم القتل ﴾ إلى حيث يصرعون ويقتلون فالحذر لا ينجى من القدر ، والتدبير لا يقاوم التقدير ، والأمر كله بيد الله ، والعاقبة للمتقين ، وقد فعل الله ما فعل ؛ ليمتحن الله ﴿ ما فى صدوركم ﴾ من الإخلاص والتقوى ، ﴿ وليمحص ما فى قلوبكم ﴾ من وساوس الشيطان حتى تصل إلى الغاية القصوى فى اليقين ، ﴿ والله عليم ﴾ بصاحبات ﴿ الصدور ﴾ التى لا تنفك عنها من الأسرار والضمائر ، فهو لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وهو الغنى عن الابتلاء والاختبار ، ولكن يفعل هذا لينكشف حال الناس بعضهم لبعض ، فلا ينخدع إنسان بظاهر أخيه .

﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ من المشركين والمسلمين وتركوا أماكنهم ، أو تولـوا فارين ، إنما أوقعهم الشيطان فى هذا الخطأ ، بسبب بعض أفعالهم السابقة ، فإن الذنب الذى يفعله الإنسان يترك نكتة سوداء فى القلب ، يرتكز عليها الشيطان فينفذ منها إلى الإنسان ويوحى إليه بالسوء .

﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ لما تابوا وأنابوا وكانت عقوباتهم فى الدنيا جوابر لهم ، ﴿ إن الله غفور ﴾ للذنوب ﴿ حليم ﴾ لا يعاجل بالعقوبة .

بث روح التضحية والجهاد فى نفوس المؤمنين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

تفسير المفردات :

﴿ ضربوا ﴾ : سافروا فى الأرض للتجارة والكسب

﴿ لإخوانهم ﴾ : لأجل إخوانهم أى فى شأنهم والمراد بالأخوة ما هو أعم من أخوة النسب والدين والمودة

﴿ غزى ﴾ : جمع غاز وهو المقاتل (حسرة) ندامة فى قلوبهم لما بين الله فيما مضى سبب المحنة،وأن الشيطان قد (استزلهم) ببعض ما كسبوا بين هنا ما كسبوا به الشيطان لهم فيعتقدون هذا الخطأ الفاسد .

مازالت الآيات الكريمة تلقن الأمة المسلمة والجماعة المؤمنة دروساً ربانية ، إذا استمسكت بها الأمة كان السعد رائدها ، والتوفيق حليفها .

وفى هذه الآيات تثبيت للعقيدة وتوكيد للإيمان ، فإن الله واحد لا شريك له يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾[1] .

فيأيها المؤمنون لا تكونوا كهؤلاء الكافرين ، ومرضى القلوب الذين أغشيت قلوبهم قطعاً من الليل مظلماً ، فقالوا فى شأن إخوانهم الذين خرجوا يضربون فى الأرض سعياً وراء الكسب الحلال ، أو خرجوا مقاتلين فى سبيل الله ، قالوا فى شأنهم : ﴿ **لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا** ﴾ كأنه لا يموت إلا من خرج ساعياً أو مجاهداً ، ونسوا أن الموت حق ، وأن العمر واحد لا يتقدم ولا يتأخر ، ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[2] فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ، ﴿ **قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** ﴾ .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والموت واحد

وقد قال أحد الحكماء : « يموت الشجاع مرة ويموت الجبان مائة مرة » .

وقال أحد الحكماء :

ولست أبالى حين أُقتل مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

وعندما حضرت خالد بن الوليد الوفاة على فراشه قال كلمته المأثورة :

« لقد خضت مائة معركة أو زهاءها ، وليس فى جسدى قيد شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنذا أموت على فراشى كالبعير وكنت أود أن أموت شهيداً فى سبيل الله فلا نامت أعين الجبناء » .

هذا هو سيف الله المسلول ، الذى سله الله على أعدائه ، والذى قال فيه أبو بكر الصديق : « عقمت النساء أن يلدن مثل خالد ، والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وقال عنه مارشال الجو الألمانى (هندنبرج) : « إن خالد بن الوليد أستاذ السرعة فى الحرب ، فقد طوق أعظم امبراطوريتين بذراعيه فى مدة لا تزيد على ثلاثة عشر شهراً . ومع ذلك مات على فراشه » . فليس الضرب فى الأرض أو القتال فى سبيل الله سبباً فى الموت وليس القعود فى البيوت سبباً فى الحياة .

---

(١) الأيتان : ١٠ ، ١١ من سورة المنافقون .

(٢) من الآية : ٣٤ من سورة الأعراف .

تـزود من التقوى فـإنـك لا تـدرى إذا جن ليـل هل تعيش إلى الفجـر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقـد نسجت أكفانـه وهو لا يـدرى
وكم من عـروس زينوهـا لـزوجهـا وقــد نـزعت أرواحهم ليلة القــدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم ظلمـة القبر
وكم من صحيح مات من غـير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

إن الذين قالوا لإخوانهم ﴿ **لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا** ﴾ . إنما قالوا ما قالوه ليكون مصير قولهم ﴿ **حسرة فى قلوبهم** ﴾ فإن لو تفتح عمل الشيطان .

هل نسى هؤلاء أن الله هو الذى يحيى ويميت فلا يملك أحدٌ الإحياء والإماتة إلا الله وهـو البصير بأعمال العباد . وقد رد الله تعالى عليهم رداً مفحماً ألقمهم الحجارة فى حلوقهم .

قال تعالى : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الذين قـالوا لإخـوانهم وقعدوا لـو أطاعـونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين * ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتهم الله من فضله ويستبشرون بـالذين لم يلحقـوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] .

وأنتم أيها المؤمنون مادمتم تجاهدون فى سبيل الله فسواء قتلتم أو متم ؛ فإن مغفرة الله ورحمته خيرلكم مما يجمع هؤلاء من عرض الدنيا وحطامها الزائـل ، واعلموا أنكم لـو أدرككم الموت أو القتـل فإلى الله مصيركم وهو وليكم فنعم المولى ونعم النصير ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، وقد صدق أبو بكر الصديق : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

---

(١) من الآيات ١٦٦ - ١٧٠ من سورة آل عمران .

صاحب الخُلُقِ العظيم

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

المفردات : **(اللين فى المعاملة)** : الرفق والتلطف فيها ، **(الفظ)** : الخشن ، شرس الأخلاق ، الجافى فى المعاشرة وفى القول والفعل ، **(والغليظ)** : القاسى الذى لا يتأثر قلبه من شيء **(وانفض القوم)** : تفرقوا كما قال ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾[1] . **المشاورة** : من قولك شُرْتَ العسل إذا اجتنيتها واستخرجتها من موضعها ، والمراد بالأمر سياسة الأمة فى الحرب والسلم والخوف ، إلى نحو ذلك من المصالح الدنيوية **والتوكل** : إظهار العجز والاعتماد على الله والاكتفاء به فى فعل ما تحتاج إليه .

نزلت هذه الآيات عقب غزوة أحد التى وقع فيها ما وقع من الشدة والمحنة ، والتى أصيب فيها النبى ﷺ مع من أصيب ، فصبر وتجلد ولان فى معاملة أصحابه وخاطبهم بالرفق واللين ، ولم يعاقبهم ، وكان العتب مقترناً بالعفو من الله جلت قدرته ، وكان الصفح الجميل من رسوله الكريم ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم ﴾ .

وجاء عفو الله وصفح رسوله ، ووعد الله بالنصر لهم ، وتأييد كلمة الحق إلى أن تقوم الساعة ، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاورهم فى الأمر الذى يشمل سعادتهم فى الدارين ، وقد جاء نزول هذه الآية فى وقت يفيد أهمية الشورى ، فقد ذهب الرسول ﷺ إلى أحد وكان ما كان ، ونزلت هذه الآية بعد الغزوة ، ليقول له الله جلت قدرته ويبين له أنه مهما حدث من محنة وشدة ، فلا تترك مشاورتهم فى الأمر ، وسوف نعرض لبحث شامل كامل فى أهمية الشورى ومالها من مكانة . فى نظام الحكم فى الإسلام .

قوله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أى لقد جاءت الرحمة الإلهية فجعلتك رحيم القلب بأصحابك ، وسوت الخلق الكريم فيك فأنت الرفيق ، ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤ وف رحيم ﴾[2] فأنت النعمة المسداة والرحمة المهداة ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة

---

(١) من الآية : ١١ من سورة الجمعة .
(٢) الآية : ١٢٨ من سورة التوبة .

للعالمين ﴾ . وقد قال الرسول ﷺ : (ما من مؤمن يشاك بشوكة إلا وجدت ألمها فى قلبى) . ولو كنت يامحمد سيىء الأدب أو قاسى القلب لانصرف هؤلاء من حولك ، ولكنك أنت الرحيم القلب العظيم الخلق ﴿ فاعف عنهم ﴾ وتجاوز عما وقع منهم فى هذه الغزوة ، واطلب من الله المغفرة لهم ، ولا تترك مشاورتهم فى الأمر ، فإن الشورى من أسباب الفلاح والنجاح .

وقد هلك من استبد برأيه ، فإذا ما أخذت الرأى ، وعزمت على الفعل ؛ فاعلم أنه لا خاب من استخار الخالق ، واستشار المخلوق ﴿ فتوكل على الله ﴾ أى فوض له عواقب الأمور ، فقد أخذت بالأسباب ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾[١] ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾[٢] ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾[٣] .

ثم قال تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ ، أى اعلموا أيها المسلمون أن النصر من عند الله ؛ إن اتبعتم أوامره ، وسرتم وراء نبيكم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ؛ أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[٤] وإذا نصركم الله فلا غالب لكم ، ولا تستطيع قوة من قوى الشر أن تغلبكم وتنتصر عليكم ، ذلك لأن الله غالب على أمره ، وقد رأيتم ذلك واقعاً حقيقياً يوم بدر ، وكما أن الله هو الناصر فإنه إن سلب قوماً التوفيق لعصيانهم ومخالفتهم لأمره ، حل بهم الخذلان والفشل ، ولن يجدوا لهم مِن دون الله ولياً ولا نصيراً ، فتوكلوا على الله وحده وجردوا النيَّة لله ، واعتصموا بالله وأخلصوا دينكم لله ، وعندها سيؤيدكم الله بروح من عنده ، ويثبت أقدامكم بعد النصر ، فلن يستطيع الغرور أن يقتحم عليكم أسوار أنفسكم المنيعة ، لأن الغرور مقبرة النجاح .

بحث فى الشورى :

جاء فى كتاب « فى النظام السياسى للدولة الإسلامية » للدكتور محمد سليم العوا ، ما نصه : « مبدأ الشورى من أهم المبادىء الدستورية الإسلامية ، وتكاد المصادر الإسلامية التى عنيت ببحث المسائل المتعلقة بنظام الحكم فى الدولة الإسلامية ، أن تجمع على أهمية الشورى وتصدرها مبادئ الإسلام السياسية ، ويتناول بحثنا فى موضوع الشورى أدلة حجيتها ومدى وجوبها ونطاقها ومدى إلزام الرأى الذى تنتهى إليه الشورى ، (وهو البحث المعروف بعنوان : هل الشورى ملزِمة أم معلِّمة) .

---

(١) من الآية : ٤١ من سورة الحج .
(٢) الآية الأخيرة : ١٢٣ من سورة هود .
(٣) الآية الأخيرة : ١٠٩ من سورة يونس .
(٤) الآية : ٧ من سورة محمد ﷺ .

أدلة حجية الشورى فى القرآن الكريم :

يستدل على حجية الشورى بالقرآن والسنة . أما القرآن الكريم فقد وردت فيه آيتان صريحتان ذكرت فيهما الشورى : كأمر واجب فى إحداهما ، وكوصف يمدح فاعلوه المتصفون به فى الثانية .

ففى الآية الأولى يخاطب القرآن الكريم رسول الله ﷺ فيقول له : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ﴾[1] . وقد نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد التى خرج إليها الرسول ﷺ نزولاً على رأى أصحابه ، وكان رأيه أن يبقوا فى المدينة ويدافعوا عنها من داخلها ، وبينت الأحداث التى مرت بالمسلمين فى أثناء هذه الغزوة ، أن رأى الرسول ﷺ كان هو الأصوب والأصح ، ومع ذلك فقد أمر الله نبيه بعد هذه الأحداث بأن يستغفر لأصحابه وبأن يشاورهم فى كل ما يحتاج إلى مشاورة ، والنص بهذه الصورة وفى هذه الظروف ، نص قاطع لا يدع مجالاً للشك فى أن الشورى مبدأ أساسى من مبادىء النظام السياسى الإسلامى ، وقيمة عليا يجب على الأمة المسلمة أن تتمسك بها دائماً وتحت جميع الظروف .

أما الآية الثانية ، فهى قول الله تعالى فى سورة الشورى : ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾[2] وهذه الآية مكية نزلت فى مكة ، ومن ثم فإن وصف المؤمنين بأن ﴿ أمرهم شورى ﴾ يفيد أن الشورى من خصائص الإسلام التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون ، سواء أكانوا يشكلون جماعة لم تقم لها دولة بعد ، وذلك كان هو حال المسلمين فى مكة ، أو كانوا يشكلون دولة قائمة بالفعل كما كان حال المسلمين فى المدينة .

وبالإضافة إلى هاتين الآيتين ، يرى الأستاذ الشيخ محمد عبده أن فى قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[3] .

دليلاً أقوى على وجوب الشورى من الدليل المستمد من الآيتين السابق ذكرهما ، وهو يقرر ذلك ببيان : أن آية سورة الشورى تبين أن التشاور فى الأمور وصف ممدوح عند الله تعالى ، وأن آية سورة آل عمران الأخرى ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ توجب على الحاكم المشاورة ، ثم يستدرك قائلاً : ولكن إذا لم يكن هناك ضامن يضمن امتثاله (أى الحاكم) للأمر فماذا يكون إذا هو تركه ؟ وأما هذه الآية فإنها تفرض أن يكون فى الناس جماعة متحدون وأقوياء يتولون الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو عام فى الحكام والمحكومين ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم » .

---

(١) وهى الآية التى نحن بصدد تفسيرها ، وتفرع البحث استطرادا فى شأن بيان حكمها الشرى والسياسى والعرفى .
(٢) الآية : ٣٨ من سورة الشورى .
(٣) الآية : ١٠٤ من سورة آل عمران وقد سبق تفسيرها .

الشورى فى السنة النبوية :

أما السنة النبوية فإنها ذاخرة بالأمثلة العملية لاستشارة الرسول ﷺ لأصحابه حتى قال أبو هريرة رضى الله عنه « ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ » ومن ذلك استشارة الرسول ﷺ لأصحابه فى الخروج يوم بدر ، وفى المنزل الذى ينزله عندها ، وفى الخروج أو البقاء فى المدينة يوم أحد ، وفى مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق على ثلث ثمار المدينة ، وغير ذلك كثير ، ومن هذه السنة العملية لرسول الله ﷺ تستفاد قاعدة عامة ، مؤداها : أن الحاكم أو الإمام يستشير الأمة ـ أو أولى الرأى فيها ـ فيما يحتاج الوصول إلى قرار بشأنه إلى تبادل الآراء ، وذلك فى شأن الرسول ﷺ مسلَّم قاصر على الأمور التى لم يكن فيها وحى بفعل أمر معين أو تركه ، فإن كان محلا لوحى فلا مجال للمشاورة فيه .

أما بعد عصر الرسالة ، فإن الشورى قد تمتد حتى تغطى تلك المسائل المنصوص على أحكامها ، إذا كانت المناقشة خلال الشورى ، ترمى إلى الوصول إلى اتفاق على فهم ملائم ـ لظروف الوقائع أو الزمان أو المكان ـ لتطبيق النصوص ، بالإضافة إلى شمول الشورى ـ بطبيعة الحال ـ لتلك الأمور التى لم يرد فيها نص معين ، أى الأمور التى تركت للاجتهاد .

وجوب الشورى :

والرأى الراجح بين الفقهاء هو : أنه يجب على الحاكم مشاورة الأمة فى الأمور العامة ، بحيث إذا تركها الحاكم كان للأمة أن تطالبه بها ، وأن تبدى رأيها ــ ولو لم يطلب منها ــ فيما قد يكون لها فيه رأى .

وهذا الوجوب مستفاد من الآيتين الكريمتين اللتين قدمت ذكرهما ، فى أدلة حجية الشورى ، ففى الآية الأولى جاء الأمر إلى الرسول ﷺ : بأن يشاور أصحابه ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ . وإذا كانت المشاورة واجبة على رسول الله ﷺ ــ وهو يحكم دولة الإسلام الأولى ــ فإنها تجب كذلك ــ من باب أولى ــ على كل حاكم لدولة إسلامية بعده ، ويبدو ذلك واضحاً إذا تذكرنا أن الرسول ﷺ كان فى واقع الأمر مستغنيا عن المشاورة ، إذ يأتيه الوحى بحل ما قد يبدو مشكلاً من الأمور ، بينما لا سبيل أمام من بعده من الحكام إلا أن يستفيدوا من خبرات وآراء أولى الرأى فى الأمة .

وأما الآية الثانية : فقد جعلت الشورى وصفاً لازماً للمؤمنين يحفها من يمينها ــ فى النص القرآنى ــ وصف المؤمنين بالاستجابة لله ، وإقام الصلاة ، ومن يسارها وصفهم بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى ، وذلك كله من فرائض الإسلام ، وواسطة عقد هذه الآية الكريمة هى الشورى ، التى مدح بها المؤمنون ، وكأن وصف الإيمان الكامل لا يتحقق بغيرها .

ومع أن القول بالوجوب ــ فى شأن الشورى ــ هو الأرجح عند الفقهاء المسلمين ، فقد ذهب البعض إلى أن الأمر الوارد بالشورى إنما هو للندب لا للوجوب وأن المقصود بهذا « الندب » هو تطييب قلوب الصحابة » . والواقع أن هذا لا يعدو أن يكون فهماً فى معنى الآية الكريمة ، وسبب نزولها .

وليس ثمة ما يمنع من القول بأن « تطييب القلوب » هو أحد أسباب الأمر بالشورى ، ولكنه ليس السبب الوحيد ، وليس أدل على ذلك من فعل الرسول ﷺ نفسه فى كثرة مشاورته لأصحابه ، وقد فطن الفقهاء المسلمون إلى هذه المعانى كلها ، فقرروا أن الشورى من عزائم الأحكام التى لابد من نفاذها (والعزائم الواجبات التى لا يجوز تركها) ورتبوا على ذلك أن من ترك الشورى من الحكام فعزله واجب دون خلاف .

نطاق الشورى :

أما نطاق الشورى : أى المسائل التى يمكن أن تكون محلاً لها ، فذلك ما لا نجد له فى النصوص المقررة لوجوب الشورى تحديداً قاطعاً ، فقد ورد الأمر بالشورى فى القرآن الكريم ، واصفا إياها بأنها الشورى فى (الأمر) ، وفى هذه الكلمة من العموم والإطلاق ما يجعلها تشمل كل شئون الجماعة المسلمة فى كل نواحى حياتها، فإذا تمشينا مع هذا الإطلاق والعموم في كلمة (الأمر) فإننا نستطيع القول بأن جميع الشئون العامة للأمة المسلمة يمكن ـ أو يجب ـ أن تكون محلاً للشورى ، غير أن مثل هذا الإطلاق ـ فى الواقع ـ لا يمكن أن يكون مراداً من النصوص التى تأمر بالشورى ، ذلك أنه يوجد قيدان يجب التقيد بهما فى هذا الخصوص أولهما : أن الشورى لا تكون فى أى مسألة ورد فيها نص فى القرآن الكريم أو السنة التى تعد تشريعاً عاماً ، فهذه الأمور خارجة بالضرورة عن نطاق الشورى ؛ ولا يمكن ـ بعد ورود النص ـ أن تكون محلاً لها ، اللهم إلا إذا كان موضوع الشورى هو تفسير النص أو تنفيذه ، ولا يكون ذلك ـ بداهة ـ إلا فيما بعد عصر الرسالة من عصور ، إذ يختص الرسول بذلك التفسير والتنفيذ خلال حياته ﷺ .

والقيد الثانى : هو أنه حين تعرض مسألة مَّا على الشورى فإنه لا يجوز أن ينتهى رأى المشيرين أو المستشارين إلى نتيجة تخالف نصاً من النصوص التشريعية الواردة فى القرآن الكريم أو السنة النبوية ، إذ مثل هذه المخالفة تمنع الأخذ بالرأى الذى تنتهى إليه الشورى ، ويجعلها من ثَم لا قيمة لها .

أما خارج دائرة هذين القيدين اللذين يمكن اعتبارهما شقين لقيد واحد (هو التزام النصوص فى الموضوعات التى تعرض للشورى وفى النتيجة التى تنتهى إليها) . فإن كل أمر مما لم يرد فيه نص يمكن أن يكون محلاً للشورى ، ما دام يتعلق بمسألة تعد من الشئون العامة للأمة .

إلزام الشورى :

ثم يقول الأستاذ المؤلف : « والصحيح هو التزام الحاكم بما تنتهى إليه الشورى » .

وإذا تبين هذا ، فإنه يصبح بيناً ، أن الحاكم وقد وجبت عليه الشورى ، يجب عليه أن يلتزم بنتيجتها ؛ والتى ينتهى إليها رأى أكثر المشورين ، وأنه لا دليل يصح الاستناد إليه فى تأييد من ذهب إلى أن الشورى معلِمة وليست ملزمة .

وإنما الذى تدل عليه الأدلة جميعاً ــ من فعل الرسول ﷺ وصاحبيه ــ أن الشورى متى انتهت إلى رأى ؛ وجب على الإمام أو الحاكم تنفيذه .

ومن الجدير بالإشارة أن فعل رسول الله ﷺ فى الخروج فى غزوة أحد لقتال المشركين خارج المدينة ، واضح الدلالة على هذه القاعدة ، وعلى قاعدة التزام رأى الأكثرية ولو خالف رأى الحاكم ، أو رأى غيره من أولى الرأى .

والواقع أن الشورى لن يكون لها معنى إذا لم يؤخذ برأى الأكثرية ، ووجوب الشورى على الأمة الإسلامية يقتضى التزام رأى الأكثرية ، ويجب أن تكون الأقلية التى لم يؤخذ برأيها ؛ أول من يسارع إلى تنفيذ رأى الأكثرية ، وأن تنفذه بإخلاص باعتباره الرأى الذى يجب اتباعه ، ولا يصح اتباع غيره .

وليس للأقليةأن تناقش من جديد رأياً اجتاز دور المناقشة ، أو تناقش فى رأى وضع موضع التنفيذ ، وتلك سنة رسول الله ﷺ التى سنها للناس ، والتى يجب على كل مسلم اتباعها » .

وقد بين صحة هذا الرأى فى إيجاز بليغ الأستاذ الإمام محمد عبده بقوله : « إن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر ، والخطر على الأمة فى تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر ، فكان ﷺ يستشير أصحابه ويرجع عن رأيه إلى رأيهم » . وقال الأستاذ محمد رشيد رضا : « وليس عندى عن الأستاذ فى هذه المسألة غير هذا » .

من ذلك كله تبين أن الشورى قاعدة من قواعد الإسلام الأساسية فى المجال السياسى ــ أو مجال الشئون الدستورية ــ تثبت حجيتها بدلالة نصوص آيات القرآن الكريم وبأحاديث الرسول ﷺ وسنته العملية .

الغلول وأشياء أخرى

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

المفردات : الغَلّ : الأخذ خفية كالسرقة ، ثم غلب استعماله فى السرقة من المغنم . قبل القسمة ، ويسمى الغلول أيضا ، و ﴿ توفى كل نفس ما كسبت ﴾ ، أى تعطى جزاء ما عملت تاما وافيا . ﴿ باء ﴾ : رجع

والسخط : بفتحتين وبضم وسكون : الغضب العظيم ، والمأوى : المصير ﴿ **هم درجات** ﴾ ، أى ذو درجات ومنازل ، البصير هو الذى يشاهد ويرى حتى لا يغرب عنه ما تحت الثرى . ﴿ **منّ** ﴾ : أى أنعم وتفضل ﴿ **من أنفسهم** ﴾ أى من جنسهم من العرب ليفقهوا كلامه ﴿ **ويزكيهم** ﴾ أى يطهرهم من أدرانٍ الوثنية والعقائد الفاسدة ﴿ **من قبل** ﴾ : أى من قبل بعثة الرسول ﷺ ﴿ **ضلال مبين** ﴾ : أى ضلال بيّن لا ريب فيه .

نفى الله تعالى نفياً قاطعاً الخيانة عن أنبيائه ، وجاء هذا النفى فى صيغة بلغت من القوة مداها : ﴿ **وما كان لنبى أن يغل** ﴾ والغلول يتمثل فى الخيانات فى أى مال ، وقد كثر استعماله فى المغانم ، ولما كان النبى ﷺ هو الرئيس للأمة ، والقائد للمجاهدين فى ميادين القتال ، فهو الصادق الأمين ، والأمين فى كل شىء ، أمين فى نظره وسمعه وقلبه ولسانه وعرضه ووجدانه ، فقد كان سيد الأمناء إذا قسم قسم بالعدل والقسطاس المستقيم ، وإذا حكم فحكمه العدل كله ، « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها »[1] فليطمئن المسلمون جميعاً إلى هذا القلب الرحيم ، والخلق العظيم ، ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ **ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة** ﴾ .

روى الامام أحمد بإسناده عن أبى مالك الأشجعى عن النبى ﷺ أنه قال : (أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين فى الأرض ــ أو فى الدار ــ فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً ، فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة) .

وعن المستورد بن شداد قال سمعت رسول الله ﷺيقول : « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم ، فليتخذ خادما ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال) رواه الإمام أحمد .

وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب ، حدثنا حفص بن بشر ، حدثنا يعقوب القمى ، حدثنا حفص بن حميد ، عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ، ينادى يا محمد يا محمد ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك ! ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل جملاً له رغاء ، يقول : يا محمد يا محمد ! فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا له حمحمة ، فينادى يا محمد : فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل قسماً من أدم ، ينادى يا محمد يا محمد ! فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك) .

روى الإمام أحمد بإسناده ، عن أبى حميد الساعدى ، قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد ، يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدى لى ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر

---

(١) متفق عليه

فقال : (ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم وهذا أهدى لى . أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذى نفس محمد بيده لا يأتى أحدكم فيها بشىء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ؛ إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر) ، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه !! ثم قال : (اللهم هل بلغت)[1] ثلاثاً .

وروى الامام أحمد بإسناده ، عن أبى حميد ، أن رسول الله ﷺ قال : (هدايا العمال غلول) .

وروى أبو عيسى الترمذى فى كتاب الأحكام ، عن معاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فلما سرت أرسل فى أثرى ، فرددت فقال : (أتدرى لم بعثت إليك ؟ لا تصيبنَّ شيئاً بغير إذنى ، فإنه غلول ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ لهذا دعوتك فامض لعملك) .

وروى الإمام أحمد بإسناده ، عن عدى بن عميرة الكندى ، قال : قال رسول الله ﷺ (يا أيها الناس من عمل لنا منكم عملاً فكتمنا مخيطا فما فوقه فهو غل ، يأتى به يوم القيامة) قال : فقام رجل من الأنصار أسود ــ قال مجاهد : هو سعد بن عبادة كأنى انظر إليه ــ فقال يا رسول الله اقبل منى عملك قال (وما ذاك ؟) قال سمعتك تقول كذا وكذا قال : (وأنا أقول ذاك الآن من استعملناه على عمل فليجئ بقليله وكثيره فما أوتى منه أخذه وما نهى عنه انتهى) .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى رافع قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر ، ربما ذهب إلى بنى عبد الأشهل ؛ فيتحدث معهم ، حتى ينحدر إلى المغرب ، قال أبو رافع : فبينما[1] رسول الله ﷺ مسرعاً إلى المغرب إذ مر بالبقيع فقال : «أف لك أف لك» فلزق فى درعى وتأخرت ، وظننت أنه يريدنى ، فقال : « مالك ؟ » قلت أحدثت حدثا يا رسول الله : قال «وما ذلك» ؟ قال : إنك قلت لى . قال لا «ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً على آل فلان فغل نمرة ، فدرع الآن مثلها من نار» .

وعن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ يأخذ الوبرة من ظهر البعير من المغنم ثم يقول : «ما لى فيه إلا مثل ما لأحدكم ، إياكم والغلول فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك ، وجاهدوا فى سبيل الله القريب والبعيد فى الحضر والسفر فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، إنه لينجى الله به من الهم والغم ، وأقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ولا تأخذكم فى الله لومة لائم» رواه أحمد .

وعن عمرو بن شعيب عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : (ردوا الخياط والمخيط فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة) رواه أحمد .

وروى أبو داود بإسناده عن أبى مسعود الأنصارى قال : بعثنى رسول الله ﷺ ساعياً ثم قال : (انطلق

(١) روى الشيخان مثله بلفظ مقارب .

أبا مسعود لا ألفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته) قال : إذاً لا أنطلق . قال : (إذاً لا أكرهك) .

وعن أبى بريدة عن أبيه عن النبى ﷺ قال : (إن الحجر يرمى به فى جهنم فيهوى سبعين خريفا ما يبلغ قعرها ويؤ تى بالغلول فيقذف معه ثم يقال لمن غل به ائت به ؛ فذلك قوله : ﴿ **ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة** ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : فلان شهيد وفلان شهيد حتى أتوا على رجل فقالوا فلان شهيد . فقال رسول الله ﷺ : (كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها ــ أو عباءة) .

ثم قال رسول الله ﷺ : « اذهب فناد فى الناس ، إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » . قال فخرجت فناديت «إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[١] .

قوله تعالى : ﴿ **ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ كقوله جل شأنه : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٢] وكقوله جل جلاله : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٣] وكقوله تبارك وتعالى ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[٤] .

فعلى كل عاقل مدرك أن يعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

يا من بدنياه اشتغل وغره طول الأمل
الموت يأتى بغتة والقبر صندوق العمل

عجبت لمن يؤمن بالموت كيف هو يفرح وعجبت لمن يؤمن بالنار كيف هو يضحك ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق ثم هو ينصب ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب غداً ثم هو لا يعجل ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم هو يطمئن إليها .

لا إله إلا الله أفنى بها عمرى   لا إله إلا الله أخلو بها وحدى
لا إله إلا الله أدخل بها قبرى   لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى
لا إله إلا الله ألقى بها ربى

(١) ص ٤٢٣ ابن كثير ج ١٠ .
(٢) الآية : ٢٨١ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٢٥ من سورة آل عمران .
(٤) الآية : ١١١ من سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ **أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ أى لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه ، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير ، وهذه لها نظائر كثيرة فى القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾[1] وقوله : ﴿ أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾[2] قال تعالى : ﴿ **هم درجات عند الله** ﴾ قال الحسن البصرى ومحمد بن اسحاق : يعنى أهل الخير وأهل الشر درجات ، وقال أبو عبيدة الكسائى : منازل يعنى متفاوتون فى منازلهم ، درجاتهم فى الجنة ودركاتهم فى النار ، كقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾[3] ولهذا قال تعالى : ﴿ **والله بصير بما يعملون** ﴾ . أى وسيوفيهم إياها لا ينقصهم خيراً ولا يزيدهم شراً ؛ بل يجازى كل عامل بعمله .

قوله تعالى : ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ .

هذه نعمة عظمى أنعم الله بها على عباده ، فقد شاءت حكمته جل شأنه أن يكون الرسول الكريم من أنفسنا ، أى من جنسنا ، وليس من جنس آخر ، وهذه من نعم الله على المؤمنين فهو من أنفسهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴾[4] أى من جنسكم وقال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم ﴾[8] فهذا أبلغ فى الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم ، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته فى فهم الكلام عنه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **يتلو عليهم آياته** ﴾ يعنى القرآن ﴿ **ويزكيهم** ﴾ أى يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم ﴿ **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ يعنى القرآن والسنة ﴿ **وإن كانوا من قبل** ﴾ أى من قبل هذا ﴿ **لفى ضلال مبين** ﴾ أى لفى غىٍّ وجهل ظاهر جلى بين لكل أحد .

يا سيدى يا رسول الله معذرة	إذا كبا فيك تبيانى وتبصيرى
ماذا أوفيك من قدر ومعرفة	وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالفجر وضاح الأسارير	تدعو إلى الله فى بشر وتيسير
علا جبينك نور الحق منبلجاً	وفى يديك لواء العدل والنور

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة الرعد .
(٢) الآية : ٦١ من سورة القصص .
(٣) من الآية : ١٣٢ من سورة الأنعام .
(٤) من الآية : ٢١ من سورة الروم .
(٥) من الآية الأخيرة من سورة الكهف/١١٠ .
(٦) من الآية : ٢٠ من سورة الفرقان .
(٧) من الآية : ١٠٩ من سورة يوسف .
(٨) من الآية : ١٣٠ من سورة الأنعام .

إرشاد وبيان

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

المفردات : المراد بالمصيبة : ما أصابهم يوم أحد من قتل وفرار .

﴿ مثليها ﴾ : أى ضعفها بقتل سبعين من المشركين وأسر سبعين منهم يوم بدر .

﴿ أنى هذا ﴾ : أى من أين لنا هذا وهو تعجب مما حل بهم من هذا المصاب .

﴿ من عند أنفسكم ﴾ : أى لمخالفتكم أمر رسول الله ، ﴿ الجمعان ﴾ : جمع المؤمنين وجمع المشركين . ﴿ فبإذن الله ﴾ : أى بإرادته الأزلية وقضائه السابق بارتباط المسببات بأسبابها .

﴿ فادرءوا ﴾ : أى فادفعوا ، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ : أى فى رفع المكاره بالحذر .

لما حدث ما حدث يوم أحد من محنة ، أدت إلى وقوع الفرار وتفريق الصف ، قال جماعة **﴿ أنى هذا ﴾** أى من أين هذا الذى حدث فقال لهم الله تعالى : **﴿ هو من عند أنفسكم ﴾** أى بما حدث منكم من مخالفة للأوامر ، حتى إذا فشلتم فى الأمر وتنازعتم ، وكان ما كان من عصيان ؛ كل هذا أدى إلى تلك النتائج **﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾** فهو القادر على وقوع ما حدث بكم ، وما حدث لأعدائكم .

ثم بين سبحانه أنه المريد فقال : **﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾** أى بإرادته وأنتم يا أصحاب الرسول الكريم ﷺ إن كانت قد نزلت بكم مصيبة يوم أحد ، فقد أصبتم قبلها يوم بدر ، لقد استشهد منكم سبعون يوم أحد ، وأنتم يوم بدر قتلتم من المشركين سبعين ، وأسرتم سبعين ، وما حدث يوم أحد لم يكن عبثاً ؛ إنما كان لحكمة بالغة ، ليظهر أمامكم مدلول علم الله بالمؤمنين والمنافقين ، قال جل شأنه : **﴿ وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾** أى لو نعلم أن قتالاً سيؤدى إلى شىء أو مصلحة لاتبعناكم ، وقاتلنا ، وهذه معاذير

تدل على المرض الكامن فى النفوس ، والجبن والحرص على الدنيا ، وقد حكم الله تعالى على هذه الفئة التى مرضت قلوبها وتعقدت نفوسها ؛ فقال : ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ﴾ .

إن الانسان المؤمن دائماً يكون سليم القلب لا يخفى العداء ويظهر الود ، لايلقاك بوجه أبى بكر وقلب أبى لهب ، إنما هو شجاع فى الحق لا يخاف فيه لومة لائم ، وهذا هو الذى وصف الله به حزبه فقال : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾[١] .

أما الذين يضمرون فى القلوب سوءاً ، ويقولون بالأفواه كلاماً معسولاً . لقد نسوا أو تناسوا أن الله يعلم ما يكتمون ، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ثم حدثنا القرآن الكريم عن هؤلاء المتخاذلين ، الذين ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾[٢] .

قال الله فى شأنهم : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ .

لقد أصيب هؤلاء بمصيبتين : لقد قعدوا عن الجهاد جبنا وخوفاً ، وطمعاً فى مغنم رخيص ، والمصيبة الثانية أنهم خذلوا غيرهم عن القتال ، وحاولوا محاولات شتى فى سبيل تثبيطهم ، ولما استشهد الأبرار الأخيار قال عنهم هؤلاء ﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ إنه النفاق إذا هاجت عقاربه فى الصدور ، وتحركت ثعابين بغضائه فى النفوس المريضة ، واشتعلت فيها البغضاء اشتعال النار فى الحلفاء[٣] ، وهاج فيها الحقد فسرى سريان السم الزعاف فى الأحشاء ، وقد جاء الرد من الله جلت قدرته على هؤلاء المنافقين الجبناء الرعاديد ﴿ قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ ومن الذى يستطيع ذلك ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾[٤] .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء منقول
فإذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول[٥]

---

(١) من الآيات : ٥٤ - ٥٦ من سورة المائدة .
(٢) الآية : ٨٧ من سورة التوبة .
(٣) الحلفاء بفتح الحاء وسكون اللام نبات نيلى ينمو قريبا من الشواطىء سريع الجفاف سريع الاشتعال . . وله فوائد طبية فى معالجة بعض الأمراض .
(٤) الآية : ٨ من سورة الجمعة .
(٥) من قصيدة كعب بن زهير عندما عاد تائبا مسلما بعد كفر وهجاء للاسلام والمسلمين . . فعفا عنه رسول الله ﷺ .

الشهداء أحياء

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

المفردات : **الاستبشار** : السرور الحاصل بالبشارة و ﴿ **الذين لم يلحقوا بهم** ﴾ هم الذين بقوا فى الدنيا . ﴿ **استجابوا** ﴾ أجابوا وأطاعوا و ﴿ **القرح** ﴾ الجراح فى يوم أحد . **الإحسان** : أن يعمل الانسان العمل على أكمل وجوهه الممكنة . **التقوى** : أن يخاف الإساءة والتعقيد فيه ، ﴿ **حسبنا الله** ﴾ أى الله كافينا . ﴿ **الوكيل** ﴾ : الكافى الذى توكل إليه الأمور ﴿ **فانقلبوا** ﴾ أى فرجعوا ، والمراد **بالنعمة** : السلامة والثبات على الإيمان وطاعة الرسول **والفضل** : هو الربح فى التجارة .

ما أعظم الشهادة وما أجل قدرها عند الله ، وما أكرم الشهداء وما أرفع منازلهم ودرجاتهم ؛ يكفيهم فخراً أن الله جلت قدرته قال فيهم : ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾[1] ويكفيهم مكانة أن الله تعالى قال فيهم : ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾[2] ويكفيهم قرباً من الله تعالى أنه جل شأنه قال فى شأنهم ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ .

قال محمد بن جرير عن أنس بن مالك فى أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبى الله إلى أهل بئر معونة قال : لا أدرى أربعين أو سبعين ، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفرى ، فخرج أولئك النفر من

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة الحديد .
(٢) من الآية : ١٤٠ من سورة آل عمران وقد سبق تفسيرها .

أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى أتوا غارا مشرفا على الماء ، فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء ، فقال ـ أراه أبو ملحان الأنصارى ـ أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فخرج حتى أتى حول بيوتهم واجتثى أمام البيوت ثم قال : يا أهل بئر معونة إنى رسول رسول الله إليكم ؛ إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فآمنوا بالله ورسوله ، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه فى جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه فى الغار ، فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل .

وقد قال مسلم فى صحيحه : عن مسروق قال : إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ . فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : (أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ فقالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا ، حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس بهم حاجة تركوا) .

وقد روى الإمام أحمد بإسناده عن أنس أن رسول الله ﷺ ، قال : (ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة) تفرد به مسلم .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن جابر قال : قال لى رسول الله ﷺ : (أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : تمن . فقال له أرد إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى . قال إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون) .

وروى أحمد بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هده الآيات : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ وما بعدها) .

عن جابر بن عبد الله قال : نظر إلىَّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : (يا جابر مالى أراك مهتمًا ؟ . قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك دَيْنا وعيالا ، قال : فقال : «ألا أخبركم ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحاً) . قال على : والكفاح المواجهة . « قال سلنى أعطك ؛ قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ، فقال الرب عز وجل إنه قد سبق منى القول إنهم إليها لا يرجعون ، قال أى رب فأبلغ من ورائى ، فأنزل الله ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً** ﴾ الآية .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية» تفرد به أحمد .

وروى الإمام أحمد عن محمد بن إدريس الشافعى ، عن مالك بن أنس عن الزهرى عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (نسمة[1] المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه ، قوله «يعلق» أى يأكل ، وفى هذا الحديث (إن روح المؤمن تكون على شكل طائر فى الجنة) وأما أرواح الشهداء فكما تقدم فى حواصل طير خضر ، فهى كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها . فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ **فرحين بما آتاهم الله من فضله** ﴾ أى إن هؤلاء الشهداء البررة فى حال فرح وسرور ، بما آتاهم الله من ﴿ جنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾[2] ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الله ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أى أن الشهداء الذين سبقوا إلى الله يطلبون البشارة والسرور باستشهاد الذين لم يلحقوا بهم ، ولم يقدموا عليهم ، لما فى الشهادة من درجة عليا وإكرام وفضل ، فالشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ، ويرى مقعده من الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويأمن يوم الفزع ، ويشفع لسبعين من أهل بيته ، ويزوج باثنتين وسبعين حورية ، ويلبسه الله تاج الوقار ، أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها ﴿ **ألا خوف عليهم** ﴾ مما سيأتى ﴿ **ولاهم يحزنون** ﴾ على ما مضى ، لأنهم ﴿ **يستبشرون بنعمة من الله وفضل** ﴾ والله جلت حكمته وعظمت قدرته ﴿ **لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ الذين قاتلوا فى سبيله لا لمغنم أو لمنصب ، أو عرض أو سمعة أو رياء ، إنما جاهدوا لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، واستجابوا لله والرسول ، فلبوا النداء ، عندما هتف الداعى ونادى بالجهاد ، وقد أصيبوا بالقرح والجروح يوم أحد ، وكان هذا يوم حمراء الأسد .

رُوِى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد فبلغوا الروحاء «موضع بين مكة والمدينة» ندموا ؛ وهمّوا بالرجوع ، حتى يستأصلوا من بقى من المؤمنين ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأراد أن يرهبهم ، ويريهم من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج فى إثر أبى سفيان ، وقال : لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس ، فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه ، حتى بلغوا حمراء الأسد (موضع على ثمانية أميال

---

(١) النسمة : النفس يعنى نفس المؤمن .

(٢) من الآيتين : ٢١ ، ٢٢ من سورة التوبة .

(٣) الآيات : ١٥ - ١٩ من سورة الذاريات .

من المدينة) وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين ، فذهبوا إلى مكة مسرعين ، فنزلت الآية .

وتسمى هذه الغزوة غزوة حمراء الأسد ، وهى متصلة بغزوة أحد .

قوله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم** ﴾ أى وهم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعى ومن وافقه وأذاع قوله ، وهم أربعة : إن أبا سفيان وأعوانه جمعوا الجموع لقتالكم فاخشوهم ولا تخرجوا للقائهم(١) .

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة : أن الآية نزلت فى غزوة بدر الصغرى . ذاك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد : يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ؛ فقال النبى ﷺ : ذاك بيننا وبينك إن شاء الله ، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل (مجنّة)(٢) من ناحية (مر الظهران) فألقى الله الرعب فى قلبه ، فبدا له الرجوع فلقى نعيم بن مسعود ، وقد قدم معتمرا ، فقال له أبو سفيان : إنى واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر ، وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لى أن أرجع وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج ، فيزيدهم ذلك جرأة ، فألحق بالمدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الإبل أضعها فى يدى سهيل بن عمرو ، فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبى سفيان ، فقال لهم : ما هذا بالرأى أتوكم فى دياركم وقراركم ولم يُفلت منكم إلا شريد ، وتريدون أن تخرجوا إليهم ، وقد جمعوا لكم الجموع عند الموسم ، فو الله لا يفلت منكم أحد ، فكان لكلامه وقع شديد فى نفوس قوم منهم ، فقال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدى) فخرج ومعه سبعون راكبا يقولون : ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ . حتى وافى بدراً الصغرى « بدر الموعد » فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان فلم يلق أحداً ، لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة وكان معه ألفا رجل ، فسماه أهل مكة جيش السويق وقالوا لهم إنما خرجتم لتشربوا السويق .

ووافى المسلمون سوق بدر وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أدَماً وزبيبا ، فربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين .

﴿ **فزادهم إيمانا** ﴾ أى زادهم هذا القول إيمانا بالله وثقة به ، ولم يلتفتوا إلى تخويفهم ، بل حدث فى قلوبهم عزم وتصميم على محاربة هؤلاء الكافرين ، وطاعة للرسول ﷺ فى كل ما يأمر به وينهى عنه ، وإن أضناهم ذلك وثقل عليهم ، لما بهم من جراحات عظيمة وقد كانوا فى حاجة إلى قسط من الراحة وشىء من التداوى ، لكن وثوقهم بنصر الله وتغلبهم على عدوهم ، أنساهم كل هذه المصاعب ، فلبوا الدعوة سراعا .

---

(١) سبحان مقلب القلوب ، فقد أسلم نعيم بن مسعود فى غزوة الخندق وجاء إلى الرسول ﷺ يستأذن فى أن يصنع شيئالخدمة الاسلام فقال له الرسول ﷺ : «خذل عنا فإن الحرب خدعة ، فذهب إلى قريش ويهود مرة ليشكك فيما كان الطرفان اتفقا عليه من النصرة حتى أتت الريح ففرقت جموع المشركين .

(٢) كانت سوقا من أسواق الموسم «موسم الحج» فى الجاهلية .

والخلاصة :

أن هذا القول الذى سمعوه زاد شعورهم بعزة الله ، وعظمته وسلطانه ، ويقينهم بوعد الله ووعيده ، وتبع ذلك زيادة فى العمل ودأب على إنفاذ ما طلب الرسول ﷺ ، ولولا ذلك ما أقدموا على الاستجابة على ما كاد يكون وراء حدود الإمكان .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليماً ﴾[1] .

﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ أى قالوا معبرين عن صادق إيمانهم بالله : الله يكفينا ما يهمنا من أمر الذين جمعوا الجموع لنا ، فهو لا يعجزه أن ينصرنا على قلتنا وكثرتهم ، أو يلقى فى قلوبهم الرعب فيكفينا شر بغيهم وكيدهم ، وقد كان الأمر كما ظنوا ! فألقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان وجيشه على كثرة عُددهم وتوافر عُددهم ، فولوا مدبرين ، وكان فى ذلك عزة لله ولرسوله وللمؤمنين . . أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » : وأخرج ابن أبى الدنيا عن عائشة رضى الله عنها «أن النبى ﷺ كان إذا اشتد غمّه مسح بيده على رأسه ولحيته ، ثم تنفس الصعداء وقال : حسبى الله ونعم الوكيل» .

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : (حسبى الله ونعم الوكيل أمان كل خائف) .

قوله تعالى : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾ روى البيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عيراً مرت فى أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح مالا فقسمه بين أصحابه فذلك الفضل .

وأخرج ابن جرير عن السدى قال : أعطى رسول الله ﷺ حين خرج فى بدر الصغرى أصحابه دراهم ابتاعوا بها فى الموسم فأصابوا ربحاً كثيراً .

إن هؤلاء القوم الذين رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، لما قالوا : ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ وهى أمان الخائف ، ملأ الله قلوبهم طمأنينة وسكينة ، وقذف فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فانقلبوا راجعين ، ترفرف عليهم رايات الشيطان ، ويجللهم عار الهزيمة ، أما المؤمنون الصادقون فقد انقلبواَ إلى أهلهم بنعمة التثبيت والسكينة وفضل من الله ، بما مَنَّ عليهم من الرزق .

وهكذا قال الإمام جعفر الصادق : عجبت لمن ابتلى بأربع كيف ينسى أربعاً ، عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ وقد قال جل شأنه : ﴿ **الذين قال لهم الناس**

---

(١) الآية : ٢١ من سورة الأحزاب .

إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وقال الله بعد ذلك : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾[١] وقد قال الله بعد ذلك ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾[٢] وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾[٣] وقد قال الله بعد ذلك : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾[٤] وعجبت لمن ابتلى بمكر الأعداء كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾[٥] وقد قال الله بعد ذلك ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾[٦] .

إن هذه الصفوة المختارة اتبعوا رضوان الله فساروا وراء كل ما يحقق هذا الرضوان من فعل الخيرات وترك المنكرات والفضل كله لله وحده ، يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم ، يختص برحمته من يشاء ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ﴾[٧] قوله تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ . أى يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذو بأس وذو شدة قال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ إذا سول لكم وأوهمكم ، فتوكلوا علىَّ والجأوا إلىَّ فإنى كافيكم وناصركم عليهم ، قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ﴾[٨] إلى قوله ﴿ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[٩] وقال تعالى : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾[١٠] وقال تعالى : ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾[١١] وقال ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[١٢] وقال ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾[١٣] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ﴾[١٤] وقال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[١٥] .

---

(١) من الآية : ٨٣ من سورة الأنبياء .
(٢) من الآية : ٨٤ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء .
(٤) من الآية : ٨٨ من سورة الأنبياء .
(٥) من الآية : ٤٤ من سورة غافر .
(٦) من الآية : ٤٥ من سورة غافر .
(٧) الآية : ٤ من سورة الفتح .
(٨، ٩) : الآيات من ٣٦ - ٣٨ من سورة الزمر .
(١٠) من الآية : ٧٦ من سورة النساء .
(١١) من الآية : ١٩ من سورة المجادلة .
(١٢) الآية : ٢١ من سورة المجادلة .
(١٣) من الآية : ٤٠ من سورة الحج .
(١٤) من الآية : ٧ من سورة محمد ﷺ .
(١٥) الآيتان : ٥١ ، ٥٢ من سورة غافر .

تثبيت النبى ﷺ

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

المفردات : ﴿ **ولا يحزنك** ﴾ : حزن يحزن أو حزن يحزن بمعنى يكدرك ويؤلمك ، ﴿ **حظا** ﴾ : نصيباً ، ﴿ **اشتروا الكفر** ﴾ : أخذوا الكفر بدلا من الإيمان كما يفعل المشترى يعطى شيئاً ويأخذ بدله .

﴿ **نملى** ﴾ : نمهل والإملاء الإمهال والتملية بين الإنسان وشأنه يفعل ما يشاء ومأخوذ هذا من قولهم أملى لفرسه إذا أرخى لها الحبل لترعى ما تشاء .

﴿ **ليذر** ﴾ : ليترك ، ﴿ **يميز** ﴾ : أى يميز من مازه بمعنى ميزه ، ﴿ **الخبيث من الطيب** ﴾ : المراد بهما المؤمن والمنافق ، ﴿ **يجتبى** ﴾ : يختار .

لما أظهر الكافرون والمنافقون ما كانوا يضمرونه للنبى ﷺ من أمثال قولهم لو كان محمد نبياً ما قتل وما هزم ، وأسرعوا فى نصرة الكفار وتثبيط المؤمنين عن القتال ، كل هذا كان يؤلم النبى ﷺ ويحزنه فنزلت هذه الآيات تسلية له وتثبيتاً لقلبه .

لما حدث يوم أحد ما حدث من محنة ، وتنازع فى الأمر وجروح وقرح ، وأصاب النبى ﷺ والمؤمنين شىء كثير من الأذى ، أظهر بعض المنافقين كفرهم ، وصاروا يخوفون المؤمنين ويؤيسونهم من النصر والظفر بعدوهم ، ويقولون لهم : إن محمداً طالب مُلك ، فتارة يكون الأمر له ، وتارة عليه ، ولو كان رسولاً من عند الله ما غلب ؛ إلى نحو هذه المقالة ، مما ينفر المسلمين من الإسلام ، فكان الرسول يحزن لذلك ، ويسرف فى الحزن ، فنزلت هذه الآيات تسلية له ، كما سلاه عما يحزن من إعراض الكافرين عن الإيمان ، أو طعنهم فى القرآن أو فى شخصه عليه الصلاة والسلام ، كقوله تعالى : ﴿ ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً ﴾[1] وقوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[2] .

---

(١) من الآية : ٦٥ من سورة يونس .
(٢) الآية : ٦ من سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ﴾ أى ولا يحزنك أيها الرسول مسارعة المنافقين وطائفة من اليهود ، إلى نصرة الكافرين واهتمامهم بشأنهم ، والإيجاف فى مقاومة المؤمنين ، بكل ما أوتوا من الوسائل ، ومن التشبيط للعزائم والنيل من نبيهم ودعوته ، وتأليب المشركين عليهم ، إلى نحو ذلك مما يدور فى خلد العدو لإيذاء عدوه .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ﴾[1] .

وتوجيه الخطاب للنبى ﷺ تسلية له ، وإيذان بأنه الرئيس المعتنى بشئونه ، ثم علل هذا وأكمل التسلية بتحقيق نفى ضررهم أبدا بقوله : ﴿ إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴾ أى أنهم لن يضروا أولياء الله ، وهم النبى وصحبه ، شيئاً من الضر ، فعاقبة هذه المسارعة فى الكفر وبال عليهم لا عليك ، ولا على المؤمنين ، فإنهم لا يحاربونك فيضروك ، وإنما هم يحاربون الله تعالى ، ولا شك أنهم أعجز من أن يفعلوا ذلك ، فهم إذن لا يضرون إلا أنفسهم ، وفى جعل مضرتهم مضرة لله تعالى تشريف لهم ، ومزيد مبالغة فى تسليته ﷺ .

ثم بين أنهم لا يضرون إلا أنفسهم فقال : ﴿ يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ﴾ أى أن سر ابتلائهم ، ما هم فيه من الانهماك فى الكفر ، وقد قضى ذلك بحرمانهم من نعيم الآخرة ، وفق ما تقتضيه سنة الله وإرادته ، ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ أى أنهم على حرمانهم من الثواب ؛ لهم عذاب عظيم لا يقدر قدره .

وبعد أن بين حكم أولئك الذين يسارعون إلى نصرة الكفر ، والدفاع دونه ، ومقاومة المؤمنين لأجله ، وأرشد إلى أنه لا يؤ به بهم ، ولا يهتم بشأنهم ، فهم إنما يحاربون الله ، والله غالب على أمره ؛ أشار هنا إلى أن هذا حكم عام يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان واستبدله به فقال : ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ﴾ ، أى أن الذين أخذوا الكفر بدلا من الإيمان ، رغبة فيما أخذوا وإعراضاً عما تركوا ، فلن يضروا الله شيئاً وإنما يضرون أنفسهم بما لهم من العذاب الأليم ، الذى لا يقدر قدره وفى هذا إيماء إلى شيئين :

١ - تأكيد عدم إضرارهم بالنبى ﷺ .
٢ - بيان سُخف عقولهم وخطل آرائهم ، إذ هم كفروا أولا ثم آمنوا ثم كفروا بعد ذلك ، وهذا دليل على شدة اضطرابهم ، وعدم ثباتهم ، ومثل هؤلاء لا يخشى منهم شىء ، مما يحتاج إلى أصالة الرأى وقوة التدبير .

ثم بين أن رغبة الكافرين عن الجهاد حباً فى الحياة ليس من الخير لهم فقال : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾ أى ولا يحسبن هؤلاء

---

(١) من الآية : ٤١ من سورة المائدة .

الكافرون ؛ أن إمهالنا لهم وإطالة أعمارهم خير لأنفسهم ، فإنه لا يكون كذلك إلا إذا ازدادوا فيه عملا صالحا ، ينتفعون به فى أنفسهم بتزكيتها وتطهيرها من شوائب الأدران وسىء الخلق ، وينتفع به الناس فى تهذيبهم وتحسين معايشهم ، ولكن هؤلاء لا يزدادون بجهلهم وسوء اختيارهم إلا إثما يضرهم فى أنفسهم ، بالتمادى فى مكابرة الحق ، وتأييد سلطان الشر فى الخلق ، فحياة هؤلاء المتخلفين عن الجهاد ليست خيراً من قتل أولئك الذين قتلوا يوم أحد ، إذ بقاؤهم صار وسيلة للخزى فى الدنيا والعقاب الدائم فى الآخرة ، وقتل هؤلاء صار سبيلاً للثناء الجميل فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة .

فترغيب أولئك المثبطين عن الجهاد فى مثل هذه الحياة ، وتزيينها لهم ، مما لا ينبغى أن يروج إلا عند الجهال ، الذين لا يفهمون قيمة الحياة الحقة ، التى يجب أن تكون نصب عين العاقل .

والخلاصة ـ أن هذا الإمهال والتأخير ليس عناية من الله بهم ، وإنما هو قد جرى على سننه فى الخلق ، بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فإنما هو ثمرة عمله ، ومن مقتضى هذه السنة : أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره ، وسبباً لاسترساله فى فجوره ، ونتيجة ذلك الإثم الذى يكسبه ، العذاب المهين .

وفى الآية من العبرة :

١ - إن من شأن الكافر أن يزداد كفراً بطول عمره ، ويتمكن من العمل بحسب استعداده .
٢ - إن من شأن المؤمن : إذا أنسأ الله أجله ، أن تكثر حسناته وتزداد خيراته ، فليجعل المؤمن هذا دستوراً فيما بينه وبين ربه ، ويحاسب نفسه على مقتضاه ، فإذا فقهه وعمل به ، خرج من الظلمات إلى النور ، وكان من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين .

ثم بين أن الشدائد هى محك صدق الإيمان فقال :

﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب** ﴾ أى ما كان من سنن الله فى عباده ، أن يذر المؤمنين على مثل الحال التى كانوا عليها حين غزوة أحد ، حتى يميز المؤمن من المنافق ، ويظهر حال كل منهما ، لأن الشدائد هى التى تميز قوىَّ الإيمان من ضعيفه ، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين ، أما تكليف ما لا مشقة فيه ، كالصلاة والصدقة القليلة وغيرهما ، فيقبلها المنافق كما يقبلها صادق الإيمان ، لما فيها من حسن الأحدوثة والتمتع بمزايا الإسلام .

وفى الشدائد من الفوائد شىء كثير منها :

١ - اتقاء المنافق إذا علم نفاقه ، فقد يفضى صادق الإيمان ببعض أسرار الملة ، إلى المنافق لما يغلب من حسن الظن به ، حين يراه يؤدى الواجبات الظاهرة ويشارك الصادقين فى سائر الأعمال ، فإذا هو أفشاها عرف حاله وحذره المسلمون الصادقون .

٢ - أن تدرس الجماعة حالها ؛ إذ بتكشف أمر المنافقين تعرف أنهم عليها لا لها ، وكذلك تعرف حال ضعاف الإيمان الذين لم تربِّهم الشدائد .

٣ - إنها تدفع الغرور عن النفس إذ يغتر المؤمن الصادق ؛ فلا يدرك ما فى نفسه من ضعف فى الاعتقاد والأخلاق ، حتى تمحصه الشدائد وتبين له حقيقة أمره ، وقد يدور بخلد بعض الناس : أن أقرب وسيلة لتمييز المؤمن الصادق من المنافق ، أن يطلع الله المؤمنين على الغيب ، حتى يعرفوا حقائق أنفسهم وحقائق الناس الذين يعيشون بين ظهرانينهم ، فيعرفوا أن فلاناً من أهل الجنة ، وفلاناً من أهل النار ، فأجاب الله عن هذا فقال :

﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾ أى لم يكن من شأنه تعالى أن يطلع عامة الناس على الغيب ، إذ لو فعل ذلك لأخرج الإنسان من طبيعته ، فإنه تعالى خلقه ، يحصل رغائبه ويدفع المكاره عنه بالعمل الكسبى ، الذى تهدى إليه الفطرة وترشد إليه النبوة .

ومن ثم جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس ، ويميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد ، والتضحية بالنفس وبذل المال فى سبيل الحق والخير ، كما ابتلى المؤمنون فى وقعة أحد بخروج العدو بجيش عظيم لمقاتلتهم ، وابتلى الرماة منهم بالمخالفة ، وإخلاء ظهور قومهم لعدوهم ، وابتلوا بظهور العدو عليهم ، جزاء ما فعلوا من المخالفة ، فظهر نفاق المنافقين ، وزلزل ضعفاء المؤمنين زلزالا شديدا ، وثبت كملة المؤمنين ، وصاروا كالجبال الرواسى التى لا تزعزعها الرياح والأعاصير .

﴿ **ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء** ﴾ أى ولكن الله يختار من رسله من يشاء ، فيطلعه على ما فى قلوب المنافقين من كفر ونفاق ، وعلى ما ظهر منهم من أقوال وأفعال ، كما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، ويفضحهم به على رءوس الأشهاد ، ويخلصكم من كيدهم وخداعهم ، ونحو الآية قوله : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول ﴾[1] وفى التعبير بالاجتباء ؛ إشارة إلى أن الوقوف على أسرار الغيب منصب جليل ، تتقاصر عنه الهمم ، ولا يؤتيه الله إلا لمن اصطفاه لهداية الأمم .

وبعد أن رد على ما طعن به المنافقون فى نبوة محمد ﷺ ، من وقوع الكوارث التى حصلت فى أحد ، وبين أن فيه كثيرا من الفوائد : كتمييز الخبيث من الطيب ، أمرهم بالإيمان به فقال : ﴿ **فآمنوا بالله ورسله** ﴾ أى فآمنوا بالله ورسله ، الذين ذكرهم الله فى كتابه ، وقص علينا قصصهم ، وعمم الأمر بالإيمان بالرسل جميعاً ، مع أن سوق الكلام فى الإيمان بالنبى ﷺ ، للإيماء إلى أن الإيمان به يقتضى الإيمان بهم ، لأنه ﷺ مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء على صحة نبوته .

﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم** ﴾ أى وإن تؤمنوا بما جاءوا به من أخبار الغيب ، مع تقوى الله بترك ما نهى عنه ، وفعل ما أمر به ، فلكم أجر عظيم لا يستطاع الوصول إلى معرفة كنهه .

وقل أن ذكر القرآن الإيمان إلا إذا قرن به التقوى ، كما قل أن ذكر الصلاة إلا قرن بها الزكاة ، حثاً على عمل البر والرأفة بالفقراء والبائسين ، وإشارة إلى أن الإيمان لا يكمل إلا بهما .

---

(١) من الآيتين : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

البخل والادعاء الكاذب

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

المفردات : ﴿ **ما آتاهم** ﴾ : أى ما أعطاهم من المال والعلم والجاه ، ﴿ **سيطوقون ما بخلوا به** ﴾ : أى سيلزمون إثمه فى الآخرة كما يلزم الطوق الرقبة . ﴿ **ميراث السموات والأرض** ﴾ : أى ما يتوارثه أهلها من مال وغيره ، ﴿ **سنكتب ما قالوا** ﴾ : أى سنعاقب عليه ولا نهمله ، ﴿ **ونقول ذوقوا عذاب الحريق** ﴾ : أصل الذوق وجود الطعم فى الفم ثم استعمل فى إدراك سائر المحسوسات ، والحريق المحرق المؤلم ، ﴿ **وعذاب الحريق** ﴾ : أى عذاب هو الحريق أى سننتقم منهم ، ﴿ **عهد إلينا** ﴾ : أى أمرنا فى التوراة وأوصانا ، ﴿ **القربان** ﴾ : ما يتقرب به إلى الله من حيوان ونقد وغيرهما ، والمراد من النار : النار التى تنزل من السماء[1] ، ﴿ **البينات** ﴾ : هى المعجزات الواضحة ، ﴿ **الزبر** ﴾ : واحدها زبور : وهو الكتاب ، ﴿ **المنير** ﴾ : الواضح .

قوله تعالى : **﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾** .

(١) والنار التى تنزل من السماء هى الصواعق .

روى البخارى ، بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ (من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته ؛ مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى بشدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك) ثم تلا هذه الآية : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شر لهم ﴾ إلى آخر الآية .

وروى الإمام الحافظ أبو يعلى بإسناده ، عن ثوبان عن النبى ﷺ : (من ترك بعده كنزاً مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان ، يتبعه فيقول : من أنت ويلك فيقول : أنا كنزك الذى خلفت بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبع سائر جسده) إسناده جيد قوى .

وروى ابن جرير بإسناده عن أبى قزعة عن رجل عن النبى ﷺ قال : (ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده ، فيبخل به عليه ، إلا خرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه) .

قوله تعالى : ﴿ ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾[1] فإذا كان الملك كله لله ، والأمر بيده جل فى علاه ، فالتزموا قوله جل شأنه : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾[2] ولما كان الإنفاق وراءه من الدوافع ما هو كثير ، فقد ينفق الإنسان من المال ما يبتغى به وجه الله . وحده ، فيكون كما قال جل شأنه : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[3] وكما قال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطل والله بما تعملون بصير ﴾[4] .

وقد يكون الدافع للصدقة سمعة ورياءً ، ومنًّا وأذى ، فيكون المنفق كما حدثنا القران الكريم عنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[5] وكما قال جل شأنه : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾[6] فالمال مال الله ، والكون ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، فإذا أنفقتم فابتغوا بالإنفاق وجه الله وحده ، ومن هنا فقد ختم الله الآية بقوله : ﴿ ولله ميراث

---

(١) الأيتان : ٢ ، ٣ من سورة الحديد .
(٢) الآية : ٧ من سورة الحديد .
(٣) الأيتان : ٢٦١ ، ٢٦٢ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ٢٦٥ من سورة البقرة .
(٥) الآية : ٢٦٤ من سورة البقرة .
(٦) الآية : ٢٦٦ من سورة البقرة .

السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ أى عليم بدقائق الأشياء وبواطن الأمور وحقائق الدوافع ، إن كانت لله ، أو للرياء والسمعة ، قال سبحانه فى الحديث القدسى الجليل « أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه » وقال فى الحديث القدسى الجليل «عبدى أنفق أُنفق عليك»[١] .

وكان يحيى بن معاذ يقول : عندما يموت ابن آدم يصاب بمصيبتين أولاهما أنه يترك ماله كله ، والثانية أنه يسأل عنه كله .

يا ابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، وتصدقت فأمضيت وما عدا ذلك فذاهب وتاركه أياً كان .

وقد وردت عن النبى ﷺ أحاديث ، تدعو إلى البذل والعطاء ينشرح لها صدر المؤمن نورا ، منها على وجه المثال ما يلى ، حتى يقف المؤمن راغباً فى نور الوعد راهباً من نيران الوعيد :

- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فُلُوَّه[٢] ، حتى تكون مثل الجبل) . رواه البخارى ومسلم .
- وعن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : (إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلُوَّه أو فصيله[٣] حتى تكون مثل أحدٍ) رواه الطبرانى وابن حبان .
- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله عز وجل ليدخل باللقمة الخبز وقبصة التمر ، ومثله مما ينتفع به المسكين ؛ ثلاثة ، الجنة : رب البيت الآمر به ، والزوجة تصلحه ، والخادم الذى يناول المسكين ، فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى لم ينس خدمنا) . رواه الحاكم والطبرانى .
- وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله عز وجل) رواه مسلم والترمذى .

قوله تعالى : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾[٤] قالت لليهود : يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ رواه ابن مردويه وابن أبى حاتم .

---

(١) رواهما مسلم ، والأول رواه البخارى .
(٢) فلوَّه أى فرسة التى يعتز بها أو دابته التى يركبها .
(٣) الفصيل ولد الناقة .
(٤) من الآية : ٢٤٥ من سورة البقرة .

وجاء فى سبب نزول هذه الآية أيضاً ، ما رواه ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس ، قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس[1] فوجد من يهود ناسا كثيرة ، قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ، ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر رضى الله عنه ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بى صاحبك . فقال رسول الله ﷺ : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر» فقال : يا رسول الله : إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، يزعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ؛ فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك ، وقال : ما قلت ذلك فأنزل الله فيما قال فنحاص : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ الآية . رواه ابن أبى حاتم .

قوله تعالى : ﴿ **سنكتب ما قالوا** ﴾ تهديد ووعيد ولهذا قرنه تعالى بقوله : ﴿ **وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾ أى هذا قولهم فى الله ، وهذه معاملتهم رسل الله ، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ أى يقال لهم ذلك تقريعاً ، وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، وقوله تعالى ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار** ﴾ يقول تعالى تكذيباً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم فى كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها ، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما قال الله عز وجل : ﴿ **قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات** ﴾ أى بالحجج والبراهين ﴿ **وبالذى قلتم** ﴾ أى وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿ **فلم قتلتموهم** ﴾ أى فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ؟؟ ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فاتبعوا الحق وانقادوا للرسل .

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير** ﴾ أى لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كُذبوا ، مع ما جاءوا به من البينات ، وهى الحجج والبراهين القاطعة ﴿ **والزبر** ﴾ وهى الكتب المتلقاة من السماء ، كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿ **والكتاب المنير** ﴾ أى الواضح الجلى .

وهكذا بين القرآن الكريم لنا ما انطوت عليه قلوب القوم من حقد وحسد وبغضاء للإسلام ، فقد أساءوا الأدب حتى مع الله خالق الأكوان ، ومبدع الإنسان ، فقالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، وقالوا يد الله

(١) دار كانت لليهود فى المدينة يجتمعون فيها حول علمائهم يدارسونهم التوراة ويلقون إليهم بتعاليمهم .

مغلولة ، وأساءوا الأدب مع الأنبياء وقتلوهم ، وناصبوهم العداء ، وادعوا كذباً وبهتاناً أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وادعوا أنهم شعب الله المختار ، وما زالوا وسيظلون يعيثون فى الأرض فسادا ، ويناصبون أهل الحق العداء ، أليسوا هم الذين قالوا لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾[1] وكانت أقدامهم ما تزال مبتلة من ماء البحر قال : ﴿ أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾[2] أليسوا هم الذين قالوا لموسى ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾[3] أليسوا هم الذين قالوا لخاتم الأنبياء : ﴿ لن نؤمن لك حتى تأتينا بقربان تأكله النار ﴾ فألزمهم القرآن الحجة ودفعهم بالبينات ، إذ قال تعالى : ﴿ **قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين** ﴾ هذه عادتهم وتلك طبيعتهم ، عادتهم اللجاج وطبيعتهم الالتواء ، والسخرية بأهل الحق والاستهزاء بأهل الإصلاح .

الموت والابتلاء

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

المفردات : ﴿ **تُوَفَّوْن أجوركم** ﴾ : أى تعطونها وافية كاملة غير منقوصة ﴿ **زحزح عن النار** ﴾ نحّى عنها ففاز وسعد ونجا و ﴿ **متاع** ﴾ ما يتمتع به وينتفع مما يباع ويشترى و ﴿ **الغرور** ﴾ إصابة الغرّة والغفلة فيمن تخدعه وتغشه . ﴿ **لتبلون** ﴾ أى لتختبرن أى لتعاملنّ معاملة المختبرين ، لتظهر حالكم على حقيقتها ﴿ **فى أموالكم** ﴾ أى بالبذل فى سبيل الله وبالجوائح[4] والآفات ﴿ **وفى أنفسكم** ﴾ أى بالقتل والأسر فى سبيل الله وبالأمراض وفقد الأقارب ﴿ **الذين أوتوا الكتاب** ﴾ هم اليهود والنصارى ﴿ **والذين أشركوا** ﴾ هم كفار العرب ﴿ **أذى كثيرا** ﴾ كالطعن فى الدين والافتراء على الله ورسوله و[**الصبر**] تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه ، مع دفعه بروية ومقاومة ما يحدث من الجزع ، و[**التقوى**] الابتعاد عن المعاصى ﴿ **من عزم الأمور** ﴾ أى من صواب التدبير وما ينبغى لكل عاقل أن يعزم عليه ، ويأخذ نفسه به من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا ؛ أى ألزمتك إياه على وجه لا يجوز الترخص فيه .

---

(١) من الآية : ١٣٨ من سورة الأعراف .

(٢) الآية : ١٤٠ من سورة الأعراف .

(٣) من الآية : ٥٥ من سورة البقرة .

(٤) جمع جائحة وهى الكوارث التى تعم والنوائب التى تخص .

أخبر الله تعالى أن كل نفس لابد أن تذوق الموت ؛ وذلك بمفارقتها بدنها عندما يحين أجلها الذى قدره الله لها ، قال تعالى : ﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾[٢] وقال تبارك اسمه : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[٣] وقال عز من قائلٍ مخاطباً حبيبه ومصطفاه ﷺ ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾[٥] وقال تبارك اسمه : ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾[٦] قال ابن أبى حاتم حدثنا عبد العزيز الأويسى ، حدثنا على ابن أبى على الهاشمى عن جعفر[٧] بن محمد بن على بن الحسين عن أبيه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لما توفى النبى ﷺ ، وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسَّه ولا يرون شخصه فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾ إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك ، ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، قال جعفر بن محمد فأخبرنى أبى أن على بن أبى طالب قال أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام .

فالموت حكم قضاه الله على عباده ، ولو بقى أحد لأحد لبقى ابن المقعدين لهما ، والمقعدان رجل وامرأته بلغا من الكبر عتيا كان لهما ابن فتى قوى ، يحملهما إلى مسجد رسول الله ﷺ ليؤديا الصلاة ، وتخلفا ذات يوم فسأل الرسول ﷺ : « أين المقعدان ؟ قيل له يارسول الله لقد مات ابنهما !! فقال الصادق المعصوم « لو بقى أحد لأحد لبقى ابن المقعدين لهما » .

نعم كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا الله ذو العزة والجبروت .

الموت كأس وكل الناس شاربه	ياليت شعرىَ بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما	يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما	فانظر لنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا	وإن هفوا هفوة فالرب غفار

ثم ماذا بعد الموت ؟ البعث والجزاء ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فالدنيا قنطرة للآخرة ومزرعة لها .

---

(١) الأيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .
(٢) الآية ٨٨ من سورة القصص .
(٣) الأيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنبياء
(٤) الآية ٣٠ من سورة الزمر .
(٥) الأيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون .
(٦) الآية ١١ من سورة المنافقون .
(٧) هو الملقب بجعفر الصادق .

غـداً تـوفى النفـوس مـا كسبت ويحصد الزارعـون ما زرعـوا !
إن أحسنـوا أحسنـوا لأنفسـهم وإن أساءوا فبئس مـا صنعـوا

والسعيد هو الذى ينجو من النار ويدخل الجنة ، ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التى كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التى كانت مسلَّطة حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها
كم من مدائن فى الآفاق قد بنيت أمست خراباً وأفنى الموت أهليها
لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غداً رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قال ﷺ : « لموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ .

وعن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » .

الدنيا دار فناء وما مثلها بالنسبة للآخرة إلا كما قال الصادق المعصوم .

« والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع إليه » لذا جاء التعبير القرآنى عن الحياة الدنيا بأنها ﴿ **متاع الغرور** ﴾ أى منفعة قليلة فانية ، تصيب وتخدع الغافلين ، وما الغرور إلا السراب الخداع ، فالناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، فإذا انتبهوا ندموا فإذا ندموا لا ينفع الندم .

حكم المنية فى البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يُرى الإنسان فيها مخبراً حتى يُرى خبراً من الأخبار
فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى
جُبلت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأحزان والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار

وكما قضى الله تعالى بالموت على عباده ، قضى بالابتلاء فى المال والنفس ، فمن نجح فى هذا

الابتلاء ، فقد فاز بالخير العظيم ، قال جل شأنه : ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفكسم ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[1] فلابد أن يبتلى المؤمن فى شىء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه فإن كان فى دينه صلابة ، زيد فى البلاء .

قوله تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ هذا خطاب من الله جل شأنه للمؤمنين عند مقدمهم المدينة ، قبل وقعة بدر ، مسلياً لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين ، وأمرٌ لهم بالصفح والصبر والعفو ، حتى يأتى الله بالفرج . فقال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ .

ذكر البخارى عند تفسير هذه الآية فقال : حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير : أن أسامة بن زيد حدثه : أن رسول الله ﷺ ، ركب على حمار عليه قطيفة فدكية ، وأردف أسامة بن زيد وراءه ، يعود سعد بن عبادة ببنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سلول ، وذلك قبل أن يسلم ابن أبى - أى قبل أن يُظهر الإسلام - وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفى المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ؛ خمَّر[2] عبد الله بن أبى أنفه بردائه ، وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله ﷺ ثم وقف ، فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبى : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً ، فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، بلى يارسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ثم ركب النبى ﷺ دابته فسار ، حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال له النبى ﷺ : « ياسعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب » : يريد عبد الله بن أبى ، قال كذا وكذا ، فقال سعد يارسول الله اعف عنه واصفح ، فوالذى أنزل عليك الكتاب ، لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة[3] على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله ، شرق بذلك فذلك الذى فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ »[4] وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ، قال الله تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين

---

(١) الآيات :/١٥٥ ــ ١٥٧ من سورة البقرة .

(٢) غطى أنفه ـ وفى بعض الروايات قبض أنفه .

(٣) يقصد المدينة المنورة .

(٤) وروى مسلم قريبا من معناه ، وقيل نزلت بعد ما قال فنحاص اليهودى « إن الله فقير ونحن أغنياء » فلطمه أبو بكر رضى الله عنه فشكاه إلى النبى ﷺ فنزلت الآية ، وقيل ردا على أشعار كعب بن الأشرف .. الخ .. القرطبى ج ٤ ص ٣٠٣ .

أشركوا أذى كثيرا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ﴾[1] .

وكان النبى ﷺ يتأول فى العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله له فيهم فلما غزا رسول ﷺ بدراً ، فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال عبد الله بن أبى ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام ، فبايعوا وأسلموا . فكل من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر فلابد أن يؤذى ، فماله دواء إلا الصبر فى الله ، والاستعانة بالله ، والرجوع إلى الله .

من مساوىء أهل الكتاب

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

المفردات : [**الميثاق**] : العهد المؤكد . و ﴿ **الذين أوتوا الكتاب** ﴾ : هم اليهود والنصارى ﴿ **لتبيننه للناس** ﴾ أى لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها نبوة محمد ﷺ : ﴿ **ولا تكتمونه** ﴾ : أى لا تؤولونه ولا تلقون الشبه الفاسدة والتأويلات المزيفة ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم** ﴾ : أى طرحوه ولم يعتدُّوا به ، ويقال للأمر المعتنى به : جعله نصب عينيه وألقاه بين عينيه ﴿ **واشتروا به ثمنا قليلاً** ﴾ : أى شيئاً من حطام الدنيا الفانية ﴿ **بما أوتوا** ﴾ أى بما فعلوا ﴿ **أن يُحمدوا** ﴾ أى يحمدهم الناس . ﴿ **بمفازة من العذاب** ﴾ : أى بمنجاة منه من قولهم فاز فلان : إذا نجا .

لقد أخذ الله تعالى العهد المؤكد على علماء اليهود والنصارى من الأحبار والرهبان وهم الذين عناهم الله بقوله ﴿ **أوتوا الكتاب** ﴾ وكان نص العهد ﴿ **لتبيننه للناس ولا تكتمونه** ﴾ ولكنهم فى سبيل أن يشتروا به ثمناً قليلاً وهو الدنيا الفانية الزائلة كتموا العهد ، وخانوا الميثاق ، وأنكروا نبوة الهادى البشير ﷺ ، لما جحدوا ذكر النبى الكريم فى التوراة والإنجيل ، ونبذوا هذا العهد وراء ظهورهم ، ولفظوه لفظ النواة ؛ حرصاً على الجاه الزائل ، والمنصب التافه ، والمغنم الفانى .

---

(١) الآية : ١٠٩ من سورة البقرة .

وقد توعد الإسلام الذين يكتمون العلم وعيداً شديداً : قال ﷺ : (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[١] .

وإذا كانت الآية قد نزلت فى علماء أهل الكتاب ؛ فإنها تعم كل من أعطاه الله علماً ينفع الله به العباد ، فعلى كل عالم أن يبين للناس الأحكام الربانية والتشريعات الإلهية ، وعليه أن يحذر الكتمان ، فإن هو خاف أن يُبَلِّغ الحق ، وخشى الناس ولم يخش الله ؛ ابتغاء الوصول إلى غرض دنيوى تافه وحقير ؛ فبئس ما اشترى به ، لقد اشترى بالكتمان دنيا يصيبها (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم** ﴾ قال البخارى حدثنا سعيد بن أبى مريم ، أنبأنا محمد بن جعفر ، حدثنى زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى : أن رجالاً من المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ ؛ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو ، تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا** ﴾ الآية[٣] . ومعنى قوله تعالى : ﴿ **يفرحون بما أتوا** ﴾ أى بما فعلوا من الخداع والمكر والنقائص يظنون أنهم قد نجحوا ، وفازوا وخدعوا المؤمنين ، وهم فى الحقيقة قوم خاسرون ، إذ أن الله تعالى حكم عليهم بأنهم ليسوا بمنجاة من العذاب ، ومن يفرح بفعل السوء ، ويحب أن يشكره الناس ويمدحوه ، ويحمدوه على شئ لم يفعله من الخير ؛ فهو يراوغ نفسه ويخدعها ، وليعلم هؤلاء أن الله جلت قدرته له ملك السموات والأرض ؛ فلا يخدع ، وله الملكوت كله ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ لو يؤاخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، فإذا فعلت الخير فابتغ به وجه ربك ولاتكذب على الناس ، مدعياً أنك فعلت كذا وكذا ، وأنت لم تفعل ، تنتظر بذلك مدح الناس لك .

الله يدرى كل ما تضمر … يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع … خداع من يطوى ومن ينشر

كان المسيح ابن مريم عليه السلام يقول : يابنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ، ولكن ألبسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله .

---

(١) رواه مسلم . (٢) الآية : ٧٧ من سورة ال عمران .

(٣) ورواه مسلم أيضا ، عن أبى سعيد وفى الصحيحين أن مروان ـ بن الحكم وكان أميرا على المدينة ـ قال لبوابه : اذهب يارافع إلى ابن عباس فقال : لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون ، فقال ابن عباس : مالكم ولهذه الآية : إنما أنزلت هذه الآية فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ و ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ وقال ابن عباس : سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه ، وأخبروا بغيره ؛ فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ، وما سألهم عنه .

الذكر والتفكر

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

المفردات : [الخلق] التقدير والترتيب الدال على النظام والإتقان . و ﴿ السموات ﴾ : ما علاك مما تراه فوقك ﴿ والأرض ﴾ : ما تعيش عليه ﴿ اختلاف الليل والنهار ﴾ تعاقبهما ومجىء كل منهما خلف الآخر ﴿ لآيات ﴾ لأدلة على وجود الله وقدرته ﴿ الألباب ﴾ واحدها لب وهو العقل ﴿ قياماً وقعوداً ﴾ واحدهما قائم وقاعد ﴿ باطلاً ﴾ أى عبثا لا فائدة منه ﴿ سبحانك ﴾ : أى تنزيهاً لك عما لا يليق بك ﴿ قنا عذاب النار ﴾ : أى اجعل العمل الصالح وقاية لنا من عذاب النار ويقال [أخزاه] : أى أذله وأهانه [الذنب] : هو التقصير فى المعاملة بين العبد وربه و [السيئة] : هى التقصير فى حقوق العباد ومعاملة الناس بعضهم بعضا ﴿ وتوفنا ﴾ : أى أمتنا و ﴿ الأبرار ﴾ واحدهم بارّ وهو المحسن فى العمل ﴿ على رسلك ﴾ : أى على تصديق رسلك و ﴿ الميعاد ﴾ الوعد ﴿ استجاب ﴾ : أى أجاب ﴿ لا أضيع عمل عامل ﴾ أى لا أترك ثوابه ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أى مختلطون متعاونون ﴿ فى سبيلى ﴾ : أى بسبب طاعتى وعبادتى ودينى .

اشتمل هذا المشهد القرآنى الكريم على الذكر والفكر والدعاء ، والذكر هو استحضار عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، ووصفه جل ذكره بنعوت الجمال والجلال والكمال ، وذكر الله أكبر الوسائل فى النهى عن الفحشاء والمنكر ، لذا أمر الله به على كل حال فى الصلاة وغير الصلاة ، قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا * وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾[٢] وقال فى هذه الآية : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ وقال جلَّ ذكره : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾[٣] قال ﷺ : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا بلى ! قال : ذكر الله) .

واعلم ياأخى أن الذكر على سبعة أنحاء : فذكر اللسان الثناء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر العينين البكاء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

ولابد للذكر أن يقترن بالتفكر ، فالذكر بلا تفكر خواء ، والتفكر بلا ذكر جفاء ، والذكر والتفكر وفاء وولاء ورضاء

وفى هذا المشهد دعوات من الذاكرين المتفكرين ، توجهوا بها إلى الله جلت قدرته ، وذكروا فيها اللفظ الكريم خمس مرات (ربنا) لذا قال جعفر الصادق[٤] : من سره أن يستجيب الله له فليذكر فى دعائه لفظ ربنا خمس مرات ، ثم تلا هذه الآيات الكريمة وقال : ألا تقرأون قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ أى هذه فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة ؛ من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار ، وأشجار ونبات ، وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ، ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أى تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا ، فيطول الذى كان قصيراً ، ويقصر الذى كان طويلاً ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لآيات لأولى الألباب ﴾ أى العقول التامة الزكية ، التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[٥] ثم

---

(١) الآيتان : ٤١ ، ٤٢ من سورة الأحزاب .
(٢) من الآية : ١٣٥ من سورة آل عمران .
(٣) من الآية : ١٠٣ من سورة النساء .
(٤) هو جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه .
(٥) الآيتان : ١٠٥ ، ١٠٦ من سورة يوسف .

وصف تعالى أولى الألباب ، فقال : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ كما ثبت فى الصحيحين عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال : « صلّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جَنبك » أى لا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم ؛ بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ أى يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته ، وعلمه وحكمته ، واختياره ورحمته ، وقال الشيخ أبو سليمان الدارانى : إنى لأخرج من منزلى فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله علىَّ فيه نعمة ، ولى فيه عبرة » رواه ابن أبى الدنيا .

وعن الحسن البصرى أنه قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، وقال الفضيل :
قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك ، وربما تمثل بهذا البيت :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : طوبى لمن كان قِيلُه تذكراً ، وصمته تفكراً ، ونظره عبراً ، قال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة ، وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم ، ولا فهم امرؤ قط إلا علم ، ولا علم امرؤ قط إلا عمل ، وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله عز وجل حسن ، والفكرة فى نعم الله أفضل العبادة ، وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم بفكركم ، وشاهدوا الموقف بقلوبكم ، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين ؛ إلى الجنة أو النار وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها ، وكان يبكىَ عند ذلك حتى يُرفع صريعاً من بين أصحابه وقد ذهب عقله .

وقال عبد الله بن المبارك : مر رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال : ياراهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر ، كنز الرجال وكنز الأموال .

وعن ابن عمر أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين فيقول : أين أهلُك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كل شىء هالك إلى وجهه ﴾[1] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة ، والقلب ساه ، وقال الحسن البصرى : ياابن آدم كل فى ثلث بطنك واشرب فى ثلثه ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة .

وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر[2] قلبه بقدر تلك الغفلة . .

وقال بشر الحافى : لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه .

(١) من الآية : ٨٨ من سورة القصص .
(٢) بصر القلب هو البصيرة .

وقال الحسن عن عامر بن عبد قيس : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ يقولون : « إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر » .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : ياابن آدم الضعيف ؛ اتق الله حيثما كنت وكن فى الدنيا ضعيفاً ، واتخذ المساجد بيتا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك الفكر ، ولا تهتم برزق غد .

وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال : « فكرت فى الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها ، ما تكاد شهواتها تنقضى حتى تكدرها مرارتها ، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر فإن فيها مواعظ لمن ادكر » .

وقال ابن أبى الدنيا : أنشدنى الحسين بن عبد الرحمن :

نزهة المؤمن الفكر * لذة المؤمن العبر   تحمد الله وحده * نحن كل على خطر
رب لاه وعمره * قد تقضى وما شعر   رب عيش قد كان فوق * المن مونق الزهر
فى خرير من العيون ، وظل من الشجر   وسرور من النبات ، وطيب من الثمر
غيرته وأهله * سرعة الدهر بالغير   نحمد الله وحده * إن فى ذا لمعتبر
إن فى ذا لعبرة * للبيب إن اعتبر

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[1] ومدح عباده المؤمنين : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ قائلين : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ أى ما خلقت هذا الخلق عبثا ؛ بل بالحق لتجزى ﴿ الذين أساءوا بما عملوا ﴾[2] وتجزى ﴿ الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[3] ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل ؛ فقالوا بالحق ﴿ سبحانك ﴾ أى عن أن تخلق شيئاً باطلاً ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ أى يأمن خلق الخلق بالحق والعدل ، يامن هو منزه عن النقائص والعيب والعبث ؛ قنا من عذاب النار بحولك وقوتك ، ووفقنا لأعمال ترضى بها عنا ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم وتجيرنا به من عذابك الأليم .

ثم قالوا : ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ أى أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أى يوم القيامة لا مجير لهم منا ، ولا مجير لهم عما أردت بهم ، ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ﴾ أى داعيا يدعو إلى الإيمان وهو الرسول ﷺ : ﴿ أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ أى يقول آمنوا بربكم فآمنا ، أى فاستجبنا له واتبعناه ، أى بإيماننا واتباعنا نبيك ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أى استرها

(١) الأيتان : ١٠٥ ، ١٠٦ من سورة يوسف .
(٢ ، ٣) من الآية : ٣١ من سورة النجم .

﴿ وكفر عنا سيئاتنا ﴾ فيما بيننا وبينك ﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ أى ألحقنا بالصالحين ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ قيل : معناه على الإيمان برسلك وقيل : معناه ما وعدتنا على ألسنة رسلك وهذا أظهر .

قوله تعالى : ﴿ ولا تخزنا يوم القيامة ﴾ أى على رؤوس الخلائق .

﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ أى لابد من الميعاد الذى أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران ، إذا قام من الليل لتهجده ؛ فقال البخارى رحمه الله :[1] بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بت عند خالتى ميمونة[2] فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد : فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ الآيات . . ثم قام فتوضأ واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة[3] ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح وكان النبى ﷺ بعد قراءة هذه الآيات يدعو الله فيقول : (اللهم اجعل فى قلبى نوراً وفى سمعى نوراً وفى بصرى نوراً وعن يمينى نوراً وعن شمالى نوراً ومن بين يدى نوراً ومن خلفى نوراً ومن فوقى نوراً ومن تحتى نوراً وأعظم لى نوراً يوم القيامة) .

قال ابن مردويه : حدثنا على بن إسماعيل حدثنا أحمد بن على الحرانى حدثنا شجاع بن أشرس حدثنا حشرج بن نباتة الواسطى ، حدثنا أبو مكرم عن الكلبى وهو ابن جناب . عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ؛ فقالت ياعبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر زرْ غبا تزدد حبا ـ فقال ابن عمر ذرينا ، أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ ؛ فبكت وقالت كل أمره كان عجباً ، أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال : « ذرينى أتعبد لربى عز وجل » قالت : فقلت والله إنى لأحب قربك وإنى أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة فتوضأ ، ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قال فقال : يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر : فقال : ويحك يابلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله علىَّ فى هذه الليلة : ﴿ إن فى

---

(١) وروى مسلم مثله .

(٢) إحدى زوجات النبى ﷺ ، ذكر الحاكم عن ابن شهاب قال : خرج رسول الله ﷺ من العام القابل عام الحديبية معتمراً فى ذى القعدة سنة سبع وهو الشهر الذى صده المشركون عن المسجد الحرام ، حتى إذا بلغ يأجج ـ مكان ـ بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث بن حزن العامرية فخطبها عليه ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وكانت أختها أم الفضل تحته ـ أى زوجة العباس ـ فزوجها العباس رسول الله ﷺ ، فأقام بسرف ـ مكان بعد ذلك بحين ، حتى قدمت ميمونة فبنى بها بسرف ، وقدر الله تعالى أن يكون موت ميمونة بنت الحارث بعد ذلك بحين ، فكان موتها حيث بنى بها رسول الله ﷺ ـ قال الحاكم وهو حديث صحيح على شرط مسلم .

(٣) وفى رواية : « ثلاث عشرة ركعة » .

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ ثم قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .

قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾ .

ومعنى الآية كما قال العلامة ابن كثير : أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره ، فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك بفاء التعقيب كما قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾

هذا تفسير للإجابة ؛ أى قال لهم مخبراً : إنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه ، بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى ، وقوله : ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أى جميعكم فى ثوابى سواء ﴿ فالذين هاجروا ﴾[٢] أى تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ﴿ وأخرجوا من ديارهم ﴾ أى ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ، ولهذا قال : ﴿ وأوذوا فى سبيلى ﴾ أى إنما كان ذنبهم إلى الناس ؛ أنهم آمنوا بالله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا وقتلوا ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل فى سبيل الله فيعقر جواده ، ويعفر وجهه بدمه وترابه ، وقد ثبت فى الصحيحين : أن رجلا قال : يارسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ؛ أيكفر الله عنى خطاياى ؛ قال : (نعم) ، ثم قال : كيف قلت ؟ فأعاد عليه ما قال ، فقال : « نعم ! إلا الذى قال لى جبريل آنفا » ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى تجرى من خلالها الأنهار من أنواع المشارب ؛ من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن ، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقوله : ﴿ ثوابا من عند الله ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم ، لأن العظيم الكريم ؛ لا يعطى إلا جزيلا كثيراً ، كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالى

---

(١) الآية : ١٨٦ من سورة البقرة .
(٢) تفصيل بعد إجمال لنوع من الأنواع التى لا يضيع الله عمل عامل منهم .
(٣) من الآية الأولى من سورة الممتحنة .
(٤) الآية : ٨ من سورة البروج .

وقوله : ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ أى عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً قال ابن أبى حاتم : ذكر عن دحيم بن إبراهيم ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم أخبرنى جرير بن عثمان ؛ أن شداد بن أوس كان يقول : أيها الناس لا تتهموا الله فى قضائه ؛ فإنه لا يبغى على مؤمن ، فإذا أنزل بأحدكم شيئاً مما يحب فليحمد الله ، وإذا أنزل به شيئا مما يكره فليصبر وليحتسب فإن الله عنده حسن الثواب .

الجزاء العادل

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

المفردات : تقول : [غرنى] ظاهره ؛ أى قبلته على غفلة عن امتحانه[١] . ويقال فى الثوب إذا نُشر ثم أعيد إلى طيه رددته على غِرّه[٢] ، ﴿ تقلب الذين كفروا ﴾ : تَصَرفهم فى التجارات والمكاسب : ﴿ متاع قليل ﴾ أى ذلك الكسب والربح متاع قليل ، وإنما وصفه بالقلة لأنه قصير الأمد ﴿ مأواهم ﴾ مصيرهم ﴿ جهنم ﴾ هى الدار التى يجازى فيها الكافرون فى الآخرة و ﴿ المهاد ﴾ المكان الموطأ كالفراش و[النزل] : ما يهيأ للضيف النازل و ﴿ الأبرار ﴾ : واحدهم بار وهو المتصف بالبر ﴿ خاشعين ﴾ : أى خاضعين ﴿ اصبروا ﴾ : أى احبسوا نفوسكم عن الجزع مما ينالها و ﴿ صابروا ﴾ : أى اصبروا على شدائد الحرب مع أعداء الله و ﴿ رابطوا ﴾ : أى أقيموا فى الثغور رابطين خيولكم ، حابسين لها ، مترصدين للغزو ، و[التقوى] : أن تقى نفسك من غضب الله وسخطه ، و[الفلاح] : هو الفوز والظفر بالبغية المقصودة من العمل .

---

(١) أى دون امتحان لحقيقته .
(٢) أى أعدته إلى ظاهره .

بعدما بين الله تعالى ما أعده للمؤمنين والمؤمنات ؛ الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيله ، وقاتلوا وقتلوا ، أعد لهم الله الدرجات العلى ، وأثابهم من فضله ورحمته ومغفرته ؛ ذكر الله تعالى بعد ذلك ما يفيد أن تقلب الكفار وتصرفهم وتنقلهم فى البلاد سعيا وراء تحصيل المال ، والحرص على الدنيا ، كل هذا عرض فان و ﴿ **متاع قليل** ﴾ لكن مصيرهم فى الآخرة نار وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ﴿ **وبئس المهاد** ﴾ مهادهم (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين)[1] فأى بلاء هذا !! الفراش نار ، والغطاء نار ، اللهم أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، أما ﴿ **الذين اتقوا ربهم** ﴾ فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، فأولئك لهم جنات (فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم)[2] هل يستوى ﴿ **بئس المهاد** ﴾ الذى أعد للكافرين ؛ مع قوله تعالى : ﴿ **نزلا من عند الله** ﴾ هل تستوى الأنهار التى تجرى مع ﴿ من هو خالد فى النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾[3] إن الذى عند الله خير للأبرار الأتقياء .

ثم أخبر سبحانه عن فريق من أهل الكتاب ؛ آمن بالله وما أنزل إلى رسول الله ، وما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل ، هذا الفريق خشعت قلوبهم[4] لله جل شأنه ، فقاموا له يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، لم يبيعوا آخرتهم بدنياهم ، كذلك ﴿ **لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً** ﴾ فالدنيا إلى شتات وكل حى إلى ممات ، وقد أخبر الله تعالى عن هذا الفريق بأن ﴿ **لهم أجرهم عند ربهم** ﴾ والذى حكم بهذا هو الله الذى سيحاسب الجميع ؛ دون ما عجز فهو سريع الحساب ، ودون ما نسيان : ﴿ قال فما بال القرون الأولى ✻ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾[5] ثم ختم الله تعالى هذه السورة الكريمة ؛ بتلك التوجيهات السديدة الرشيدة ، التى لو عمل بها المؤمنون لسعدوا فى الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

أربعة أوامر ، ثم تعقبها نتيجة ، الأمر الأول : الصبر وهو ثبات باعث الدين ، وحبس النفس على ما تكره ، ومقاومة النفس الهوى ، لا تنقاد للقبائح ، فمعنى ﴿ **اصبروا** ﴾ أى احبسوا أنفسكم على تحمل الشدائد .

---

(١) الآية : ٤١ من سورة الأعراف .

(٢ ، ٣) من الآية : ١٥ من سورة محمد ﷺ ويقال لها أيضا سورة « القتال » .

(٤) هؤلاء هم عبد الله بن سلام وزيد بن سعنة وكعب الأحبار وغيرهم لم يبتغوا الأجر الكريم عند الله بشراء المجد الزائف مع الكفر فى الدنيا كغيرهم من أحبار اليهود ومن أصر على النصرانية من نصارى نجران وبطارقة هرقل ملك الروم الذين منعوه من الإيمان بمحمد ﷺ حفاظا على ملك أزاله الله بجهاد جند الإسلام .

(٥) الآيتان : ٥١ ، ٥٢ من سورة طه .

الأمر الثانى : ﴿ وصابروا ﴾ أى صابروا مع الأعداء فتحملوا أذاهم وجاهدوهم ، ولا تيأسوا من جهادهم .

الأمر الثالث : ﴿ ورابطوا ﴾ أى فى سبيل الله كما قال تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] وكذلك الرباط بجميع أنواع الأسلحة ، حتى يكون الدين كله لله ، وحتى لا تكون فتنة فى الأرض .

الأمر الرابع : ﴿ واتقوا الله ﴾ أى خافوه فلا تعصوه ، واعملوا بما أنزل ، ولا تهملوه ، وارضوا بما قسم فلا تكفروه ، واستعدوا ليوم الرحيل فلا تنسوه ، ثم تأتى النتيجة بعد ذلك ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أى لتفلحوا وتلك نتيجة أكيدة ويقينية ، فمن صبر وصابر ورابط واتقى الله ؛ نال السعادة فى الدنيا ، ودار الكرامة فى الآخرة ، وسعد برضوان من الله ذلك هو الفوز العظيم .

---

(١) من الآية : /٦٠ من سورة الأنفال .

سورة النساء

* **عدد آياتها** : مائة وسبعون وست ، نزلت بعد الممتحنة .
* **عدد كلماتها** : ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون ، وحروفها ستة عشر ألفا وثلاثون حرفا .

هذه السورة مدنية كلها : فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ) .

وقد بنى النبى بعائشة فى المدينة فى شوال من السنة الأولى من الهجرة ووجه المناسبة بينها وبين آل عمران :

١ ــ أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ؛ وافتتحت هذه السورة بذلك ، وهذا من أكد المناسبات فى ترتيب السور .

٢ ــ أن فى السابقة ذكر قصة أحد مستوفاة ، وفى هذه بقية لها وهو قوله : ﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين ﴾ فإنه نزل فى هذه الغزوة على ما ستعرفه بعد .

٣ ــ إنه ذكر فى السورة السالفة الغزوة التى بعد أحد وهى : « غزوة حمراء الأسد » بقوله : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ وأشير إليها هنا فى قوله : ﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ﴾ الآية .

* **اسم السورة** : سورة النساء الكبرى ، واسم سورة الطلاق سورة النساء الصغرى .
* **ما اشتملت عليه السورة** :

الأمر بتقوى الله فى السر والعلن ، وتذكير المخاطبين بأنهم من نفس واحدة ، بيان خلق آدم وحواء ، الأمر بصلة الرحم والنهى عن أكل مال اليتيم ، وما يترتب عليه من عظم الإثم والعذاب لآكليه ، بيان المناكحات وعدد النساء وحكم الصداق ، وحفظ المال من السفهاء ، وتجربة اليتيم قبل دفع المال إليه .

والرفق بالأقارب وقت قسمة الميراث ، وحكم ميراث أصحاب الفرائض ، وذكر ذوات المحارم .

وبيان طوْل الحرُة ، وجواز التزوج بالأمة ، والاجتناب عن الكبائر ، وفضل الرجال على النساء .

وبيان الحقوق ، وحكم السكران وقت الصلاة[1] ، وآية التيمم ، وذم اليهود . وتحريفهم التوراة ، وردّ الأمانات إلى أهلها ، وصفة المنافقين فى امتناعهم عن قبول أوامر القرآن ، والأمر بالقتال .

ووجوب رد السلام ، والنهى عن موالاة المشركين ، وتفصيل قتل العمد والخطأ .

---

(١) وذلك قبل نزول تحريم الخمر تحريما تاما ، وإن كان حكم صلاة السكران قائما .

وفضل الهجرة ، ووزر المتأخرين عنها ، والإشارة إلى صلاة الخوف من حال القتال ، والنهى عن حماية الخائنين ، وإيقاع الصلح بين الأزواج والزوجات ، وإقامة الشهادات ، ومدح العدل ، وذم المنافقين .

وذم اليهود ، وذكرقصدهم قتل عيسى عليه السلام ، وفضل الراسخين فى العلم .

وإظهار فساد اعتقاد النصارى ، وافتخار الملائكة والمسيح بمقام العبودية ، وذكر ميراث الكلالة ، والإشارة إلى أن الغرض من بيان الأحكام صيانة الخلْق من الضلالة ، فى قوله : ﴿ يبين الله لكم أن تضلُّوا ﴾ أى كراهة أن تضلُّوا .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

المفردات : ﴿ الناس ﴾ : اسم للجنس البشرى ﴿ تساءلون به ﴾ : أى يسأل به بعضكم بعضا بأن يقول : سألتك بالله أن تقضى هذه الحاجة ، ﴿ والأرحام ﴾ : أى خافوا من حق إضاعة الأرحام ، و [الرقيب] : المراقب ، وهو المشرف من مكان عال والمراد هنا بالرقيب الحافظ لأن ذلك من لوازمه .

قال ابن مسعود : إن فى سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾(٣) .

(١) الآية : ٤٠ من سورة النساء .
(٢) الآية : ٣١ من سورة النساء .
(٣) الآية : ٤٨ من سورة النساء .

وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾(٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت .

قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾(٥) .

ثم ذكر قول ابن مسعود فى الآيات الباقيات .

وقد ورد فى تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ أقوال عن المفسرين ، نرى أن خير ما قيل فى هذه الآية ؛ ما ذكره العلامة ابن كثير فى تفسيره العظيم ، حيث كان حريصاً كعادته ؛ أن يستشهد بالأحاديث الصحيحة والنصوص الصريحة ، وخير ما نفسر به القرآن : هو القرآن نفسه ، أو سنة رسول الله ﷺ ، لذا فإننا لا نريد شتاتاً فى الفكر ، أو شذوذاً فى الرأى ، فاخترنا أن نذكر هنا ما قاله ابن كثير .

قال رحمه الله تعالى :

يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه ، وهى عبادته وحده لا شريك له ، ومنبهاً لهم على قدرته التى خلقهم بها ﴿ من نفس واحدة ﴾ وهى آدم عليه السلام ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ وهى حواء عليها السلام ؛ خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه .

وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها فى الرجل ، وخلق الرجل من الأرض ، فجعلت نهمته فى الأرض فاحبسوا نساءكم(٦) .

وفى الحديث الصحيح : (إن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن استمتعت استمتعت بها وفيها عوج)(٧) .

---

(١) من الآية : ٦٤ من سورة النساء .
(٢) الآية : ١١٠ من سورة النساء .
(٣) الآية : ٢٦ من سورة النساء .
(٤) الآية : ٢٧ من سورة النساء .
(٥) الآية : ٢٨ من سورة النساء .
(٦) النهم .. شدة الرغبة فى الشىء .
(٧) رواه الشيخان .

وقوله : ﴿ وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ أى وذرأ منهما أى من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ، ونشرهم فى أقطار العالم ، على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر .

ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ أى واتقوا الله بطاعتكم إياه قال إبراهيم ومجاهد والحسن ﴿ الذى تساءلون به ﴾ أى كما يقال أسألكم بالله وبالرحم ، وقال الضحاك واتقوا الله الذى تعاقدون وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ؛ ولكن بروها وصلوها ، وقرأ بعضهم ﴿ والأرحام ﴾ بالخفض[1] على العطف على الضمير فى به ، أى تساءلون بالله وبالأرحام كما قال مجاهد وغيره .

وقوله : ﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ أى هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال ﴿ والله على كل شىء شهيد ﴾[2] وفى الحديث الصحيح : (أن تَعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[3] . وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب ، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ، ليعطف بعضهم على بعض ، ويحثهم على ضعفائهم ، وقد ثبت فى صحيح مسلم ؛ من حديث جرير بن عبد الله البجلى : أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر ـ وهم مجتابو النمار ، أى من عريهم وفقرهم ـ قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال فى خطبته : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ .

ثم قال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾[4] ثم حضهم على الصدقة فقال : (تصدق رجل من ديناره من درهمه من صاع بره من صاع تمره) وذكر تمام الحديث . وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود فى خطبته الجامعة ، وفيها : ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ الآية .

بحث فى حقيقة النفس أو الروح

قال العلماء : اختلف المسلمون فى حقيقة النفس أو الروح الذى يحيا به الإنسان ، وتتحقق وحدة جنسه ، على اختلاف أصنافه ، وأشهر آرائهم فى ذلك ، الرأى القائل :

إنها جسم نورانى علوى خفيف حىٌّ متحرك ، ينفذ فى جوهر الأعضاء ، ويسرى فيها سريان الماء فى الورد والنار فى الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار التى تفيض عليها من هذا الجسم

---

(١) الخفض هو الاعراب بالجرّ .

(٢) من الآية : ٦ من سورة المجادلة ، ومن الآية : ٩ من سورة البروج .

(٣) من الحديث الذى رواه الشيخان بسندهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر » الحديث » وفيه يسأل جبريل رسول الله ليبين للناس أمور دينهم . كما ذكر الرسول ﷺ فى ختام الحديث .

(٤) من الآية : ١٨ من سورة الحشر .

اللطيف ؛ وجد الحس والحركة الإرادية والفكر وغيرها ، وإذا فسدت هذه الأعضاء وعجزت عن قبول تلك الآثار ؛ فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح .

ومما يثبت ذلك أن العقل والحفظ والتذكر ؛ وهى أمور ثابتة قطعاً ؛ ليست من صفات هذا الجسد ، فلا بد لها من منشأ وجودى عبر عنه الأقدمون بالنفس أو الروح . وما مثلها إلا مثل الكهرباء .

فالماديون الذين يقولون لا روح إلا هذه الحياة ، يكون مثل الجسد عندهم مثل المستودع الكهربائى ، فهو بوضعه الخاص وبما يودع فيه من المواد ؛ تتولد فيه الكهرباء ، فإذا زال شىء مما أودع فيه أو أزيل تركيبه الخاص فقد الكهرباء ، وهكذا حال الجسم تتولد فيه الحياة بتركيب مزاجه بكيفية خاصة ، وبزوالها تزول الحياة .

والذين يقولون إن للأرواح استقلالا عن الجسد يكون مثل الجسد مثل الآلة التى تدار بكهرباء تأتى إليها من المولد الكهربائى ، فإذا كانت الآلة على وضع خاص فى أجزائها وأدواتها ؛ كانت مستعدة لقبول الكهرباء التى توجه إليها حتى تؤدى وظيفتها ، وإن فقدت منها بعض الأجزاء الرئيسية أو اختل وضعها الخاص تصبح غير قابلة للكهرباء ، ومن ثم لا تؤدى وظيفتها الخاصة بها .

الحفاظ على مال اليتيم

وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾

المفردات : [اليتيم] لغة : من مات أبوه مطلقاً ، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال . ﴿ ولا تتبدلوا ﴾ : أى لا تستبدلوا ، ﴿ الخبيث ﴾ : هو الحرام ، ﴿ الطيب ﴾ : هو الحلال ، ﴿ حوباً كبيرا ﴾ : أى إثماً عظيماً ، [القسط] : النصيب ، وقسط : جار ، قال الله تعالى : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾[1] وأقسط : عدل ، قال الله تعالى : ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[2] ﴿ ما

(١) الآية : ١٥ من سورة الجن .
(٢) من الآية : ٩ من سورة الحجرات .

طاب لكم ﴾ : أي ما مال إليه القلب منهن ، ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ : أي اثنتين ، اثنتين ، وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً أربعاً ، ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ : أي ذلك أقرب إلى عدم العول والجور ، ﴿ صدقاتهن ﴾ : مهورهن ، ﴿ نحلة ﴾ : عطية وهبة ، ﴿ هنيئاً مريئاً ﴾ : الهنيء ما يستلذ به الآكل ، المريء : ما تجمل عاقبته كأن يسهل هضمه وتحسن تغذيته .

بعد أن أمر الله تعالى عباده بتقواه فقال : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ أى اتقوا الله فلا تعصوه واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ، أمر سبحانه عباده أن يعرفوا لليتيم قدره ، وأن يحافظوا على ماله ، وحذرهم بعد ذلك[1] من أكل مال اليتيم فقال : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا ﴾ أمرهم سبحانه أن يؤتوا اليتيم ماله ، إن أنسوا منه رشداً ، واليتيم هو الذى مات أبوه دون أن يبلغ الحلم ، وخير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم ، وقد أخبر الصادق المعصوم قائلاً : «أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة»[2] .

وقد ولد ﷺ يتيماً ، فكان فى مولده إشارة واضحة إلى إكرام اليتامى قال تعالى ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾[3] أى آواك إلى كفالة جدك ثم عمك .

وبعد أن أمر الله تعالى بإيتاء اليتامى أموالهم ، نهى الأوصياء أن يتبدلوا الخبيث بالطيب ، والخبيث هنا هو الحرام ، والطيب هو الحلال فالحرام لايدوم ، وإذا دام دمر ، ولو اختلط الحرام بالحلال لأكل الحرام الحلال .

أى لا تأكلوا مال اليتيم وهو خبيث حرام ، وتتركوا أموالكم وهى الحلال الطيب ، وقد ورد فى تفسير هاتين اللفظتين أقوال للمفسرين نجملها فيما يلى :

قال سفيان الثورى عن أبى صالح : «لا تعجل بالرزق الحرام ، قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذى قدر لك» قال سعيد بن جبير : «لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم ، يقول : لا تتبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام » .

وقال سعيد بن المسيب والزهرى : « لا تعط مهزولاً وتأخذ سمينا » . وقال إبراهيم النخعى والضحاك : «لا تعط زيفاً[4] وتأخذ جيداً» . وقال السدى : «كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويجعل مكانها الشاة المهزولة ، ويقول : شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم . وقوله : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ قال مجاهد : أى لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً ، وقوله : ﴿ إنه كان حوباً كبيرًا ﴾ قال ابن عباس : أى إثماً عظيماً .

---

(١) من الآية رقم ١٠ وهى التى ذكرت بعد ذلك الكلام .
(٢) حديث صحيح رواه الشيخان ، ونص البخارى : أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين .
(٣) الآية : ٦ من سورة الضحى .
(٤) النقود التى كانوا يتعاملون بها ذهب دنانير وفضة دراهم ، وكان منها زيوف وهى ما فى سكته غش فى عيار الذهب أو الفضة .

قوله تعـالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتـامى فانكحـوا ما طـاب لكم من النساء ﴾ . قـال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن صالح بن كيسان ، عن ابن شهاب ، قال : «أخبرنى عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ﴾ قالت يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : ﴿ ويستفتـونك فى النساء ﴾[1] قالت عائشة : وقول الله فى الآية الأخرى ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾[2] فرغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال» .

قوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أى انكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين اثنتين أو ثلاثاً ثلاثاً ، أو أربعاً أربعاً ، وهو كقوله تعالى : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾[3] وهـو أسلوب عربى فصيح كما تقول للقوم : اقتسموا هذه الدراهم الألف اثنين اثنين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً ، أى ليأخذ كل منكم اثنين لا يزيد عنها ، أو ثلاثاً لا يزيد عنها ، أو أربعاً لا يزيد عنها ، فكل منكم مخيرٌ بين هذه الأنصب الثلاثة ، اثنين أو ثلاث أو أربع ، ولا تجوز الزيادة فى التعدد عن أربع ، ذلك لأن هذه الآية وردت فى مقام الإباحة والامتنان فلو كانت الزيادة عن ذلك جائزة لذكرها الله تعالى ، وقد ورد من الأحاديث ما يدل على ذلك :

* روى الإمام أحمد ، عن سالم عن أبيه : أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبى ﷺ : «اختر منهن أربعاً» فلما كان فى عهد عمر طلق نساءه وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر ؛ فقال : إنى لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه فى نفسك . ولعلك لا تلبث إلا قليلاً ! وايم الله لتراجعنَّ نساءك ولترجعن مالك ، أو لأورثهن منك ، ولآمرن بقبرك فيـرجم كما رجم قبـر أبى رغال»[4] وهكذا رواه الشافعى والترمذى وابن ماجه .

* قال الشافعى : وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، وهذا الذى قاله الشافعى مجمع عليه بين العلماء .

(١ ، ٢) من الآية : ١٢٧ من سورة النساء .

(٣) من الآية الأولى من سورة فاطر .

(٤) فهم عمر من ذلك الفعل الذى فعله أنه يريد حرمان زوجاته من الميراث بطلاقهن ، ولا يجوز لانسان أن يقسم ميراثه قبل وفاته لأن ذلك مرهون بالآجال .

* روى أبو داود وابن ماجه عن عميرة الأسدى قال : أسلمت وعندى ثمانى نسوة ، فذكرت للنبى ﷺ فقال «اختر منهنَّ أربعاً» .

* وقال الشافعى فى مسنده عن نوفل بن معاوية الديلى ، قال أسلمت وعندى خمس نسوة ، فقال لى رسول الله ﷺ : « اختر أربعاً أيتهن شئت وفارق الأخرى ، فعمدت إلى أقدمهن صحبة عجوز عاقر معى منذ ستين سنة فطلقتها » .
فهذه كلها شواهد لحديث غيلان كما قاله البيهقى .

الحكمة من التعدد :

أباح الإسلام تعدد الزوجات لحكمة بالغة ، ذلك لأن الإسلام عـالمى الرسـالة ، فلم يبعث نبى الإسلام ﷺ لشعب دون شعب ، أو لأمة دون أمة ، إنما بعث رحمة للعالمين ، ومشاكـل الناس لا تكـاد تنتهى ، وكأنها سلسلة متصلة الحلقات ، يمسك بطرفها الأول آدم أبو البشر ، وبطرفها الثانى إسرافيل نافخ الصور ، ولما كان الإسلام كما قال رب العزة لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[1] لما كان ذلك كذلك ، فلابد أن يكون فى صيدليته الدواء لكل داء ، وتعدد الزوجات فى الإسلام علاج مشروط بالعدل ، فيه الوفاء وفيه الإبقاء على حسن المعاشرة ، ومن ثم فقد زلت أقدام قوم ، وتعثرت أقلامهم ، وانفلت خيالهم ، عندما قالوا إن التعدد للزوجات فى الإسلام أمر محال ، لأنه علق على العدل ، والعدل بينهن غير ممكن ، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ وبقوله جل شأنه : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[2] ولو صلح لهم ذلك : للزم على قولهم أن يكون فى القرآن تناقض ؛ وحاش لله أن يكون فى كلامه تناقض ، فلقد أباح الله التعدد فكيف يعلقه على أمر محال ، إن الله جل شأنه لما أباح تعدد الزوجات ، كان فى ذلك امتنان منه تعالى على خلقه ، حيث أوجد لهم متسعاً ، وامتن عليهم بأنهم فى حاجة إليه ، فكيف ينفى ما أباحه وامتن به .

إن النفى والإثبات هنا لم يردا على محل واحد حتى يلزم التناقض ، أو حتى ينفى التعدد ، بل إن الجهة منفكة بين العدلين .

فالعدل فى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ إنما هو عدل فى الأمور المادية كالمسكن والنفقة من مطعم وملبس ، أما العدل فى قوله جل شأنه : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النسـاء ولو حرصتم ﴾ فذلك عدل قلبى ، قال عنه النبى ﷺ : (اللهم إن هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك)[3] .

العدل المادى أمر ممكن ، أما العدل القلبى فإن الله تبارك وتعالى لم يؤاخذ الإنسان فى ميله القلبى لإحدى الزوجات ، إنما نهى عن الميل الكلى ، قال جل شأنه : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾[4]

---

(١) الآية : ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٢) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .
(٣) رواه مسلم .
(٤) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

والمرأة المعلقة هى التى أساء زوجها عشرتها ، فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة ، ومن ثم فأى تناقض ؟ اللهم لا تناقض فى كلامك ، وأى شىء الذى علق على مستحيل ، والعدل فى الآيتين مختلف ، عدل ممكن الوقوع جائز التحقيق ، وعدل فيه شىء من جهاد النفس ، وجه الله فيه الرجال إلى أن يقيموا الوزن بالقسط ما استطاعوا .

إن الله تعالى أباح تعدد الزوجات فى ظل العدالة ، فأى الموقفين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون .

أيعيش الرجل مع حليلة فيرضى ربه ؟ أم مع خليلة فيقع فى غضب الله ، خاسراً الدنيا والآخرة ؟ إذاً فليس التعدد فى الإسلام عبثا ، فقد لعن الله كل مزواج مطلاق كما لعن الذواقين والذواقات .

مزايا تعدد الزوجات عند الحاجة :

ذكر الشيخ المراغى فى تفسيره تحت هذا العنوان ما نصه : «الأصل فى السعادة الزوجية أن يكون للرجل زوج واحدة ، وذلك منتهى الكمال الذى ينبغى أن يربى عليه الناس ، ويعتزوا به ، لكن قد يعرض ما يدعو إلى مخالفة ذلك ، لمصالح هامة تتعلق بحياة الزوجين ، أو حاجة الأمة ، فيكون التعدد ضربة لازب لا غنى عنه ، ومن ذلك :

١ - أن يتزوج امرأة عاقراً ، وهو يود أن يكون له ولد ، فمن مصلحتها أو مصلحتهما معا ، أن تبقى زوجا له ؛ ويتزوج بغيرها ، ولاسيما إذا كان ذا جاه وثروة كأن يكون ملكاً أو أميراً .

٢ - أن تكبر المرأة وتبلغ سن اليأس ، ويرى الرجل حاجته إلى العقب ، وهو قادر على القيام بنفقة غير واحدة ، وكفاية الأولاد الكثيرين وتعليمهم .

٣ - أن يرى الرجل أن امرأة واحدة لا تكفيه لإحصانه ، لأن مزاجه الخاص يدفعه إلى الحاجة إلى النساء ، ومزاجها بعكس هذا ، أو يكون زمن حيضها طويلا ؛ يأخذ جزءاً كبيرا من الشهر ، فهو حينئذ أمام أحد أمرين : إما التزوج بثانية ، وإما الزنا الذى يضيع الدين والمال والصحة ، ويكون هذا شرّاً على الزوجة من ضم واحدة إليها مع العدل بينهما كما هو شرط الإباحة فى الإسلام .

٤ - أن تكثر النساء فى الأمة كثرة فاحشة ، كما يحدث عقب الحروب التى تجتاح البلاد ، فتذهب بالألوف المؤلفة من الرجال ، فلا وسيلة للمرأة فى التكسب فى هذه الحال ؛ إلا ببيع عفافها ، ولا يخفى ما بعد هذا من شقاء على المرأة التى تقوم بالإنفاق على نفسها ، وعلى ولدٍ ليس له والد يكفله ، لاسيما عقب الولادة ومدة الرضاعة .

والمشاهد أن اختلاط النساء بالرجال فى المعامل ومحال التجارة وغيرها من الأماكن العامة ، قد جر إلى كثير من هتك الأعراض والوقوع فى الشقاء والبلاء ، حتى كتبت غير واحدة من الكاتبات الإنجليزيات ، وأبانت أن هذا التدهور الخلقى لا علاج له إلا بتعدد الزوجات ، مع أن هذا ضد مصلحة المرأة وهى تنفر منه بمقتضى شعورها ووجدانها ، وهاك ما قالته إحداهن فى بعض جرائدهن بإيجاز وتلخيص :

«لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وقل الباحثون عن أسباب هذا البلاء ، وإنى لأنظر إليهن وقلبى ينفطر أسى وحزناً عليهن ، وماذا يفيد بثى وحزنى ، وإن شاركنى فيه الناس جميعاً ؟ لا فائدة إلا العمل على ما يمنع هذه الحال ، وهو كما رأى (تومس) إباحة التزوج بأكثر من واحدة ، وبهذه الوسيلة تصبح بناتنا ربات بيوت .

إذ لم يجر إلى هذا البلاء إلا إجبار الأوربى على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهو الذى جعل بناتنا شوارد ، وقذف بهن إلى أعمال الرجال ، ولابد أن يتفاقم الشر إذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة ، فأى ظن وحدس يحيط بعدد الرجال المتزوجين ، الذين هم أولاد من السفاح ، وقد أصبحوا عالة وعارا على المجتمع ، ولو أبيح التعدد لما حاق بأولئك الأولاد وبأمهاتهم ما هم فيه من عذاب ، ولسلم عرضهن وعرض أولادهن من فداحة الحال التى نراها الآن » .

ونشرت كاتبة أخرى (مس إنى رود) فى جريدة أخرى تقول :

لأن يشتغلن فى البيوت خوادم ، أو شبه خوادم خير لهن وللمجتمع من اشتغالهن فى المعامل ، حيث تلوث البنت بأدران الرذيلة التى تبقى لاصقة بها مدى حياتها . . ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين ، فيها الحشمة والعفاف والطهارة ، والخادم والرقيق ينعمان بأرغد عيش ، ويعاملان كما يعامل أولاد البيت ، ولا تمس الأعراض بسوء ، وإنه لعار على بلاد الانجليز ؛ أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل ، بكثرة مخالطتهن الرجال .

فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها ، وتقوم بأعمال البيت وتترك أعمال الرجل للرجال ، فذلك أضمن لعفافها ، وهو الكفيل بسعادتها . ا . هـ .

وصفوة القول :

أن تعدد الزوجات يخالف المودة والرحمة وسكون النفس إلى المرأة ، وهى أركان سعادة الحياة الزوجية ، فلا ينبغى لمسلم أن يقدم عليه إلا لضرورة ، مع الثقة بما أوجبه الله من العدل ، وليس وراء ذلك إلا ظلم المرء لنفسه وامرأته وولده وأمته .

ولقد راعى النبى ﷺ المصلحة فى اختيار كل زوجة من زوجاته ، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم ، وعلم أتباعه احترام النساء ، وإكرام كرائمهن ، والعدل بينهن ، وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين ، يعلمن نساءهم الأحكام الخاصة بالنساء ، مما ينبغى أن يعلمنه منهن ، لا من الرجال ، ولو كان قد ترك واحدة ما كان فيها الغناء ، كما لو ترك التسع .

وقصارى القول أنه عليه السلام ما أراد بتعدد الزوجات ما يريده الملوك والأمراء والمترفون ؛ من التمتع بالنساء ، إذ لو كان قد أراد ذلك لاختارهن من حسان الأبكار ، لا من الكهلات الثيبات ، كما قال لمن اختار ثيبا : «هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك» رواه الشيخان .

الربط بين الشرط والجواب :

فى قوله تعالى : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾ فى هذا النص الكريم حرف شرط هو «إن» وفعل شرط هو «خفتم» وجواب شرط هو «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» .

﴿ **فإن** ﴾ : أداة الشرط ، ﴿ **خفتم ألا تقسطوا** ﴾ : فعل الشرط ، ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾ : جواب الشرط ، فما هو الربط بين الخوف من عدم الإقساط والعدالة فى اليتامى وبين إباحة تعدد الزوجات .

لقد وردت للمفسرين آراء كثيرة فى شأن هذا الربط وقد اخترنا رأياً جديراً بالاعتبار ، ذكره فضيلة الشيخ محمد محمد المدنى[١] فى تفسير هذه الآية فقال رحمه الله[٢] : «يتلخص هذا الربط فى :

١ - أن العرب فى الجاهلية كانوا يستضعفون اليتامى والنساء وكان من مظاهر هذا الاستضعاف :
أنهم كانوا يحرمون الصبى والمرأة من الميراث .
وأنهم كانوا يطمعون فى أموالهم ، إذا كانت لهم أموال غير الميراث أيضاً ، فكانوا يخلطونها بأموالهم ، ويتبدلون رديئهم بالجيد منها إذا شاؤ وا ، ويميلون عليها فى أزماتهم ، ولا يتحرجون فى إنفاقها فى مصالحهم الخاصة .

وأنهم كانوا يعضلون[٣] النساء كلما وجدوا سبيلاً إلى ذلك ، كى ينتفعوا من هذا العضل ، فإذا ورث الرجل زوجة أبيه أو زوجة أخيه كان له أن يعضلها حتى تفتدى منه بمال تدفعه له ، وإذا كره زوجته التى معه علقها فلم يطلقها ولم يعاملها معاملة الزوجة ، وذلك حتى تفتدى منه بمال تدفعه له ، وإذا كانت تحت يده يتيمة عضلها عن الزواج حتى لا تفلت أموالها منه . . . هكذا .

٢ - وقد جاء الإسلام بإبطال ذلك كله ، وجعل لليتامى حقوقاً ، وارتفع بهم عن أن يكونوا فى المجتمع محلاً للاستضعاف فى صورة من الصور ، فلما أخذ المسلمون تلك الأحكام ، وشدد النكير على من يظلم اليتامى والنساء ، وأصبح هناك روح عام متغلغل فى المجتمع الإسلامى ؛ ذلك هو الخوف من مخالطة اليتامى ، لئلا يصيبهم الوعيد بالعذاب ، فجاء القرآن بالرخصة فى ذلك ، فـأباح لهم أن يخلطوا أموالهم بأموال اليتامى ؛ ماداموا لا يبتغون إلا الإصلاح ، وعرفهم بأن اليتامى ما هم إلا إخوتهم ، والأخ مُسَاوٍ لأخيه ، ويجب أن يكون بينهما كل مظاهر التعاون بين الأخوة ، فانتهت بذلك مشكلة الخلط حيث استجازوه بعد أن كانوا يتحرجون منه ، وبدت مشكلة أخرى هى : كيف يمكن أن يقوموا لليتامى بالقسط فى كل شىء ؟ .

---

(١) كان رحمه الله رئيسا لقسم الشريعة بكلية دار العلوم ، ثم عميدا لكلية الشريعة بجامعة الأزهر وأستاذا ورئيساً لأقسام الفقه بتلك الجامعة وتوفى رحمه الله فى عام ١٩٦٨ عائدا من الحج .

(٢) من كتابه : « المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء» من الصفحات ٢٦٩ - ٢٧٥ .

(٣) يعضلونهن عن الزواج رغبة فى الانتفاع بأموالهن .

٣ - ولذلك كان الرجل ربما تحرج من ولاية شئون اليتامى ، وقد يكون مضطرا فى سبيل رعايتهم إلى أن يداخلهم ، وفيهم فتيات أو يرى أمهاتهم الأيامى ، وهو يدخل عليهم ويخرج ، وذلك فيه من الحرج ما فيه ، حيث لا تؤمن الدواعى النفسية ، من رجل يدخل على أيم من النساء ، وعلى بناتها ، وله الحق بحكم وصايته أن يراهن ، ويتحدث إليهن ، ويجلس معهن ، فإذا أراد أن يبتعد عن ذلك ، وأن يصد عن نفسه عوامل الفتنة بالابتعاد ، أو بتقليل الزيارة ، والتصرف ، فإنه سيكون مقصرا غير قائم لليتامى بالقسط على الوجه الذى أمر الله به ، وعلى الوجه الذى يقتضى إصلاح أموالهم ، ومعرفة مشاكلهم وإصلاح أنفسهم بالمعروف .

٤ - فالأوصياء إذا كانوا بين نارين ، من هذين الواجبين : واجب القيام بالقسط لليتامى على وجهه الصحيح ، وهو يقتضى ملابستهم ومداخلتهم والجلوس إليهم ، وفيهم من هى صالحة للزواج ، وبينهم ـ فى كثير من الأحيان ـ أمهم نفسها تلك الأم التى مات عنها زوجها ، ولعل فيها بقية من شباب ، وصلاحية للزواج ـ ومن واجب آخر هو واجب الاعتصام والابتعاد عن الفتنة ، والمؤمن لا ينبغى أن يضع نفسه وضعا يكون فيه فاتنا أو مفتونا ، فما السبيل إلى الخلوص من هذا المأزق ؟

إنه هو الحكم الذى شرعته الآية ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ﴾ أى ألا تقوموا فيهم ـ وأقول فيهم لأنى أفهم أن الضمير لليتامى عامة ذكوراً وإناثاً ـ فإن خفتم ألا تقوموا فى شأنهم بالقسط تحرجاً من مداخلتهم ومجالستهم فى بيوتهم التى لا تخلو من يتيمات أو أيامى ، فالمخلص من ذلك هو : «تعدد الزوجات» .

إنه هو الذى يوجد فيه الحل لهذا الإشكال ، فقد أباح الله للرجل فى مثل هذا الظرف أن يكون له أكثر من واحدة ؛ إذا أمن الجور ، فليدخل الأوصياء من هذا الباب ، ومن كان منهم متزوجاً بواحدة ، فلا بأس عليه أن يضم إليها ما طاب له من النساء ، فيتزوج إحدى يتيماته ، أو يتزوج الأم نفسها ، وبذلك يصح دخوله هذا البيت دخولاً مأمون العاقبة ، فيجمع بذلك بين رعاية مصلحة اليتامى على الوجه المطلوب ، وبين وقاية نفسه ووقاية غيره من عوامل السوء والفتنة .

٥ - والآية الأخرى على هذا التفسير ، يبدو ارتباطها بهذه الآية ؛ وبغيرها من آيات إصلاح اليتامى واضحاً جلياً ، وذلك أنها تحدثنا عن سؤال المسلمين للنبى ﷺ فى النساء ، وعن بقايا تحرجهم من شئونهن ؛ كرغبة الولى فى يتيمته ، ومن عرف المجتمع فى عدم توريثهن ، أو توريث الولدان عامة ، فتقول : ﴿ ويستفتونك فى النساء ﴾ ثم تحيل على ما سبق تقريره فى الكتاب من أحكامهن وأحكام المستضعفين من الولدان ، وما أمروا به من القيام لليتامى عامة بالقسط ، كاملا دون عبث أو تهاون فى إقامته ، فتقول : ﴿ قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء ﴾ وانظر إلى قوله : ﴿ يتامى النساء ﴾ وكيف يشير إلى ما سبق من قوله ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ ثم تقول : ﴿ اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن ﴾ وذلك هو نصيبهن فى

الميراث ، فالتعبير بقوله ﴿ ما كتب لهن ﴾ لا يليق إلا بشيء مكتوب مقرر مفروض ، وقد وصف الله الأنصبة بقوله فى آية المواريث : ﴿ فريضة من الله ﴾ وقد بينا أنه إذا فسر ذلك بفرض الصداق فإنه لا يناسب لأنه لم يتم زواج حتى يقال صداق ، وكتاب مكتوب ثم تقول : ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ وهى الرغبة فى نكاح الأيم أو اليتيمة وهى المعبر عنها فى الآية السابقة بقوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم ﴾ أى أن إباحة التعدد ملاحظ فيها الرغبة ، وطيب المرأة فى نظر الراغب فيهـا ، إلى جانب الغرض الذى قدرناه وهو التمكن من أن يقام لليتامى بالقسط كاملا ، ثم تقول : ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ فتعطف المستضعفين من يتـامى الصبيان ؛ عـلى المستضعفين من يتـامى النساء ؛ لأن الولدان جمع وليد للصبى ، أما الأنثى فوليدة وجمعها ولائد ، وتختم بقوله تعالى : ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ أى لليتامى عامة بالقسط التام على ما أمر الله به فى مواضعه من الكتاب العزيز . ا . هـ .

تعدد زوجاته ﷺ

جاء فى كتابنا «حديث من القلب» بحث مستفيض عن الحكمة البالغة من تعدد زوجاته ﷺ وفى هذا البحث رد على المبطلين كتبناه تحت عنوان (دعوى باطلة) .

قلنا فى هذا الباب :

«نعم إنها دعوى ، لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها ، وباطلة لأنها جاءت بدافع الحقد والحسد على رسول الإسلام ـ ﷺ ـ ، ونبعت من قلوب تفرز البغضاء ، كما يفرز الكبد عصارة الصفـراء ، لذلـك رأينا ـ ونحن نتكلم عن زواج المصطفى ـ ﷺ ـ بالسيدة خديجة رضى الله عنها ، أن نعقب بهذا البحث لنلجم ألسنة الحاسدين الحاقدين ، الذين يحاولون أن يثيروا غبار الشبهات الباطلة ، على التعدد فى أزواج رسول الله ـ ﷺ ـ وهم بذلك يفضحون ما فى قلوبهم من زيغ ، فلو تحول الناس جميعاً إلى كناسين ، ليثيروا التراب على السماء ، فسيثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السِّن بسامة المحيا .

ما ضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة   أن لا يرى نورهـا من ليس ذا بصر

نعم يا أعداء الله من المستشرقين ، ومن لف لفهم من المستغربين وأدعياء الثقافـة ، وأبناء الغـزو الثقافى ، إن الرسول لن يضيره أن تنبح عليه هذه الأصوات ، فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .

ومـا ضـر الـورود ومـا عـليهـا   إذا المـزكـوم لم يـطعم شـذاهـا

نعم ثم نعم .

هل عرفتم من هو ذلك الذى تحاولون أن توجهوا إليه هذه السهام الطائشة ؟ إنه الرجل الذى بعثه الله ﴿ شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1] .

---

(١) من الآيتين : ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

مـا يضـر البحـر أمسى زاخـراً أن رمـى فيـه غـلام بـحـجـر

وها نحن أولاء نسلط مدفعية الإسلام الثقيلة على هذه المواقع ، فنأتى عليها جميعـاً فنذرهـا قاعـاً صفصفاً .

إن قصة زواجه ـ ﷺ ـ من خديجة رضى الله عنها ، كما سنذكر توضح للإنسان وضوحاً لا تلتبس معه الرؤية ؛ أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يكن فى اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها ، فلو كان مهتماً بذلك ـ كبقية أقرانه من الشبان ـ لطمع فيمن هى أقل منها سناً ، أو فيمن ليست أكبر منه على أقل تقدير ، ولقد ظل هذا الزواج قائماً ؛ حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً ، وقد ناهز النبى ﷺ الخمسين من العمر ؛ دون أن يفكر خلالها فى الزواج بأية امرأة أخرى .

وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان ؛ هو الزمن الـذى تتحرك فيـه رغبة الاستـزادة من النساء ، والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية ، ولكنه ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر ، دون أن يفكر ـ كما قلنا ـ بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث : زوجة أو أمة ، ولو شاء لوجد الزوجة ، وكثيراً من الإماء ، دون أن يخرق بذلك عرفاً ، أو يخرج على مألوف أو عرف الناس يومئذ ؛ هذا فضلاً عن أنه تزوج خديجة وهى أيم ، وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره .

وفى هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه ، من المبشرين والمستشرقين ، وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ، ينعقون بما لا يسمعون ﴿ إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[1] .

إنهم يهرفون[2] بما لا يعرفون ، يحاولون أن يطاولوا السماء ، وأن يمدوا إلى الشمس يداً شلّاء .

إنهم يمضغون الهواء ويفتلون من الرمال حبالا : لقد ظنوا أنهم واجدون فى موضوع زواج النبى ﷺ مقتلا يصاب به الإسلام ، ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى ﷺ ، وتخيلوا أن بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذة الجسد ، العازف فى معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

حاشا يا رسول الله !! والله ما علمنا عليك من سوء ، إنها فرية ما فيها مرية ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[3] .

---

(١) من الآية : ١٧١ من سورة البقرة .

(٢) يهرف يقول كلاما قيل قبله دون فهم أو إدراك كالببغاء .

(٣) من الآية : ٥ من سورة الكهف .

علمتنا سر الحياة وقدتنا	للخير والتوفيق والبركات
جنبتنا الزلل الكبير وصنتنا	من شهوة تطغى ومن نزوات
إن شرق القوم الكبار وغربوا	فإليك حتما منتهى الخطوات
ضلت علومهم برغم نبوغهم	وتعرضوا لمهالك خطرات
وتنكبوا سبل السلام وأقبلوا	يتشدقون بأجوف الكلمات
لو أحسنوا فهم السلام لأسلموا	ما غير دينك سُلَّم لنجاة

ما ثمة أدنى شك فى أن المستشرقين والمبشرين ؛ هم الخصوم المحترفون للإسلام ، يتخذون القدح فى هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها كما هو معلوم .

أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم ، فأكثرهم يخاصمون الإسلام على السماع والتقليد ، ولا يعنيهم أن يفتحوا أذهانهم لبحث أو فهم ، إنما هو هواية التقليد والاتباع ، فخصامهم للإسلام ليس إلا نوعاً من الشارة التى قد يعلقها الرجل على صدره ، لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماؤه لجهة معينة ، ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز ، فخصومة هؤلاء للإسلام ليست سوى الرمز الذى يعلنون به عن هويتهم بين الناس .

إنهم ليسوا من هذا التاريخ الإسلامى فى شىء ، وإن ولاءهم إنما هو لهذا الفكر الاستعمارى ، الذى يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكرى ، من مبشرين ومستشرقين ، فهذا هو اختيارهم من قبل أى بحث ، ودون محاولة أى فهم .

أجل إن مخاصمتهم للإسلام ليست إلا مجرد شارة يَسِمُون بها أنفسهم بين قومهم ، وبنى جلدتهم ، وليست عملاً فكرياً بقصد البحث أو الحجاج وإلا فموضوع زواج النبى ﷺ ، من أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماماً .

يريدون أن يلصقوا به ﷺ ، صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد .

وموضوع زواجه ﷺ ، هو وحده الدليل الكافى على عكس ذلك تماماً .

فالرجل الشهوانى لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر فى بيئة مثل بيئة العرب فى جاهليتها ، عفيف النفس دون أن ينساق فى شىء من التيارات الفاسدة التى تموج من حوله ، والرجل الشهوانى لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب ضعف عمره[1] ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه إلى شىء مما

---

(١) كانت خديجة رضى الله عنها ــ عندما تزوجها الرسول ﷺ ــ فى الخامسة والأربعين من عمرها ، بينما كان النبى ﷺ فى الخامسة والعشرين على بعض الروايات ، والأربعين على روايات أخرى .

حوله ، وإن من حوله كثيراً ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل ، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ويدخل فى مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة رضى الله عنها ثم من غيرها ، فإن لكل منهن قصة ، ولكل زواج حكمة وسببا ، يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ، ورفعة شأنه وكمال أخلاقه ، أيا كانت الحكمة والسبب ، فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة للرغبة الجنسية ، إذ لو كان كذلك لكان أحرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية فى الوقت الطبيعى لهذه الرغبة وندائها ، خصوصاً وقد كان إذ ذاك خالى الفكر ، ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجته الفطرية والطبيعية .

عناية الله به فى شبابه :

لقد أحاطه الله بعنايته ، وحماه برعايته ، فحفظه عن التلبس بما تنبو عنه الأذواق السليمة ، وتنفر منه الطباع المستقيمة ، فكان ﷺ فى شبابه نظيف السمع والبصر والقلب والثياب واليدين والقدمين .

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه[1] :

(ما هممت بشىء مما كانوا فى الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله بالرسالة ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال أفعل : فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة ؛ سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس ، فجلست أسمع ؛ فضرب الله على أذنى ، فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس ، فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ثم ما هممت بعده بسوء) .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا من لحضرته الشفاعة واللوا والحوض قد أعطاكها المنان
لولا كتابك فى البرية لم يقم للحق قسطاس ولا ميزان
فلك التحيات الزكيات العلى ما هيئت للعاملين جنان

تجارته فى مال خديجة :

يروى ابن الأثير وابن هشام : أن السيدة خديجة كانت تاجرة ، وكانت ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم[2] إياه بشىء تجعله لهم منه ، فلما بلغها عن رسول الله ـ ﷺ ـ صدق الحديث

---

(١) رواه ابن الاثير والحاكم عن على بن أبى طالب ، وقال عنه صحيح على شرط مسلم ورواه الطبرانى عن حديث عمار بن ياسر .

(٢) المضاربة لون من المشاركة التى يقبلها الاسلام ، يشارك صاحب المال بماله ، والشخص أو الشريك الثانى بعمله ، ويتفق الشريكان على قسمة الأرباح ، ونسبة كل منهما والحجازيون يسمون المضاربة «قراضا» .

وعظمة الأمانة وكرم الأخلاق ؛ أرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، ومعه غلامها ميسرة ، وقد قبل محمد بن عبد الله ﷺ هذا العرض ، فرحل إلى الشام عاملاً فى مالها ومعه ميسرة فحالفه التوفيق فى هذه الرحلة أكثر من غيره ، وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه فى أمانة تامة ونبل عظيم .

شهادة ميسرة له :

وجد ميسرة من خصائص النبى ﷺ وعظيم أخلاقه ؛ ما ملأ قلبه دهشة له وإعجاباً به .

رأى الصدق فى صورته الحقيقية ، ورأى الأمانة مجسمة فى معاملته ، رآه سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى[1] ، سمحاً إذا اقتضى[2] ، رأى فيه الأمانة فى أسمى معانيها ، وقد صدق أبو حامد الغزالى ــ رحمه الله تعالى ــ إذ يقول : إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر ، ورفقاؤه فى السفر ، ومعاملوه فى الأسواق ، فلا تشكوا فى دينه .

نعم ، ليس الإسلام خطباً رنانة ، ولا عبارات طنانة ، ولا فلسفات عقيمة ، إن الإسلام فى حقيقته عقيدة وعمل ، وقد صدق الرسول ﷺ إذ يقول : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3] أدلى ميسرة بهذه الشهادة ، وإنها لشهادة حق ، وما زاد ميسرة على الحقيقة شيئاً ، فأنت يا رسول الله أهل لذلك ، وأكثر من ذلك :

القول فيك معطر الكلمات ... يا صاحب الأخلاق والآيات
أيام مولدك الكريم مضيئة ... فى كل ماض فى الزمان وآت
يوم أتى بك فى الوجود فإنه ... تاج الزمان وغرة السنوات
تتعاقب الأيام فى دورانها ... وترد كل جديده لموات
وضياك يسطع كل يوم نوره ... ويزيد فى الإشراق والنفحات

قصة زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها

أدلى ميسرة بهذه الشهادة البريئة إلى السيدة خديجة ، فوجدت فى نفسها قلباً طهوراً طيباً ، فتمكنت من القلب كل تمكن ، لقد أعجبت بصدقه وأمانته ، وكفى بهما ، إنه رأس مال ضخم ، ورصيد لا يلحق به ، ولا يشق له غبار ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، وكل أمة تتصف بالصدق والأمانة ، فالسعد رائدها ،

---

(١) أدى ما عليه لغيره .
(٢) إذا طلب ماله عند غيره .
(٣) متفق عليه .

والتوفيق حليفها ، ويلبسها الله لباس العز والشرف ، وكل أمة تتصف بالكذب والخيانة ؛ فالذل رائدها ، والخذلان حليفها ، ويذيقها ﴿ الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾[١] .

لقد نال خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين ، فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبه ، تخطبه لنفسها ، ورأى الرسول ﷺ فى خديجة سيدة ذات خلق كريم ، وعقل راجح ، رغم فارق السن بينه وبينها كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة ، وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة إلا قليلا ولم ينظر إلى مالها ولا إلى جمالها[٢] ولا إلى حسبها ، وإنما نظر إلى عقلها وخلقها ، وهكذا عظماء الرجال .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظائم

كلم الرسول ﷺ أعمامه فوافقوا على هذا الزواج ، فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد ، فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك .

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين ، الأول : منهما (عتيق بن عائد التميمى) ثم خلفه عليها (أبو هالة التميمى) ، واسمه (هند بن زرارة) وبعد موتهما ، طرق كثير من الرجال بابها ، لتكون لهم زوجاً ، فلم تفتح لهم بابها لأنها رأت فيهم طلاب مال خديجة ، حتى إذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة .

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام ، ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط ، كسماسرة الأسواق ، لكنها رأت فى محمد ﷺ الإنسان الصادق الأمين ، فخطبته لنفسها ورأى فيها محمد ﷺ السيدة العفيفة الطاهرة فرضيها زوجاً .

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقى خطبة الزواج ، وقف يقول :

«الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتا محجوجاً وبلداً حراماً ، وجعلنا الحكام على الناس ، أما بعد : فإن محمد بن عبد الله ــ ابن أخى ــ لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به براً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن كان فى المال كلا ، فالمال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وإن لمحمد رغبة فى خديجة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما طلبتم من الصداق فعلىَّ» .

يقول بعض المحققين الباحثين فى الرد على هذه الفرية[٣] ما نصه :

«لقد طعن كثير من سفلة البشر ، ومن أراذل المحترفين لمهنة التبشير ، فى محمد عليه الصلاة والسلام واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه بها ومنقصة يلصقونها به ، وقالوا إنه رجل شهوانى يميل إلى النساء .

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[٤] .

---

(١) من الآية : ١١٢ من سورة النحل .
(٢) وقد كانت ذات جمال ومال وحسب .
(٣) فرية أنه مزواج شهوانى حاشاه ﷺ .
(٤) من الآية : ٥ من سورة الكهف .

فى حين أن زواجه ﷺ ، يسمو بإنسانيته إلى الحد الذى لا يجاريه فيها إنسان ، ولا يباريه فيها بشر .

فلو أراد أن يضم فى بيته كرائم العقائل ونفائس الخرائد[١] لكان له ما يريد ، من أسمى بيوت العرب ، وأجمل الجوارى من سبايا فارس والروم يرفلن فى حلل الدمقس[٢] ، ويتحلين بأفخر الجواهر ، ولكان سماطه[٣] كسماط قيصر وكسرى .

كيف لا ؟ وقد كانت تحمل إليه الأموال ، حتى يضيق بها مسجده فلا يقوم وفى كفه منها شىء ، وما شبع هو وآله من خبز الشعير ، وحاله من الغنى والجاه ما قدمناه وما وصفناه .

ولم يضم فى حريمه سوى المغتربات المكتهلات ؛ التى مات عنها زوجها فلم تجد مأوى ، والتى عز عليها العيش فى كنف غيره من الأزواج ، ولم تكن بينهن من فتاة عذراء سوى واحدة هى عائشة ، ابنة رفيقه وصديقه أبى بكر الصديق رضى الله عنه ﴿ ثانى اثنين إذ هما فى الغار ﴾[٤] وعندما بلغت قسوة الحياة منتهاها ، وجاوزت الشدة مداها ، نزلت آية التخيير ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾[٥] .

وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق إلى حسن الاختيار ، واخترن دار القرار ، وقلن جميعاً : بل نريد الله ورسوله والدار الآخرة ، فتمت لهن بذلك السعادة ، ونلن الحسنى وزيادة .

وقد تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة خديجة رضى الله عنها ؛ ولها أربعون سنة ، وهو ابن خمس وعشرين ، ولم يدفعه لزواجها سوى أنها خطبته لنفسها ، وكانت من أعف النساء ، وأعرقهن نسباً وحسباً ، ولها بعد ذلك فضل السابقة فى الإسلام ، فلم يتقدمها إليه رجل ولا امرأة ، وماتت وسنها خمس وستون سنة ، وكانت مدة مقامها معه ﷺ خمساً وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

ولم يكن وفاؤه لخديجة رضى الله عنها ؛ وفاء المتعة والحس ، بل وفاء الروح والنفس ، فلقد فضلها بعد ذلك على عائشة ، وهى أصغر زوجاته وأحبهن إليه[٦] .

فترى من هذا أنه ﷺ قضى عنفوان شبابه وزهرة حياته مع خديجة ، ولم يتزوج عليها ، وإنما تزوجها لعفافها . وعقلها وطهرها ، ومعاونتها له ومناصرتها إياه . .

---

(١) الخريدة : الفريدة التى لا يوازيها شىء .
(٢) الدمقس الحرير الدمشقى الذى لا يقارن بغيره .
(٣) السماط : بساط يمد للطعام ، ويطلق على الموائد والولائم .
(٤) من الآية : ٤٠ من سورة التوبة .
(٥) الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب .
(٦) جاء فى الصحيحين ، عن عائشة رضى الله عنها : قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها ، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها ، واستأذنت عليه أختها فارتاح لها ، ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان .

وروى عنها أنها قالت له ﷺ مرة : هل كانت إلا عجوزا ، بدلك الله خيرا منها ، فقال عليه الصلاة والسلام : «لا والله ما أبدلنى خيرا منها . . آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء» .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة سودة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة رضى الله عنها ، وكانت زوجاً للسكران بن عمرو ، وكان قد أسلم قديماً وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، ومات حين قدما مكة ، ولو عادت إلى أهلها بعد موت زوجها ـ لعذبوها وفتنوها فى دينها فكفلها ﷺ ، وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ، وكانت مسنة ، ولم يكن معه غيرها ، ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة رضى الله عنها فى السنة الأولى من الهجرة .

فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيراً من زوجها الذى مات معها حريصاً على إيمانه ، فاراً بعقيدته وتألفاً لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ، ونالوا صحبته ﷺ .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة عائشة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكلنا يعلم من هو أبو بكر الصديق الذى كان معه **﴿ ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾**[١] ولم يتزوج بكراً غيرها .

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة ، علمت أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما ، وقد كانت رضى الله عنها واسطة فى نقل شتى الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الإسلامية ، خصوصاً ما يتعلق منها بالنساء ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة حفصة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وكانت زوجاً لخنيس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته ببدر ، فتزوجها ﷺ مكافأة لها ، وحباً فى أبيها الذى سره كل سرور هذا النسب الشريف ورغبة فى إيوائها وتعويضها عن فقد زوجها ؛ الذى قتل فى سبيل الله ، وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته ، وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير ، ويعلى من قدره ، ويجعله أهلاً لمصاهرة بنى هاشم ، مصداقاً لقوله تعالى : **﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾**[٢] وقد تزوجها ﷺ بعد طلاقها من زيد ، بوحى من الله تعالى لتشريع : **﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ﴾**[٣] . وقد كان زواجه بها إعفاء لها من

---

(١) من الآية : ٤٠ من سورة التوبة .
(٢) من الآية : ١٣ من سورة الحجرات .
(٣) من الآية : ٣٧ من سورة الأحزاب .

إهمال يصيبها بعد طلاق يذلها فيقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار ، فما بالك بمطلقات الأرقاء . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة :

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة ، وكانت زوجاً لعبد الله بن جحش رضى الله عنهما ، فقتل عنها يوم أحد ، فتزوجها ﷺ إيواء لها وجبراً لمصابها فى زوجها ، وحفظاً لدينها . . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة أم سلمة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة أم سلمة «هند بنت أبى أمية» وكانت زوجاً لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد ، وكانا أسلما قديماً وهاجرا إلى الحبشة ، ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة ، فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد ، فتزوجها ﷺ ، ويروى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع ويقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيراً منها إلا أخلفه الله خيراً منها» فلما مات أبو سلمة تذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام وقالت فى نفسها : ومن خير من أبى سلمة ؟ ! رجل نال الصحبة وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، ولكنها استرجعت وقالتها ، فأخلف الله تعالى لها رسول الله ﷺ ، فآواها وحفظها . فترى من هذا ؛ أنه ﷺ تزوجها ليعوضها خيراً من زوجها الذى فقدته ، وكانت كثيرة الأولاد فآواها وآوى أولادها ، وقام بشئونها جزاءً لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة أم حبيبة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ، وكانت زوجاً لعبيد الله بن جحش ، وقد هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها ومات بالحبشة ، وثبتت هى على إسلامها ، وأبت أن تتنصر معه وخالفته واختارت الإسلام عليه ، فأتم الله لها الإسلام والهجرة والصحبة ، وأكمل لها الشرف لزواجها من رسول الله ﷺ .

ويروى أن أباها أبا سفيان قدم المدينة فدخل عليها فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت امرؤ نجس . فقال : لقد أصابك بعدى شر قالت : بل خير .

وقد خطبها ﷺ من ملك الحبشة ، حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها[١] :

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة ، وقد تزوجها إيواء لها وتألفاً لقومها ، وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها منهم : ابن أختها سيف الإسلام خالد بن الوليد فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار ، وكانت زوجاً لمسافع بن صفوان المصطلقى[٢] ، وقد قتل كافراً يوم المريسيع[٣] وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق ، وكانت سيدة بنى المصطلق ، وبنت سيدهم ، فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها ، فلما سمع المسلمون بذلك أعتقوا ما فى أيديهم من سبى بنى المصطلق . وقالوا : هم أصهار رسول الله ﷺ ، فأسلم بسببها بنو المصطلق عن بكرة أبيهم ، وحسن إسلامهم .

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها وقد أنقذها من الأسر وأعتقها من الرق وأعزها من الذل .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير ، قتل أبوها مع بنى قريظة ، وكانت زوجاً لسلام بن مشكم القرظى ، ثم فارقها ، فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق ، وقتل عنها يوم خيبر[٤] ، فأخذت رضى الله تعالى عنها فى السبى فخيرت بين العودة إلى قومها وزواجها بالرسول ﷺ فاختارت الخيرة ، فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى إسلام قومها من اليهود ، وقد أسلم كثير منهم .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!.

حكمة راشدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ﷺ لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ومقاصد أخروية ؛ لاتمت إلى الشهوة بسبب ، ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة . هذا ما عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم ؛

---

(١) ذكرنا فى الهامش ٢ ـــ عند تفسير قوله تعالى : ﴿إن فى خلق السموات . . ﴾ الآيات أن رسول الله ﷺ تزوجها فور رجوعه من الحديبية بقرية «سرف» وكانت أختها أم الفضل زوجة لعمه العباس رضى الله عنه .

(٢) من بنى المصطلق .

(٣) من غزوات الرسول ﷺ وكانت مع بنى المصطلق ، وكانت فى السنة السادسة من الهجرة ، وقالت عائشة رضى الله عنها «فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها» .

(٤) كانت غزوة خيبر فى صفر من السنة السابعة من الهجرة .

وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء ؛ والتى لا يستطيع تبليغها الرجال ؛ كالطهارة والغسل والحيض والنفاس ، والولادة والرضاع ، إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها للنساء على وجهها الأكمل سوى النساء .

ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين . على اختلاف طبقاتهم ـ فى ذلك الحين امرأة واحدة ، بل عدة نساء من عدة قبائل ، وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من إظهار نوره ، وبسط شرائعه ، وقد ثبت أنهن أذعن عنه ﷺ علماً وفضلاً وفقها ، ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريده سائر الملوك والأمراء ، من التمتع واللذة ليس غير ، لانتخب الحسان الأبكار ، والكواعب الأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات .

فهل يأتى بعد هذا مبشر غِرٌّ سمج عتل زنيم ؛ ويقول عنه ﷺ ، إنه شهوانى يميل إلى النساء فى حين أن فى دياناتهم ومعتقداتهم ما تتنزه ألسنتنا عن ذكره ، وأقلامنا عن تدوينه ؟ فسبحان من هدانا لدين الحق ، ودين النورِ دِينِ الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، وفضلا عن ذلك فلم تكن علاقاته ـ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ـ بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا ، وبأى زوجة مهما علت !

فقد عاشرهن السنين الطوال ، فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية ، بل الكلمة الرقيقة ، ولم تبد على سماته النظرة القاسية ، بل النظرة الحانية .

وما من رجل بلغ ما بلغ مَن المروءة والرقة وسعة الصدر ، إلا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعة ما ، وبدا منه التذمر والتضجر بأزاء تصرف ما ، وبدرت منه بوادر الشر ، ونذر السوء حيال عمل ما ، ولكن الرسول ﷺ ، الذى أوتى جماع الفضائل ، وبعث ليتمم مكارم الأخلاق ، الرسول الذى أرسل من البشر ، ليعلى من أقدار البشر ، ويرفع من شأنهم ، ويسمو بنوعهم ، لم يكن كذلك ، ولم يكن هذا منه عليه الصلاة والسلام ترددا أو ضعفاً ، بل كان كمالاً وجلالاً ، فإن الضعف الاختيارى : أقوى من سائر القوى وأكمل من سائر الكمالات ، وهو خير مقياس للعظمة الإنسانية فى أجمل صورها وأرفع مراتبها .

فإن من يقهر نفسه باختياره ليترفق بضعيف لا طاقة له باحتمال القهر ، ولا غنى له عن طلب اللين والرفق ، فهو الشجاع الباسل القوى .

وننتقل بعد ذلك إلى موقف آخر يتعلق بزواج الرسول ﷺ وهو قصة التخيير فما هى تلك القصة .

قصة التخيير

﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾(١) .

إن رسول الله ﷺ لم يرد الحياة متعة فانية ، ولا زخارف براقة ، لأن قلبه كان مليئاً بالقناعة والرضا ، والإيمان والحكمة ، لقد خيره الله بين أن يكون نبياً عبداً ، أو نبياً ملكاً ، فاختار أن يكون نبياً عبداً ، وقال فى ذلك (أجوع يوماً فأذكرك ، وأشبع يوماً فأشكرك) ورفض الحياة فى زخارفها ومباهجها ومفاتنها ، ولو أرادها مملكة ونعيماً وخدماً وحشماً وترفاً لكان له ذلك .

وراودتــه الجبــال الشم من ذهــب ... عن نفســه ، فــآراهــا أيمــا شمم
وأكــدت زهـده فيهــا ضــرورتــه ... إن الضـرورة لا تعـدو عـلى العصم
وكيف يـدرك فى الـدنيـا حقيقتـه ... قــوم نيــام ، تسلوا عنــه بــالحلم

أيقال على هذا النبى ﷺ إنه كان غارقاً فى ملذات الحياة ، وكان شهوانيا إلى النساء ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

إن حياة هذا النبى ﷺ هى كما أخبرت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : « إن كنا لنمكث الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة بشهرين ولم يوقد فى بيت رسول الله نار يطبخ عليها »(٢)

أعلمت كيف كانت حياة هذا الرسول ﷺ فى بيته ؟

كان طعامهم فى معظم الأحيان التمر والماء ، ومع ذلك كانت العيشة راضية لا تسمع فيها لاغية ، إن السعادة مملكة قائمة بالنفس ما صورها السيد الجليل محمد ﷺ فى هذه الكلمات « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » (٣) .

ليست السعادة فى إنتشاء الكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد(٤) ، إنما السعادة فى رضاك عن الله ، وفى رضا الله عنك ، وفى تزكية النفس وإشراق العقل ، وانتصار الذهن ، واستعلاء النفس على مطالب المادة ، وسيطرة القيم والمبادىء التى تحقق فى الإنسان إنسانيته .

---

(١) الأيتان : ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب .

(٢) من حديث رواه الشيخان عن عروة بن الزبير .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) الناعمات ، والأملود واحدة الأماليد .

كيف يقال على هذا النبى إنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية ، وهو الذى كان يمكث فى بيته شهرين ، ولم توقد فى بيته نار يطبخ عليها ؟ لله درك يارسول الله .

الحق أنت وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيْرك يلقها تيها من الأهوال والظلمات

إن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بهاتين الآيتين ، فى أمر عرض له من أزواجه ، عندما طلبن منه زينة الحياة الدنيا .

فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية ، وشهوة نسائية ؛ لوفر لهن هذه وأكثر منها ، كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ، ولكن ماذا حدث ؟

اسمع إلى العلامة ابن كثير : يفسر هذا المشهد القرآنى ، بما تيسر من التقدير . يقول رحمه الله تعالى :

« هذا أمر من الله تبارك وتعالى : لرسوله ﷺ ، أن يخير نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ـ رضى الله عنهن وأرضاهن ـ الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة » .

قال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهرى ، قال : أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن : أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ أخبرته : أن رسول الله ﷺ ؛ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه ، قالت : فبدأ بى رسول الله ﷺ ، فقال : « إنى ذاكر لك أمراً ، فلا عليك أن لا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك » وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه ، قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك ﴾ إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففى أى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة » .

وروى الإمام أحمد قال : حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن أبى الزبير ، عن جابر رضى الله عنه ، قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ ، والناس ببابه جلوس ، والنبى ﷺ جالس ، فلم يؤذن له ؛ ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن ، فلم يؤذن له ! ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا ، والنبى ﷺ جالس ؛ وحوله نساؤه ، وهو ﷺ ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله ؛ لو رأيت ابنة زيد (امرأة عمر) سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها ؟ فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال : « هن حولى يسألننى النفقة » فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ ماليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله ﷺ ، فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال : وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها ،

فقال : (إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت وما هو ؟ قال : فتلا عليها ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك ﴾ . . الآية ! قالت عائشة رضى الله عنه : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال ﷺ (إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها) . . انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى .

أرأيت ياأخا الإسلام لم كان التخيير وفيما كان ؟

لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرن بين الحياة الدنيا وزينتها والتسريح الجميل ، وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى : ﴿ أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ﴾ أى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

لو كان هذا الإنسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعة وصاحب رغبة شهوانية ، هل كان يمانع فى أنه يأتى لهن بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة ؟

سبحانك ربى لقد بعثته أسوة حسنة ، وقدوة طيبة .

إن هذا البيت ـ بيت النبوة ، لقد قال الله تعالى لنساء هذا البيت : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾[1] بيت يهبط فيه الأمين جبريل ، ورفقاؤه من كبار الملائكة ، بيت يتلقى الوحى من رب السماء ، بيت قرآنى يفوح منه أريج القرآن عطراً وريحاناً ، إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[2] .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيد الكون فى ذكراك تذكرة — وفى رحابك يسمو نظم أشعارى
من أنقذ الكون من شركٍ يدنسه — وخلص الناس من تأليه أحجار
من نظم العرب من فوضى ومهزلة — وطهر الأرض من رجس وأوضار
من لقن الناس أخلاقاً مهذبة — وشاد للناس ديناً غير منهار
من حرر العبد من رق يكبله — وحرر العقل من سخف بأفكار
من علم الكون قرآناً يرتله — فتنصت الجن إعجاباً بتذكار

(١) الآية : ٣٤ من سورة الأحزاب .
(٢) من الآية : ٣٣ من سورة الأحزاب .

بحث قيم :

جاء فى كتاب الإسلام والعصر الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل بحث قيم فى زواج الرسول ﷺ ، وقد آثرنا أن نثبته ونحن بصدد الكلام عن هذا الموضوع . وها هو ذا نسوقه بنصه قال المؤلف :

« لم تظهر حكمة زواج الرسول ﷺ بمن تزوجهن ؛ إلا عندما اتسع أفق الفكر فى العصر الحديث ، فإذا استعرضنا زواج النبى ﷺ نجد أن كل زواج إنما كان يحقق غرضاً سامياً ، أو كسباً للدين ، أو عملاً بتشريع جديد ، وأن الرسول الأمين كان بعيداً كل البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوة أو مغنم » .

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد ، كانت تزوجت عتيقاً المخزومى ، ولما مات تزوجت أبا هالة التميمى ، فمات أيضاً ، بذلك ورثت عنهما مالا وفيراً ، علاوة على ما كانت تملكه ، وقد كانت ذات شهرة كبيرة بين قومها ، لما امتازت به من جاه وحسب ونسب ، علاوة على مالها ، مما جعلها مقصد القاصدين للزواج من كبار القوم ، وأشراف قريش .

ولكنها كانت ترد كل طالب ، فقد كانت عازفة عن الزواج ، وكانت ترسل الرجال على تجارتها ، فأرسلت نبى الله ﷺ ليشرف على هذه التجارة ، لما سمعت عنه من أمانة واستقامة ، وعادت القافلة وقد حققت أرباحاً لم تعهدها ، ورواجاً لم تكن تتوقعه ، فلما سألت غلامها ميسرة - الذى صاحب الرسول ﷺ - روى لها رقة شمائل محمد ﷺ وجمال نفسه ، وصفاء قلبه وطهارة سريرته ، وحدثها عما شاهده من أمانته المطلقة ونزاهته وعفته ، فأرسلت له صديقتها (نفيسة بنت منبه) تقترح عليه أن يتزوجها ، وتزوجها الرسول ﷺ وهو شاب فى ريعان شبابه إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، فى حين كانت السيدة خديجة قد بلغت الأربعين من عمرها .

فهل كان سيدنا محمد ﷺ رجل متعة ؟ وهل كان كما يقول عنه أعداء الإسلام مشغوفاً بالنساء ؟

وها هو ذا يتزوج من سيدة تزوجت قبله مرتين وتكبره بخمسة عشر عاماً ! لقد شدت خديجة أزر الرسول برجالها وعصبتها ، حتى إنه عندما جاءه الوحى وخشى منه ؛ سألت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل ، الذى كان أول من بشر بنبوته وشجعه على إعلان الدعوة ؛ حيث قال له ، وقد قابله فى طواف بالكعبة « والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتُكَذَّبَنَّ ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » ثم قبله وشجع ذلك النبى على أن يدعو قريشاً ؛ فيعلن لهم دعوة الله .

كما أن السيدة خديجة شاركت الرسول - ﷺ - فى جهاده ، فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له ، وتدفعه إلى النضال والصبر ، وعاشت معه خمسة وعشرين عاماً أمضت منها خمس سنوات فى جهاد الدعوة تقاسمه ما يلقى من عنت وشدة حتى لقيت ربها ، ولها من العمر خمس وستون سنة .

وبعد موت خديجة ازدادت قريش فى أذاها للنبى ﷺ ، فخرج إلى الطائف يدعو إلى الإسلام ، فوجد من ثقيف التكذيب والإعراض .

وبعد عام من جهاده ، عاد إلى بيته بمكة فوجده قفراً ، فلما أحس المسلمون بما شعر الرسول - ﷺ - به من وحشة ، أوعزوا إلى خولة بنت حكيم[1] حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه وتقضى حاجة بيته وتقوم على شأنه ، فعرضت العذراء عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، أو سودة بنت زمعة التى آمنت به وأسلمت وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها الذى مات وتركها وحيدة ، فقبل الرسول العزيز الزواج من الأخيرة التى كانت كبيرة السن ضامرة الجسد ، ليس فيها مشتهى للرجال ولكنها كانت مؤمنة مجاهدة من الصابرات .

هذا هو زواج الرسول إذ أن ما تم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى إلى تحقيق هدف أو كسب للدين ، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ما جد بعد ذلك من زواج .

فالمشاهد فى العصر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولون أن يرتبطوا مع وزرائهم وقوادهم برباط المصاهرة ، بل إن قادة الأمم المختلفة يجعلون المصاهرة بينهم من وسائل التقريب بين الأمم بعضها ببعض ، وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم لتحقيقها لربط المسلمين الأول بعضهم ببعض ، وتزوج الرسول ﷺ بعائشة بنت وزيره الأول أبى بكر ، ثم تزوج بحفصة بنت عمر عندما مات زوجها ، ولهذا السبب نفسه زوج الرسول بنته رقية لعثمان بن عفان ، فلما ماتت زوجه بعدها أختها أم كلثوم ، كما زوج ابنته فاطمة لعلى بن أبى طالب .

وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمداً ﷺ برجاله الأوائل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، أقوى الرجال فى الإسلام ، وأول من أسلموا وهناك هدف آخر هدف إليه الرسول - ﷺ - بزواجه ؛ فقد كان من عادة العرب إذا مات الرجل ذهب إخوانه وأصدقاؤه إلى أرملته يواسونها ويعرض أقربهم إلى زوجها مرتبة أن يتزوجها إكراماً لزوجها وذلك للإشراف على شئون بيته .

وقد أبلى من المسلمين فى الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به فى سبيل الله ورسوله ، ومن هؤلاء المسلمين من لقى حتفه فى سبيل دين الله ، فتزوج الرسول ﷺ من بعض نساء شهداء المسلمين ، ممن تحدث التاريخ عن جليل أعمالهم ، ولم يجدن أزواجاً لهن ، إما لكبر سنهن ، أو لكثرة أولادهن ، فزاد ذلك من تعلق المسلمين برسولهم ﷺ ، ورفع من روحهم المعنوية ، وأصبح المسلم يعرف أنه لو قتل فى سبيل الله ؛ لم يعدم رجلا يشرف على بيته ، ولم يعدم أبا يحنو على أولاده ، ولو لم يجد من المسلمين لوجد نبى الله نفسه ﷺ بل حبب ذلك الإسلام لغير المسلمين فأسلموا ، ولذلك تزوج الرسول ﷺ من زينب - أم المساكين - زوجة عبد الله بن جحش - أحد أمراء جيش المسلمين الذى قتل فى وقعه أحد ، وكان على رأس أول سرية خرجت للغزو فى الإسلام ، كما تزوج للسبب نفسه هنداً أم سلمة ، زوجة أبى سلمة أحد مهاجرى المسلمين إلى الحبشة الذى أبلى بلاء حسناً فى الدعوة ، فلما مات تقدم لخطبتها كبار المسلمين ومنهم أبو بكر وعمر

---

(١) روى خبر ذلك الطبرانى عن عائشة رضى الله عنها ، ورواه أحمد عن أبى سلمة ويحيى بن عبد الرحمن فى حديث طويل .

فرفضت ، حيث قالت : « إنى امرأة مسنة وأم أيتام ! » وعز على الرسول ﷺ أن تظل هذه السيدة حزينة وحيدة ؛ فتزوجها .

وهناك تشريع هدف إليه الإسلام فى زواج الرسول ﷺ يقول الله تعالى فى سورة الحجرات : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[(١)] .

وقد كان الرق منتشراً فى بلاد العرب ، فدعا الإسلام إلى العتق وتحرير الرقيق ، وكان للسيدة خديجة زوجة النبى ﷺ عبد اسمه زيد ، وهبته لسيدنا محمد ﷺ ، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوة ، وقربه الرسول إليه ، حتى كانوا يطلقون عليه اسم زيد بن محمد ، هذا العبد الذى تحرر هل من بين العرب من يجرؤ فيعتبره نداً له ، فيزوجه من ابنته مثلا ؟ لقد طلب زيد يوماً من الرسول - ﷺ - أن يزوجه زينب بنت جحش - ابنة عمة الرسول - فوافق عليه الصلاة والسلام ، ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها ومن أسرتها ، وفى ذلك نزل القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾[(٢)] .

وبذلك تزوج العبد السابق من سيدة قريش سليلة المجد والحسب وكان ذلك تشريعاً جديداً للمسلمين وعملاً يقول الله تعالى : ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾[(٣)] .

ولم يدم ذلك الزواج طويلاً ، فطلب زيد الطلاق من زينب ، فكان رد النبى ﷺ كما جاء فى سورة الأحزاب ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾[(٤)] وأراد الله سبحانه وتعالى تشريعاً جديداً ، إذ كانت التقاليد لا تجيز للمدَّعِى[(٥)] أن يتزوج من كانت زوجاً لمن ادَّعاه ، كما لا تجيز للمتبنىّ أن يتزوج من كانت زوجاً لمتبناه ، ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة غيره فنهى عن ذلك الله تعالى إذ يقول : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾[(٦)] .

لذلك أمر الله بأن يكون الرسول ﷺ القدوة للناس فى ذلك ، وخشى فى نفسه أن يقول عنه الناس تزوج من كانت زوجاً لدعيه ، وكان يخفى فى نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما البعض ، حتى لا يتزوجها ، ولكن الله يبدى هذا التنافر ، فيقول المولى عز وجل فى سورة الأحزاب : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا وكان أمر الله مفعولا ﴾[(٧)] .

---

(١) من الآية : ١٣ من سورة الحجرات .
(٢) الآية : ٣٦ من سورة الأحزاب .
(٣) من الآية : ٢٢١ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٣٧ من سورة الأحزاب .
(٥) من ادعى بنوة شخص أى « المتبنى » .
(٦) من الآية : ٤ من سورة الأحزاب .
(٧) من الآية : ٣٧ من سورة الأحزاب .

هذه هى حكمة زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش ، وهى بعيدة كل البعد عما يرويه خصوم الإسلام ، من أن الرسول ﷺ كان قد ذهب لزيارة زوجها فاستهواه جمالها فطلب من زوجها أن يطلقها ليتزوجها .

وأين كان الرسول ﷺ يوم أن كانت زينب عذراء ، وهى ابنة عمته ، والتى كان يعرفها تماماً ؟ أو لم تستهوه محاسنها وهى عذراء ؟

ولكنه الحقد على الإسلام ونبى الإسلام ؛ الذى يجعل الخصوم يفترون ، وهناك حكمة فى زواج الرسول - ﷺ إذ حقق به أهدافاً سياسية ، فعندما هَزَم المسلمون بنى قريظة - بعد حصار طويل - كانت ريحانة بنت عمرو - زوجة الحاكم أحد كبار بنى قريظةمن نصيب الرسول ﷺ فى الغنائم ، فعرض الرسول عليها الإسلام فأسلمت فتزوجها ، وكان لزواجه منها أكبر الأثر فى نشر الدعوة الإسلامية بين قبائل اليهود الذين هدأت ثائرتهم ، وهز مشاعرهم إكرام الرسول ﷺ لإحدى سيداتهم بزواجه منها .

وكذلك عندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق كانت جويرية بنت الحارث ، بنت سيد قومها من نصيب ثابت بن قيس ، الذى طلب منها[1] أن تفتدى نفسها ، فاستعانت بالرسول ﷺ على فك أسرها - فعرض عليها الإسلام وأسلمت فتزوجها ، وكان لذلك أثره فى نفس بنى المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسول ﷺ فدخلوا جميعاً فى الإسلام .

ولما انتصر المسلمون على يهود خيبر كانت صفية بنت حيى بن أخطب ضمن الأسرى فأعتقها الرسول وتزوجها ، وهذا ما يفعله الفاتحون من ذوى الرحمة ، إذ يتزوجون من بنات الملوك والعظماء فى الدول المهزومة حفظاً لكرامتهم وتخفيفاً من وقع الهزيمة عليهم .

وبعد أن انتشر الإسلام فى جزيرة العرب أرسل الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة ، الذى آوى المسلمين المهاجرين ، وأكرمهم ، ليكون النجاشى رسوله فى طلب الزواج من أم حبيبة - رملة بنت أبى سفيان - بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش الذى كان قد أسلم ثم ارتد ، وبقيت زوجته مسلمة صادقة العقيدة ، وكانت لفتة كريمة لسيدة مسلمة ارتد زوجها المسلم ، وتمسكت بدينها تحافظ عليه ، وتقيم شعائره فى دولة غريبة ، كما كانت لفتة سياسية بارعة ، إذ أن أم حبيبة بنت أبى سفيان عدو الرسول الألد ، وأكبر مهاجمى الإسلام ، وبزواجه منها انتصر على آخر معقل من معاقل الكفر والشرك فى قريش ، انتصاراً دون إراقة دماء ، وبدون حرب أو اعتداء .

وعندما بدأ الرسول فى نشر الدعوة إلى الخارج ، أرسل رسله إلى الملوك والأمراء منهم : هرقل وكسرى والمقوقس يدعوهم إلى الإسلام ، فكان من ضمن رد المقوقس عظيم القبط فى مصر ؛ أنه أرسل للرسول هدايا فيها جاريتان إحداهما مارية القبطية التى تزوجها الرسول ﷺ ، وسيرين التى أهداها إلى حسان بن ثابت .

---

(١) الذى أخرجه ابن اسحاق وابن سعد والحاكم أنها هى التى كاتبته وجاءت إلى النبى ﷺ تستعينه على كتابها .

ولما أحل للنبى ﷺ الدخول إلى مكة وزيارة الكعبة الشريفة ـ بعد صلح الحديبية ـ دخل الرسول على رأس المسلمين فى عمرة القضاء وظلوا أياماً ثلاثة هى ما اتفق عليه فى المعاهدة ، وكان المسلمون من الكثرة والقوة والخلق الكريم لا يشربون خمراً ولا يأتون معصية ولا يتقاتلون على شراب أو طعام ، ولا يعبدون أحجاراً أو أوثاناً ، وإنما دعوتهم الله أكبر الله أكبر ، زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار فأسلم ضمن من أسلم ميمونة بنت الحارث ، خالة خالد بن الوليد ، فخطبها الرسول ﷺ وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها ، وأى تكريم ، وفتح لعائلتها التى كانت ومازالت على الكفر ، وقد صحت فراسة الرسول ﷺ ، كما كانت تصح دائماً ، فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذى هدم العزى وقتل سدنتها ، وأسلم عمرو بن العاص الذى هدم سواعاً ، وكذلك أسلم عثمان بن طلحة حارس الكعبة وبإسلامهم أسلم كثير من أهل مكة .

هذا هو زواج رسول الله ﷺ فهل منه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج لحبه للنساء ؟ وهل فى أزواجه كلهن واحدة كان جمالها أو شبابها سبباً فى زواجه منها ؟

وهذه هى الأهداف التى هدف إليها الرسول ﷺ من زواجه ، لمصلحة الدعوة والدين ، لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره ، ولما تحقق الهدف وانتفت الأسباب التى من أجلها أحل الله لنبيه تعدد الزوجات ، (زوجاته) نزل قول الله تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد)[1] .

هذا هو زواج الرسول ﷺ فهل فيه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج بأكثر من واحدة لحبه للنساء ؟

وهل كان بين هذه الزوجات عذراء سوى عائشة ؟

أو ليس قول الخصوم بعد ذلك افتراء على النبى ﷺ وعلى الحق أى افتراء ؟ اهـ .

وإلى هنا نكون قد أتينا على الحكمة البالغة التى من أجلها تعددت زوجات الرسول ﷺ .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

لما أراد الله جل جلاله ... أن ينقذ الدنيا من العثرات
أهداك ربك للورى ياسيدى ... فيضا من الأنوار والرحمات
يا صاحب الخلق الكبير عرفته ... وبسطته فى حكمة وأناة
وطلعت فى الليل البهيم مؤذناً ... بالحق والأنوار والصلوات
ودعوت للخيرات قوماً ضللوا ... ما كان أبعدهم عن الخيرات
ودعوت حتى كنت أصبر من دعا ... وأقمت بين إساءة وأذاة
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت فى ... أعناقهم فى عزة وثبات

(١) من الآية : ٥٢ من سورة الأحزاب .

فحظيت بالنصر المبين مؤزرا وأقمت حقك خافق الرايات
وضربته مثلاً لكل مكابر لا يستوى حق بغير حماة

الإسلام وتعدد الزوجات

رأينا من المناسب بعد الكلام عن أزواج سيدنا رسول الله ﷺ ، أن نعقب هذه بكلمة عن حكمة الإسلام البالغة فى إباحة تعدد الزوجات ، وقبل أن نسجل هذه السطور ؛ نود أن نبدأ بهذه القواعد التى تبنى عليها دائماً الحكم البالغة ، والأهداف السامية لتشريعات الله أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين .

١ ـ عالمية الدعوة :

القاعدة الأولى من تشريعات الإسلام : أنه شريعة عالمية وليس حكماً إقليمياً ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٢] . وقال جل جلاله ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾[٣] .

وقال عظمت حكمته : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾[٤] .

وقال ﷺ : (كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود)[٥] .

وإذ قد تقرر ذلك فلابد أن يكون تشريع الإسلام شاملاً لكل مقتضيات الزمن ومحيطاً بكل نواحى الحياة .

٢ ـ عدالة السماء

القاعدة الثانية : أن الإسلام دين العدالة ، فهو فى كل ما شرع لا يعرف الجور ، ولا يتطرق الجور إلى أى مسألة من مسائله ، ولذلك فإن العدالة هى السمة الحقيقية فى تشريعات الله ، فليس لمكابر أو مجادل أن يقول إن فى تعدد الزوجات ـ أو غير ذلك من القضايا الإسلامية ، جوراً أو ظلماً ، لأن الله تعالى أحاط تشريعاته بالعدالة والمودة والرحمة ، قال سبحانه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٦] .

وقال عز من قائل : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٧] .

---

(١) الآية الأولى من سورة الفرقان .
(٢) الآية : ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية : ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٤) من الآية : ٣٣ من سورة التوبة ، ومن الآية ٢٨ من سورة الفتح ، ومن الآية : ٩ من سورة الصف .
(٥) رواه الشيخان ، وهو جزء من إحدى روايات حديث « أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى . . . » .
(٦) الآية : ٢١ من سورة الروم .
(٧) من الآية : ٣ من سورة النساء .

وقال سبحانه وتعالى فى موضع آخر : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ﴾ .[١] وقال سبحانه : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾[٢] .

٣ ـ الإسلام يخاطب العقل :

القاعدة الثالثة : أن الإسلام فى تشريعاته منطقى وسديد ورشيد ، فهو لم يشرع ما تأباه العقول ، وتنبو عنه الأفهام ، وتمجه الأذواق ، بل جاء بشرع للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم .

جاء ليوحد العقائد ، لا ليفرق القواعد ، وقد قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشىء : وقال العقل : ليته ما أمر ، ولم ينه عن شىء . وقال العقل : ليته ما نهى .

وقد صدق الله إذ يقول ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾[٣] .

وإذ يقول : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[٤] .

وإذ يقول : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[٥] .

وبناء على ما تقرر من قواعد ، فإن كل تشريع إسلامى ، له حكمته البالغة ، وله هدفه الرفيع .

الإسلام : دين عالمى . الإسلام : دين العدالة ، الإسلام : لا يجافى العقل الرشيد ولا المنطق السديد .

وقد جاءت حكمة الإسلام بالغة فى تعدد الزوجات .

إن إباحة تعدد الزوجات دواء لابد من وجوده فى صيدلية الإسلام العالمية ، وإلا فما الذى يعالج مشاكل العالم ، إذا لم يكن الدواء الذى يعالج به الداء هو تعدد الزوجات ؟

إن أحداث الحياة لا تثبت على حال واحدة فلابد أن يعالج الإسلام جميع مشاكلها ، ويداوى بالحكمة جروحها ، والإسلام كما عهدناه فى علاجه ؛ كالنسيم الهادىء ، يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة تقتل الجراثيم ؛ دون أن تحرق المريض .

---

(١) من الآية : ٨ من سورة المائدة .
(٢) من الآية : ٢٣٧ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ٣٠ من سورة الروم .
(٤) الآية : ١٦١ من سورة الأنعام .
(٥) من الآيتين : ١٢٣ ، ١٢٤ من سورة طه .

إن القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى على رسوله هدى وشفاء ؛ لم يدع شيئاً لصالح البشرية إلا بينه ، ولا أمراً فيه صلاح الدنيا والآخرة إلا فعله .

وقد كان أوائل هذه الأمة ـ رضى الله عنهم ـ حين يحزبهم أمر ؛ أو تعترضهم مشكلة ، يهرعون إلى كتاب ربهم ، فيطيعونه فيما أمر ، وينتهون عما نهى عنه وزجر ، ولن يرضى الله أن يؤ ول كتابه تأويلاً يميل به إلى الهوى ، فإن هوى النفس شر داء تبتلى به المجتمعات .

فقد صرح القرآن أنه لا اختلاف فيه ، ولا مجال لأصحاب الهوى فى فهمه ، قال سبحانه : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[١] .

الله سبحانه وتعالى أباح تعدد الزوجات بمقتضى قوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾[٢] .

وهذه الإباحة ليس فيها غموض ، إذ الأمر فى هذه الآية الكريمة دليل الإباحة كما فى قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ﴾[٣] .

وكقوله تعالى : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾[٤] .
وكقوله تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾[٥] .
فالأمر فى هذه الآيات لإباحة الفعل .

ولما أورد الله تعالى قيد العدل فى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٦] علم أن هناك صنفين من التعدد : أحدهما تعدد مع العدل . وثانيهما : تعدد مع الجور ، الصنف الأخير هو المنهى عنه من مفهوم الآية الكريمة ، أما الذين زعموا أن التعدد غير جائز لأنه مبنى على العدل ؛ والعدل منفى كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[٧] غاب عنهم أن هذا المعنى لو تحقق كما فهموا ، لكان تناقضاً ولغواً ، والقرآن الكريم منزه عن ذلك ، تنزيهاً كاملاً ، ألم يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[٨] .

ألم يقرأوا قوله جل شأنه : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[٩] .

إذ ليس من المعقول ولا من المستساغ ولا من المقبول ؛ أن يقول الله تعالى تزوجوا من تحبون متى تشاءون فى حدود الأربع ، فإن خفتم الجور فواحدة فحسب وبعد ذلك يقول : الجور محقق فى كل واحد من راغبى التعدد .

---

(١) الآية : ٨٢ من سورة النساء .
(٢) من الآية : ٣ من سورة النساء .
(٣) من الآية : ١٦٨ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ١٧٢ من سورة البقرة .
(٥) من الآية : ١٤١ من سورة الأنعام .
(٦) من الآية : ٣ من سورة النساء .
(٧) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .
(٨) من الآيتين : ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .
(٩) الآية : ٨٣ من سورة النساء .

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وكان الأحرى والأجدر ـ إذا كان هذا المعنى هو المقصود ـ ألا يذكر التعدد أصلاً إباحة أو حظراً ، أما وقد ذكر التعدد فى القرآن ، وأجمعت عليه الأمة الإسلامية فى شتى العصور بالقول والعمل ، فقد وجب فهم الآية القائلة بعدم استطاعة العدل وهى قوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ وجب فهمها بما فهمه أئمة التشريع ، وأساطين التفسير الذين قالوا : إن المقصود بالعدل غير المستطاع ؛ إنما هو العدل فى الميل القلبى ، والمحبة القلبية ؛ أذ أن قلوب بنى الإنسان بين يدى الرحمن ، يصرفها ويقلبها كيف شاء قال سبحانه ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾[١] .

لذا كان الرسول ﷺ ، يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : (اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك)[٢] ، ولو أنهم قرأوا بقية الآية الكريمة وهو قوله تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾[٣] لعلموا أن العدل هنا قلبى ، إذ أن الله لم يقل : فلا تميلوا بعض الميل ، لأن بعض الميل قد يقع ، وإذن : فالمنهى عنه هو الميل كله ، الذى يؤدى إلى كسر القلوب وعدم جبرها ، وإيجاد الجروح المؤلمة بها ، ولذلك عقب الله تعالى بعد ذلك بقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾[٤] والمعلقة هى المرأة التى أساء زوجها معاشرتها ، فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة ، وبناء على ما سبق فلا تناقض فى كتاب الله ولا اختلاف ، إذ أن العدل فى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٥] . المقصود به العدل فيما يملك الإنسان من الأمور المادية المحسوسة ، كالمساواة بين الزوجات فى المسكن والكسوة والنفقة والمبيت ، أما العدل فى الآية الثانية وهو قوله جل شأنه : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[٦] فالمراد به العدل القلبى والمحبة القلبية وهذا عالجه القرآن بقوله : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾[٧] وعلى هذا يستقيم الميزان فى الفهم ، وينتفى التناقض والاختلاف ، عن أحكام الله سبحانه وتعالى ، جلت حكمته وعظمت رأفته .

ونخلص مما تقدم إلى أن التعدد للزوجات مباح شرعاً مادام ذلك قد شرعه الله وأباحه فى قوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾[٨] وقد تأيد التعدد من سائر مصادر الشريعة ، منها ما هو صريح القرآن وما هو الإجماع .

فإذا ما ذهبنا إلى السنة النبوية نستهديها وجدنا قول الرسول ﷺ : (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم)[٩] .

ومفهوم المخالفة يقتضى جواز الجمع بين من عداهن ، وقد جاء فى قوله تعالى : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾[١٠] جواز الجمع بين من عداهما ، وقد أمر ﷺ : غيلان الثقفى حين أسلم وله عشر نسوة ، أن

---

(١) من الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .

(٢) وفى رواية أخرى فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك رواه البخارى ومسلم وأحمد والقرطبى ج ٥ ص ٤٠٧ وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » .

(٣ ، ٤) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

(٥ ، ٨) من الآية : ٣ من سورة النساء .

(٦ ، ٧) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

(٩) رواه الشيخان وغيرهما من كتب السنة .

(١٠) من الآية : ٢٣ من سورة النساء .

يستبقى أربعاً منهن . . كل هذا يدل دلالة قاطعة ـ لا تقبل الشك أو الجدل ـ أن التعدد من بديهيات المباحات ، وأن التكلم فى منعه أو تحريمه يدخل تحت طائلة تحريم ما أحل الله ، وهو جريمة : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾[1] .

ليس فى تعدد الزوجات أى مساس بمصلحة المرأة ، سواء أكانت متزوجة على أخرى أم متزوجاً عليها بأخرى .

فأما الحالة الأولى : فلا يوجد عقد زواج إلا وأحد طرفيه امرأة تملك زمام أمرها بيدها ، ولا تتزوج إلا برضاها ، فإن كان ذلك يضرها ففى وسعها ألا تتزوج بمتزوج ، وإن كانت فى عسر من أمرها ولا تستطيع أن تقوم بأولادها ، فقد فرج الله عليها بالزوج الذى يدفع عن كاهلها عبء الفاقة وذل العوز ، وغائلة الجوع .

وأما الحالة الثانية : التى تعتبر أن الزواج عليها فاجعة لها ، فلا بأس من طلبها الطلاق ، لأن الإسلام لا يرضى بالضرر ، وشريعتنا السمحة لا تأبى ذلك .

ومهما يكن من شىء فإن تعدد الزوجات لا يخلو من خير ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾[2] .

فقل لهؤلاء المجادلين : ﴿ أأنتم أعلم أم الله ﴾[3] .

ثم قل لهم : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[4] .

ويراعى الإسلام مراعاة دقيقة أن يكون التعدد بقصد الاستعفاف لا بقصد الإسفاف والإسراف ، إذ أن الإسلام لا يرضى بالضرر أو الضرار فقاعدته الأولى « لا ضرر ولا ضرار » .

وقد يكون فى التعدد ناحية إنسانية أخلاقية ، قد تكون الزوجة مريضة مرضاً لا يمكنها من أداء واجبها نحو زوجها ، من ناحية المباشرة ، أو القيام بخدمته ، فهل الأولى والأفضل أن يرميها بعيداً ؛ ويقطع ما بينه وبينها من علاقة ، أو يبقى عليها مع زوجة تؤدى له حقوقه الشرعية .

وقد تكون الزوجة عاقراً لا تنجب ، والزوج يريد ولداً ، فهل الأفضل والأليق أن تطرد هذه الزوجة العاقر بعيداً عن كنفه ؛ بعد طول معاشرة ، أم يتزوج ويبقى على عشرتها فى حدود العدالة والمساواة الإنسانية التى أمر الله بها فى قوله : ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾[5] ما من شك فى أن جانب الإنسانية يبدو واضحاً فى التعدد الذى أباحه أحكم الحاكمين .

---

(١) من الآيتين : ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .
(٢) من الآية : ٣٦ من سورة الأحزاب .
(٣) من الآية : ١٤٠ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٢٣٢ من سورة البقرة ، ومن الآية : ٦٦ من سورة آل عمران ، الآية : ١٩ من سورة النور .
(٥) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

وأما ما يدعيه البعض من أن التعدد يؤدى إلى إفساد العلاقات بين الإخوة غير الأشقاء ؛ فهى دعوة فاسدة فكم رأينا شقيقين يقتتلان وأخوين لأب متصافيين متحابين ، هذا وقد غاب عن هؤلاء الطاغين أن البلدان التى حرمت التعدد نشأ فيها الفجور والمخادنة ، وملئت فيها الملاجئ بأبناء الزنا والبيوت بالأبناء غير الشرعيين .

إن خالق الناس ومن هو أدرى بالناس من الناس ، قال بالتعدد ؛ فهل يجوز لإنسان مهما أوتى من علم وفهم أن يأتى فيقول : ألا إن التعدد نظام بغيض يقضى على المجتمع ويشتت شمل الأسرة ؟

هذا ولا يخفى ما فى تعدد الزوجات من مصلحة عظيمة وحكمة بالغة ، فإن الرجال ـ فضلاً عن زيادة عدد النساء عليهم ـ معرضون لنقصان مستمر ، بسبب قيامهم بشاق الأعمال ، وبأعباء الحروب وغيرها ، وتعرضهم للمهالك ، وليس من الحكمة فى شىء أن ندع جانباً كبيراً من بناتنا بدون إحصان .

إن الأوربى يرفض تعدد الزوجات فى الوقت الذى يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات ، ويرى والد الفتاة فتاته مع عشيقها فيسر ويغتبط بل ويعد لهما جميع الوسائل وكافة السبل المؤدية لراحتهما وطمأنينتهما .

عظمة الإسلام

أما ديننا القيم وشريعتنا الغراء ، التى تحرم على الرجل النظر إلى المرأة ، وتحرم على المرأة النظر إلى الرجل ، فقد كان من العدالة أن توجد توازناً لهذه القاعدة ؛ فجعلت الزواج مكان السفاح ، ووضعت الحلال مكان الحرام ، وإلا فمن للعوانس وربات الخدور ؟ ألهن العهر والفجر ، ولنا العفاف والطهر ؟ أم لهن الجحيم ولنا النعيم ؟ .

وهل من المستحسن أن يكن حرائر أم يكن فواجر ؟ .

إن الإسلام شرع مبدأ تعدد الزوجات ، ليحمى المرأة من عدوان الرجل الظالم ، فلم يقبل أن تكون فى علاقاتها معه إلا على حالة واحدة ، وهى أن تكون زوجة ؛ لها ولأولادها حقوق مقررة ، ولا يستطيع الرجل التنصل منها ، وفى الوقت نفسه حرم الزنا والمخادنة ، وجميع ما من شأنه الحط من مستوى المرأة وإنزالها من مرتبة الإنسانية ؛ إلى مرتبة الحيوانية .

والآن يوجد أمامنا ضربان من السلوك : أولهما يبيح تعدد الزوجات ويحرم ما وراء ذلك من العلاقات الآثمة ، ويضرب بيد من حديد على أيدى المتلاعبين بالأعراض ، الخائضين فى ضروب الفحشاء والفساد .

وثانيهما : يحرم تعدد الزوجات ويبيح سائر العلاقات الآثمة ويجيز التلاعب بالأعراض والخوض فى ضروب الفحشاء .

بديهى أنه لا يوجد إنسان عنده ذرة من عقل فيختار القسم الثانى ، ولا توجد نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه كحظ البهائم العجماء ، وفى أى دين ، أو أى نظام ، أو أى عرف ؛ تكون الخليلة أفضل من الحليلة ؟ .

ويقولون أيضاً : إن الرجل الذى يعقب أولاداً من زوجتين يعتبر فى نظر المجتمع آثماً ؛ لأنه يخلق العداوة بين نسائه ، والبغضاء بين أبنائه ، فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولاداً من امرأتين ؛ إحداهما شرعية والأخرى غير شرعية ، لا يعتبر آثماً ؟ ولا يكون خالقاً للعداوة بين نسائه وأبنائه ؟ وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[1] .

هذه شريعة الله ، شريعة الحق ، شريعة العدل . وهذا منهاج الخالق البارئ المصور ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[2] .

شهادة الخصوم لنبى الإسلام

لم تكن شهادة الخصوم لنبى الإسلام مقصورة على الفلاسفة أو المفكرين ؛ فى القرن العشرين أو ما قبله من القرون القريبة ، إنما سبقت ذلك شهادات له ﷺ من بنى قومه ، الذين لقبوه قبل بعثته بالصادق الأمين ، لما رأوا فيه من كريم الخلق ، وحميد السجايا ورفيع الشمائل .

ونذكر هنا على وجه المثال لا الحصر ، هذا المشهد الذى شهد له فيه كبار القوم بالحكمة والذكاء والفطنة وسرعة البديهة . وقوة الإدراك ، ذلك المشهد هو اشتراكه ﷺ فى بناء الكعبة بعدما تصدعت ، ووقوفه بعد ذلك لحل مشكلة استعصى علاجها بين قومه ؛ ألا وهى وضع الحجر الأسود !! من الذى ينال هذا الشرف ويفوز بتلك الرفعة ؟؟ لقد أوشكوا أن تفصل السيوف بينهم وما أدراك ما السيوف إذا كانت هى الحكم فى الخلاف .

إذن فلتسفك الدماء ولتفصل الرؤوس فما الذى حدث ؟؟

ها نحن أولاء نذكر نبذة عن الكعبة شرفها الله ، وأبقاها كريمة عزيزة طاهرة تناطح الجوزاء ، وتزاحم الشمس فى الجلاء ، الكعبة أول بيت بنى على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ، بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه

---

(١) الآيات : ١ ـ ١١ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية : ١٤ من سورة الملك « تبارك » .

السلام ، بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التى نصبت ، بناها بوحى من الله تعالى ، وأمره له بذلك .

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ﴾(١) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾(٢) .

وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادى التى أوهت بنيانها وصدعت جدرانها ، وكان من بين هذه العوادى سيل عرم ؛ جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة ، حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها ، فلم تجد قريش بدًا من إعادة تشييد الكعبة ، حرصاً على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة ، ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظاً من شرعة إبراهيم عليه السلام بين العرب ، ولقد شارك الرسول ﷺ قبل البعثة فى بناء الكعبة ، وإعادة تشييدها مشاركة فعالة فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه إلا إزاره ، وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة فى الأصح . ولقد كان له ﷺ أثر كبير فى حل المشكلة التى تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه ، فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذى أبداه حلا للمشكلة ، علماً منهم بأنه الأمين المحبوب من الجميع ، لقد كان لهذا الحكم الذى وفق الرسول له عظيم الأثر .

لقد اختلفت قريش أيهم له الفخار بوضع الحجر فى هذا المكان ، واستمر الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببه .

تحالف بنو عبد الدار وبنو عدى أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم ، وأقسموا على ذلك جهد أيمانهم ، حتى قرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا ، وأدخلوا أيديهم فيها توكيداً لأيمانهم ، لذلك سموا « لعقة الدم » فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومى ، ما صار إليه أمر القوم ، وكان أسنهم ، وكان فيهم شريفاً مطاعاً ، قال لهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا ، فلما رأوا محمداً ﷺ أول من دخل قالوا : هذا الأمين ؛ رضينا بحكمه ، وقصوا عليه قصتهم ، وسمع قولهم ، ورأى العداوة تبدو فى أعينهم ، ففكر قليلاً ثم قال : هلم إلىّ ثوباً ؛ فأتى به فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ، ثم قال ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب فحملوه جميعاً إلى ما يحازى موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله محمد ﷺ من الثوب ووضعه فى موضعه ، وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر ، وأتمت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانية عشر ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض .

---

(١) من الآيتين : ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .
(٢) الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

هكذا وقف الصادق الأمين ﷺ موقفاً شهد له التاريخ فيه بالحكمة وبعد النظر ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، ثاقب الفكر صائب الرأى عبقرى الفؤاد ، زكى القلب .

شهادات للفلاسفة والمفكرين
تولستوى

قال تولستوى الفيلسوف الروسى تحت عنوان : « من هو محمد » ؟

« إن محمداً ﷺ هو مؤسس ورسول الديانة الإسلامية التى يدين بها فى جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس (يعنى فى حساب وزمان تولستوى) ثم قال : ولد النبى محمد ﷺ فى بلاد العرب سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، من أبوين فقيرين ، وكان فى حداثة سنه راعياً يرعى الغنم ، وقد مال منذ صباه إلى الانفراد فى البرارى والأماكن الخالية ، حيث كان يتأمل فى الله وخدمته . أى طاعته .

إن العرب المعاصرين له عبدوا أرباباً كثيرة ، وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها ، فأقاموا لها أنواع التعبد ، وقدموا لها الضحايا المختلفة ، ومنها الضحايا البشرية ، ومع تقدم سن محمد ﷺ كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب ، وأن ديانة قومه ديانة كاذبة ، وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الشعوب ، وقد ازداد هذا الاعتقاد فى نفس محمد ﷺ حتى اعتزم أن يدعو مواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الصحيح الراسخ فى فؤاده ، ثم دفعه إلى ذلك عامل داخلى[1] . وهو أن الله اصطفاه لإرشاد أمته . وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة ، وإنارة أبصارهم بنور الحق ، فأخذ من ذلك العهد ينادى باسم الواحد القهار ، وذلك بحسب ما أوحى الله إليه ، وبمقتضى اعتقاده الراسخ ؛ وبعد ما وصف تولستوى الديانة الإسلامية وصفاً صحيحاً موجزاً قال : « وفى سنى دعوة محمد الأولى تحمل محمد كثيراً من الاضطهاد ، شأن كل نبى بعث قبله ، نادى أمته إلى الحق ، ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه ، بل ثابر على دعوة أمته مع أن محمداً لم يقل إنه النبى الوحيد ، بل جاء متمماً للرسالات السابقة ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضاً » .

ومما يذكر أن هذا الفيلسوف قد نال خطاب ثناء وشكر من الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق .

كارليل

يقول الفيلسوف كارليل فى كتابه الأبطال « وإنى لأحب محمداً ﷺ لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى ، لا يعول إلا على نفسه ، ولا يدعى ما ليس فيه ، وإلا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ ، توقيراً واحتراماً وإكباراً وإعظاماً ، وما كان بمكنته أن يقودهم ويعاشرهم

---

(١) لم يفهم الكتاب الغربيون أن الله أوحى إليه عن طريق الملك الذى أخبر ﷺ أنه رآه ، وأكد القرآن ذلك ، وشهد الصحابة بذلك حينما كان يأتى فى صورة بشر .

معظم أوقاته ثلاثاً وعشرين حجة ، وهم ملتفون به ، يقاتلون بين يديه ، ويجاهدون حوله ، لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء وغلظة ، وكانوا حماة الأنوف وأباة الضيم ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم ؛ حتى رضخوا له واستفادوا ، فذلك وايم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل ؛ لما خضعوا له ولا أذعنوا .

وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد ﷺ قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه ؛ لما كان مصيباً فى طاعتهم مقدار ما ناله فى ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا يكون الأبطال .

دائرة المعارف البريطانية

جاء فى دائرة المعارف البريطانية ما نصه :

« كان محمد ﷺ أظهر الشخصيات الدينية العظيمة ، وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً» .

دينسون

يقول دينسون عنه ﷺ فى كتابه : « الحركات كأساس للحضارة » ، « وفى القرنين الخامس والسادس الميلاديين كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة ، كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة ، مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر بلا قانون ولا نظام ، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم بأجمعه » .

جيمس متشنر

يقول عن رسول الله ﷺ : « إن محمداً ﷺ هذا الرجل الملهم الذى أقام الإسلام ، ولد حوالى ٥٧٠ ميلادية فى قبيلة عربية تعبد الأصنام ، ولد يتيماً محباً للفقراء والمحتاجين ، والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين ، وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة فى شبة الجزيرة العربية وفى الشرق كله ، قد حطم الأصنام بيديه ، وأقام ديناً يدعو إلى الله وحده ، فأرشد العالم إلى أنه بشر مثلهم أرسله الله بشيراً ونذيراً » .

البروفيسور جارسون دى تاس

قال فى كتابه « الإسلام » : إن محمداً رسول الله ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ كان منذ نعومة أظفاره مجانباً للرذيلة ، محباً للفضيلة ، حتى أطلق عليه بنو قومه الصادق الأمين والمصلح العظيم محمد ﷺ أعاد ما فقد من العدل والحرية والتسامح والفضيلة ، أتى الوحى من عند الله إلى رسوله الكريم ، ففتحت حججه

العقلية السديدة أعين أمة جاهلة ، فانتبه العرب وتحققوا أنهم كانوا نائمين فى أحضان الرذيلة المظلمة ، ولنتصور سكان البادية حينما رأوا أصنامهم تكسر على مرآى ومسمع منهم ، وهم المشهورون بالشجاعة والصلابة فى الرأى وعدم الخضوع للغير ، أفلا يثور ثائرهم ويهبون لقتل محمد ﷺ ؟ ولكنه كان يتكلم بكلام الله ربه ، فقد كانوا يشعرون بذلك ، حيث يجدون فى نبرات صوته هدى وتأثيراً كبيراً ، ولهذا لم يستطيعوا القيام ضد تيار الحق ، ولم يجدوا بدا من السلوك فى التقاء الجديد ، لأنه اجتاح كل الموانع والسدود كما يجتاح السيل الجارف كل شىء يقف فى طريقه ، وهكذا انتصرت الفضيلة على الرذيلة وأخمدت قوة الله هاتيك الشرور والآثام وحررت الإنسانية من قبضة الوحشية » .

وفى الختام قال :

« وبالإجمال أتى الوحى من عند الله العلى القدير إلى رسوله ونبيه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ففتحت حججه العقلية أعين تلك الأمة الغافلة » .

لويل توماس

قال الكاتب الإنجليزى الكبير لويل توماس :

« قبل أن يكتشف خريستوف كولمب أمريكا بألف سنة ، أبصرت عينا الطفل القرشى محمد بن عبد الله النور فى مكة ، فكأن الله اختار هذا الطفل ليغير به تاريخ العالم ، وكان فى طفولته يرعى الماعز والغنم فيقودها إلى أعالى الجبال التى تحيط بمكة إحاطة السوار بالمعصم ، ولما شب وأينع راح يذهب إلى سوريا فى تجارة بمال إحدى نساء قريش (يشير إلى السيدة خديجة) وسرعان ما شعر بأن قومه الذين يعبدون الأوثان كانوا على ضلال ، يتمسكون بدين منبعث من الأوهام والأساطير ، فبعث بدين متسامح رضى أن يقبله كل إنسان بدون مشقة ، وقد علم أصحابه حب آدم وإبراهيم وموسى وعيسى واعتبارهم أنبياء مرسلين » .

ثم قال توماس :

لقد كان محمد العربى القرشى النبى الهاشمى والرسول التهامى ؛ أول من وحد قبائل العرب المتنافرة فى تلك الجزيرة ، وأول من ألف قلوب شعوبها المتقاتلة ، وجمع كلمتها تحت راية واحدة .

جاء محمد وجمع كلمة العرب ووحد صفوف العرب ، ولكن لا باستعمال القوة والاعتماد على الشدة ، بل بكلام عذب حكيم أخذ منهم كل مأخذ ، فاتبعوه وآمنوا به ، وقد فاق فتى مكة جميع الرسل ، وقادة الرجال ، بصفات لم تكن معروفة لدى العرب ، فجمع بين القلوب المتفرقة وجعل منها قلباً واحداً .

مات النبى محمد ﷺ ، وتدفقت بعده موجة فتوحات الإسلام فاجتازت الصحارى ودخلت المدن ، وذلك لتجعل ذكراً خالداً أبدياً لذلك الرجل العظيم الذى أنتجته وأنبتته صحراء قاحلة ، فأثمر ثمراً لم يحلم به العالم من قبل ، وامتدت هذه الموجة فعمت آسيا وإفريقيا ، إلى أن استولت على أواسط أوربا تلك الموجة التى لم تلحق بها موجة الرومان فى إبان مجدهم وعهد عظمتهم » .

وفى الختام قال توماس :

« وفى ذلك العصر عصر فتوحات الإسلام ، قدم العرب للعالم أجمع أعلم رجال الإسلام وأكثرهم ثقافة ومعرفة ، وبذلك ؛ فإن الإسلام قد حل بالعالم وانتشر فى ربوعه بسرعة البرق » .

ادوارد مونتيه مدير جامعة جنيف

قال فى محاضراته التى ألقاها :

« . . ولقد انتشر الإسلام منذ نشأته بسرعة ، وقلما توجد بل لا توجد أبداً ديانات كانت تنتشر بمثل هذا الانتشار ، وإن ما صادفه الإسلام من أول عهده كان عظيماً وباهراً ، حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة ؛ التى وطدت سلطة نبى الإسلام ﷺ ، وإصلاحه بعيداً عن حدود بلاد العرب ، لقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن ؛ إن نجاح العقيدة الإسلامية يرجع إلى العنف وإلى قوة السيف فى عهد محمد ﷺ ، وعهود خلفائه الأولين (يريد الخلفاء الأربعة) .

ولكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع ، فإن الفكرة لا تضع موضع الاعتبار ؛ العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها ، والوقوف على حقيقتها » وقال مونتيه فى محاضرة أخرى بجنيف :

« الإسلام فى واقع الأمر ينتشر نوعاً ما من تلقاء نفسه ، أريد أن أقول : إنه ينتشر بواسطة المسلمين أنفسهم لأن كل مسلم فى البلاد الوثنية كان رسولاً لدينه مبدئياً ، فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوى العقيدة ، وتلك خاصة من خاصيات الدين الإسلامى . أن يستحوذ تماماً على نفس المؤمن بكليته وجزئيته ، وأنه إن وجد عدد من المسلمين فاترى العزيمة أو من غير المبالين ، فإن الحمية من الصفات المميزة للدين الإسلامى ، وإننى أكرر أن المسلم غالباً يحمل فى جسمه أنسجة المبشر ، فالإسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه ، فهو ينتشر بواسطة القوافل التى تذهب للتجارة إلى البلاد الوثنية أو الديار التى تعبد فيها الأصنام ، فرسل الإسلام تدفعهم الغيرة للتبشير ، إلى الالتجاء إلى الوسائل المختلفة الملائمة لكل حالة ، خاصة فى البلاد ، وفى الشعوب التى يقومون فيها ، بأداء عملهم الدينى وهنا نرى العامل الدينى . يعمل عمله بجانب العاملين الاجتماعى والاقتصادى ، فالإسلام فى البلاد الشاسعة التى ينتشر فيها يمتد نفوذه وينبىء لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية فى أرقى الحالات وتباعاً يعتبر من أول وسائل التقدم والرقى » .

الدكتور ليتز

يقول : « إننى لأجرؤ بكل أدب أن أقول : إن الله الذى هو مصدر ينابيع الخير والبركات لو كان يوحى إلى عباده : فدين محمد ﷺ هو دين الوحى ، ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوى ووسائل التمييز بين الخير والشر ، ودفع الباطل هى الشاهدة على الإلهام .

فرسالة محمد هى هذا الإلهام .

البروفيسور يورسورت سميث

يقول : « عندما ألقى نظرة إجمالية أستعرض فيها صفات محمد - ﷺ وبطولته ، ما كان منها فى بدء نبوته وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة - وكم من بطولات المعجزة أحدثوا - أجده أقدس الناس وأعلاهم مرتبة ، حتى أن الإنسانية لم تعرف له مثيلاً » .

عود على بدء

قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ المراد هنا أن الاقتصار على الواحدة ، إن خيف عدم العدل أو فى سبيل إلى رفع الجور والظلم ، وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ ألا تعولوا ﴾ فالإسلام لحمته العدل ، وسداه الإنصاف ، ولحمته وسداه الحق[١] ، فإذا سئلت عن الإسلام فقل : إنه الصدق المطلق ، والعدل المطلق ، والحق المطلق ، إنه فى علاج المشاكل كالنسيم الهادىء يدفع الشراع ، دون أن يغرق المركب ، وكالحرارة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، إنه يداوى الجروح الدامية بمراهم الروحانيات الصافية ، وقد صدق مولانا جل شأنه إذ يقول : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾[٢] .

والله أكرمنا بكتاب الله ما أهاننا أحد ولو طبقنا تعاليمه لرفرفت راية الإسلام على كل بلد ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾[٤] .

الخطاب للأزواج ؛ أى وأعطوا النساء اللواتى تعقدون عليهن المهور عطاء هبة ، يكون رمزاً للمودة التى ينبغى أن تكون بينكما ، وآية من آيات المحبة ، ودليلاً على وثيق الصلة والرابطة التى تجمع شملكما ، وتحيط بسماء المنزل الذى تحلان فيه ، وقد جرى عرف الناس بعدم الاكتفاء بهذا العطاء ، فتراهم يردفونه بأصناف الهدايا والتحف ، من مآكل وملابس ومصوغات إلى نحو ذلك ، مما يعبر عن حسن تقدير الرجل للمرأة التى يريد أن يجعلها شريكته فى الحياة .

﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ أى فإن طابت نفوسهن بإعطائكم شيئاً من الصداق من غير ضرار ولا خديعة ؛ فكلوه هنيئا مريئا ولا ذنب عليكم ولا إثم فى أخذه .

ومن ثم لا يجوز للرجل أن يأكل شيئاً من مال امرأته ، إلا إذا علم أن نفسها طيبة به ، فإذا طلب منها شيئاً وحملها الخوف أو الخجل على إعطاء ما طلب ؛ فلا يحل له ، ألا ترى أن الله تعالى نهى عن أخذ شىء

(١) اللحمة والسدا ، هما خيوط النسيج فى الأنوال ، واللحمة هى الخيوط العرضية فى المكوك خيوط السدا الطولية .

(٢) الآية ١٤ من سورة الرعد ١٨٧ .

(٣) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٤ من سورة النساء .

من المرأة فى طور المفارقة فقال : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾(١) .

فالتحذير من أخذه فى طور الرغبة والتحبب ، وإظهار القدرة على ما يجب عليه من أعباء الزوجية ؛ من كفالة المرأة والإنفاق عليها يكون أشد وآكد ، ولكن حب المال جعل الرجال يماكسون فى المهر ، كما يماكسون(٢) فى سلع التجارة ، وصار حبهم للمحافظة على الشرف والكرامة دون حبهم للدرهم والدينار .

الحفاظ على المال

وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

المفردات : ﴿ **السفهاء** ﴾ واحدهم سفيه : وهو المبذر للمال المنفق له فيما لا ينبغى ، وأصل السفه الخفة والاضطراب ، ومنه قيل زمان سفيه : إذا كان كثير الاضطراب ، وثوب سفيه : ردىء النسج ، ثم استعمل فى نقصان العقل فى تدبير المال وهو المراد هنا ﴿ **قياما** ﴾ : أى تقوم بها أمور معايشكم وتمنع عنكم الفقر .

قال الراغب : القيام والقوام ما يقوم بـه الشىء ويثبت كالعماد والسناد(٣) لما يعمد ويسند به ، ﴿ **وارزقوهم** ﴾ : أى واعطوهم . و[القول المعروف] : ما تطيب به النفوس ، وتألفه ، كإفهام السفيه أن المال ماله لا فضل لأحد عليه ﴿ **آنستم منهم رشداً** ﴾ أى أبصرتم منهم حسن التصرف فى الأموال ، [الإسراف] : مجاوزة الحد فى التصرف فى المال ، و[البدار] : المبادرة والمسارعة إلى الشىء ، يقال بادرت إلى الشىء وبدرت إليه ﴿ **فلسيتعفف** ﴾ : أى فليعف ، والعفة : ترك ما لا ينبغى من الشهوات ، [الحسيب] : الرقيب . .

أمر الله تعالى بالمحافظة على : الدين ، والعقل ، والنفس ، والعرض ، والمال ، وهذه الأمور تسمى فى الإسلام بالكليات الخمس ، وما من شك فى أن المال نعمة لمن أحسن استعماله ، قال رسول ﷺ : (نعم

---

(١) من الآية ٢٠ من سورة النساء وسيأتى تفسيرها إن شاء الله .

(٢) المماكسة المساومة فى زيادة المهر أو إنقاصه ، كالمساومة فى ثمن بضاعة .

(٣) العماد : أعمدة البناء أو عمد الخيام لا يقوم البناء ولا الخيام ترفع إلا بها والسناد أى الأكتاف التى تقام خارج جدران البناء إذا أوشكت على الانهيار لتسندها .

المال الصالح للعبد الصالح)[١] لذا وجب على المسلم أن يكون حسن التصرف فى المال ، فلا إسراف ولا تقتير ، قال جل شأنه ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾[٢] . وقال تبارك اسمه : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾[٣] ووصف الله تعالى سلوك المؤمنين فى المال فقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾[٤] .

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود « ما عال من اقتصد » .

وروى عن ابن عمر « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة ، والتودد إلى الناس نصف العقل ، وحسن العقل نصف العلم » .

وما من شك فى أن المال عصب الأمم ، ومصدر قوتها ، إذا كانت الأمم رشيدة فى تصرفها .

ونحن فى عصر أصبح المال فيه كما يقول الاقتصاديون « الورقة الرابحة على مائدة الدبلوماسية العالمية » ومن هنا فإن الإسلام حارب الثالوث المدمر « الفقر والجهل والمرض » فقد كاد الفقر يكون كفرا ، وكان النبى ﷺ يستعيذ بالله من : الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وغلبة الدين وقهر الرجال ، ولم يذهب الفقر إلى بلد إلا قال له الكفر خذنى معك ، ولم تذهب البطالة إلى بلد إلا قالت الرذيلة لأصحابها خذينى معك ، وهل وجدت الشيوعية المضللة الملحدة أرضاً ترتع فيها وتلعب وتعشش وتبيض وتفرخ ؛ إلا أرضاً فيها الفقر قد ضرب أطنابه[٥] ، ونشب أظفاره هناك ، تبيض الشيوعية الإلحاد وتفرخ الزندقة ، بحجة القضاء على الفقر ، وهى فى الحقيقة توزع الفقر بسخاء ، وهى الظلم الاجتماعى الفادح الفاضح ، التى تغرس فى النفوس الصراع والحقد والبغضاء والشحناء ، وكلها تؤدى إلى حمامات الدم .

فما أعدل الإسلام عندما ينادى أبناءه فيقول رسول الإسلام ﷺ (لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء)[٥] .

وما أعظم عدالة الإسلام عندما تقول الآيات : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾[٦] . فالملكية فى الإسلام ملكية خاصة ، لكن المنفعة فى المال عامة . قال جل شأنه : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ﴾[٧] .

---

(١) هو جزء من حديث طويل روته الكتب الأربعة .
(٢) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .
(٤) الأطناب جمع طنب ، وهى أطراف الخيمة الممتدة على ما تحتها من الأرض .
(٥) رواه الإمام أحمد .
(٦) من الآية : ٧ من سورة الحديد .
(٧) الآية : ٧١ من سورة النحل .

لقد وجه الله تعالى الخطاب إلى الأوصياء وأولياء الأمر ، فنهاهم عن إيتاء الأموال للسفهاء الذين لايحسنون التصرف ، بل يبذرون المال تبذيرا ، والمال قد جعله الله قياما ؛ تقوم به مصالح الحياة ، وركيزة تقضى بها المصالح ، وأضاف المال إلى الأولياء ـ مع أنه مال اليتامى أو القصر ـ وذلك لأن المجتمع الإسلامى جسد واحد ، فمال السفيه فى المحافظة يجب أن يكون كمال الوصى .

ثم أن القرآن الكريم نحا بالمال منحى عجيبا ، عندما قال تعالى : ﴿ **وارزقوهم فيها واكسوهم** ﴾ . والرزق يشمل النفقة المعلقة بالمطعم والمشرب والمسكن والكسوة وإنما نص على الكسوة هنا ، لأنه كثيرا مايقع الإهمال بشأنها ، هذا من الناحية المادية ، وإنما قال تعالى ﴿ **وارزقوهم فيها** ﴾ أى فى الأموال ولم يقل ارزقوهم منها ، ليدفع الأوصياء إلى استثمار المال بالطرق المشروعة ؛ من تجارة ومضاربة وغير ذلك ، فيكون الرزق فى أرباح الأموال ، ولو قال منها لكان الرزق من المال نفسه فسرعان ما ينفد ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[(١)] ويقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾[(٢)] ثم يأتى بعد ذلك الجانب المعنوى فى المعاملة فيقول تعالى للأولياء : ﴿ **وقولوا لهم قولاً معروفاً** ﴾ سواء أكان السفية رجلاً أم امرأة ، والقول المعروف هو الذى يشتمل على الإرشاد والتوجيه وتطييب الخاطر ، كأن يقول الوصى للسفيه لا تجزع فالمال مالك ، وكأن يقول له احرص على مالك ، واغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

قوله جل ذكره : ﴿ **وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم** ﴾ .

تباركت ربنا وتعاليت ؛ فقد أمرت بالمحافظة على مال اليتيم ، وجل جلالك إذ تقول : ﴿ **وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً** ﴾ وما أعظمك وأحلمك وما أكرمك وأنت القائل : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾[(٣)] لقد بلغ من حرص الإسلام على مال اليتيم أن الله جل ذكره أمر الأوصياء قبل أن يؤتوا اليتيم ماله ، أن يختبروه فى السلوك والتصرف ؛ فإن آنسوا منه رشداً وسلوكاً مستقيماً فليدفع إليه ماله بنفس راضية مطمئنة ، وذلك عندما يبلغ اليتيم مبلغ النكاح ، أى السن التى يصلح بها أن يكون زوجاً ورب بيت وأبا ، وهذه السن تؤهله أن يكون كذلك ، فإن كان رشيداً سليم التصرف مستقيم الحال وجب على الوصى أن يدفع إليه ماله دون ما تردد .

قوله جل شأنه : ﴿ **ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا** ﴾ هذا نهى صريح عن الإسراف فى مال

---

(١) من الآية : ٢١٦ ، ٢٣٢ من سورة البقرة ومن الآية : ٦٦ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .
(٣) من الآية : ٢٢٠ من سورة البقرة .

اليتيم سواء أكان الإسراف من جهة الوصى أم كان بالإنفاق على اليتيم ، فالإسراف ممقوت مذموم .

كذلك نهى الله تعالى الأوصياء أن يبادروا بإتلاف مال اليتيم قبل أن يكبر ، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال لا يجد عند الوصى مالا ، فقد بادره الوصى بأكل ماله .

قوله جل شأنه : ﴿ ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ هذا أمر من الله تعالى موجه إلى الأوصياء الذين يستثمرون مال اليتيم : أن يكونوا حريصين كل الحرص على ماله ، فإذا كان الوصى المستثمر غنياً ، فأولى به أن يعف عن المال ، حيث أن الله تعالى أغناه عنه ، وإن كان الوصى المستثمر فقيراً فعليه أن يتقى الله فى مال اليتيم ، فلا يبسط يديه كل البسط ، إنما يتقاضى منه بالمعروف ، مقابل تعبه فى استثمار مال اليتيم .

قال ابن جرير : إن الأمة مجمعة على أن مال اليتيم ليس مالاً للولى ، فليس له أن يأكل منه شيئا ، ولكن له أن يستقرض منه عند الحاجة كما يستقرض له ، وله أن يؤاجر نفسه لليتيم بأجرة معلومة ، إذا كان اليتيم محتاجاً إلى ذلك ، كما يستأجر له غيره من الأجراء ، غير مخصوص بها حال غنى ولا حال فقر ، وهكذا الحكم فى أموال المجانين والمعاتيه[١] .

قوله تعالى : ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا ﴾ هذا أمر من الله تعالى بالاشهاد عند الدفع ، وذلك قطعاً للخصومة وقطعاً لدابر النزاع ، يقتضى الوجوب كما رأى الإمامان مالك والشافعى ؛ فى أن الإشهاد واجب حتى لا تكون هناك خصومة بين الوصى واليتيم ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أى رقيباً ومحاسباً وشهيداً ، فأنتم أيها الأوصياء : إذا زورتم وحاولتم أن تضللوا فيما كتبتم وأشهدتم ؛ فاعلموا أنه تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يعلم المفسد من المصلح ، وتذكروا جيداً قوله تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ ناراً فى الدنيا وسعيراً فى الآخرة فما أشقى هذا الذى باع آخرته بدنياه ، وخالف أوامر مولاه ، وسلك طريق الغواية واتبع هواه ﴿ ومن أظلم ممن اتبع هواه بغير علم ﴾[٢] .

بيان حقوق اليتامى والنساء

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

(١) المجنون فاقد العقل تماما ، أما المعتوه فهو الذى لا يهديه ماله من عقل محدود إلى حسن التصرف .

(٢) ليست آية ولعله يقصد قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ الآية/ ٥٠ من سورة القصص ، أو الآية/ ٢٩ من سورة الروم : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ .

وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

المفردات : ﴿ مفروضاً ﴾ : أى محتوماً لابد لهم أن يأخذوه . [الخشية] : الخوف محل الأمن ، [السديد] : العدل والصواب والسِّداد (بالكسر) ما يسد به الشيء كالثغر . (موضع الخوف من العدو) ، والقارورة (الزجاجة) .

و[صلى] اللحم صليا شواه ، فإذا أراد إحراقه يقال أصلاه إصلاء وصلاّه تصليه . وصَلَى يده بالنار : ــ أدفأها ، واصطلى : استدفأ و[السعير] : النار المستعرة المشتعلة يقال سعَرت النار وسعَّرتها .

قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، لا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا ، فأنزل الله : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ أى الجميع فيه سواء فى حكم الله تعالى يستوون فى أصل الوراثة ؛ وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلى به إلى الميت من قرابة أو زوجية أو ولاء ، فإنه لحمة كلحمة النسب .

وروى ابن مردويه عن جابر ، قال : أتت أم كُجَّة إلى رسول الله ﷺ ؛ فقالت يارسول الله ﷺ : إن لى ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء ، فأنزل الله تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾[1] .

وهكذا اقتضت عدالة الإسلام : أن يكون للرجال نصيب من الميراث ، وأن يكون للنساء نصيب أيضا ، سواء أكان ما تركه الميت قليلاً أم كثيراً ، وسواء أكان الوارث ذكراً أم أنثى ، صغيراً أو كبيراً ، حتى ولو كان حملاً فى بطن أمه ﴿ تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ وهذا النصيب الذى شرعه الله مفروض ومشروع من قبله جل شأنه : ﴿ فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ﴾[2] .

---

(١) الميت هو أوس بن ثابت الانصارى ، مات عن زوجته« أم كحجة » وثلاث بنات فقام ابنا عمه : سُوَيْد وعَرْفَجَة ، فأخذا المال ولم يعطيا المرأة وبنات أوس شيئاً فلما نزلت الآية أمرهما النبى ﷺ بإيقاف التصرف فى المال حتى يفصل الله تعالى فى الأمر ، فنزلت ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم . . . الآيات ﴾ مختصراً عن الجامع لأحكام القرآن : ج ٥ ص ٤٦ ، ٤٧ فلما نزلت الآيات أمر سويدا وعرفجة أن يعطيا الزوجة الثمن والبنات الثلثين ، ويأخذا ما بقى من المال .

(٢) الآية : ١٨١ من سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكينُ فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ .

ما أعظم سماحة الإسلام وما أكرم تعاليمه : إنه يعالج النفوس بالحكمة ، ويداويها بالسماحة ، فهؤلاء المذكورون من أولى القربى واليتامى والمساكين غير الوارثين ؛ إذا حضروا قسمة المال ، فعليكم يا أصحاب الحقوق فى التركه أن تعطوهم من المال شيئا تطيبياً لخواطرهم ، وجبراً لكسرهم ، ومداواة لجروحهم ، حتى تظل النفوس راضية غير حاقدة ، ونظيفة غير حاسدة ، وطيبة غير حاقدة **﴿ وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾** وقد شرع الإسلام الهدية وجعلها سبباً من أسباب المحبة .

قال ﷺ : (تهادوا تحابوا) وقال : (اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله ، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله) وقال : (صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكأ) .

يا أخا الإسلام :

ازرع جميلاً ولو فى غير موضعه ... فلن يضيع جميل أينما وُضعَا
إن الجميل وإن طال الزمان به ... فليس حصاده إلا الذى زرعا

يا أخا الإسلام :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

وقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول : (الصلة والصدقة تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار) وإذ يقول : (الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة) وما أعظمه صلوات الله وسلامه عليه إذ يعالج الجروح الدامية بتنسم الوحيات الصافية فيقول :

(أفضل الصدقة ، الصدقة على ذى الرحم الكاشح) أى الذى يضمر السوء والبغضاء لقريبه ، وإنما جاء هذا المعنى على هذا الوجه لأنك إذا تصدقت على من يبغضك ، فإن الصدقة تطفىء نار حقده ، فيصبح صديقاً حبيباً بعد ما كان عدواً لدوداً ، ولأنك إذا تصدقت على من يكرهك فقد جاهدت نفسك ، وخالفت هواك ، وجردت الصدقة وأخلصتها لله .

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى ﴾[1] صلوات ربى وسلامه عليك سيدى يا رسول الله : يا من كنتَ تعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وكنت فى عطائك أجود من الريح المرسلة ، يامن وصفت بالسخاء والحياء والكرم :

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أنْ معشار جودها ... على البر صار البر أندى من البحر

(١) الأيتان : ٤٠ ، ٤١ من سورة النازعات .

لقد علمتنا السخاء ، حتى كان أصحابك إذا أعطوا عطاءً ودعا لهم المسكين دعوة رد على المسكين بمثلها ، فيسأل فى ذلك لماذا ترد على المسكين بدعوته ؟ . فيقول : حتى تكون دعوتى مقابل دعوته ؛ وتظل الصدقة خالصة لوجه الله :

تـراه إذا مـا جئتـه متـهـللاً كأنـك تعطيه الـذى أنت نائله
ولـو لم يكن فى كفه غير روحه لجـاد بهـا فليتـق الله سـائله

روى ابن أبى حاتم عن عبد الرزاق ، قال أخبرنا ابن جريج عن ابن أبى مليكة : أن أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق والقاسم بن محمد أخبراه : أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشه حية ، فلم يدع فى الدار مسكيناً ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه ، قالا : وتلا **﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى ﴾** . قوله تعالى : **﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾** .

هذا توجيه من الله تعالى للأوصياء على مال اليتامى وغيرهم ، فعلى كل من أراد أن يؤمن على حياة أولاده التأمين الصحيح ، أن يراعي في معاملته للناس ما يحبه لأولاده ، وليتقوا الله فى أموال الغير من يتيم وغيره ، وليقولوا قولا سديداً نافعاً طيباً ، فالكلمة الطيبة صدقة .

حكى ابن جرير عن طريق العوفى عن ابن عباس قال : المراد بالآية فليتقوا الله فى مباشرة أموال اليتامى **﴿ ولا يأكلوها إسرافاً وبداراً ﴾** وهذا قول حسن يؤيده قوله تعالى بعد ذلك : **﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾** أى كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ؛ فعامل الناس فى ذراريهم إذا وليتهم ، فالبر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان ، وبالكيل الذى تكيل به للناس سيكال لك به أو عليك :

لا تـظلمن إذا مـا كنت مقتـدراً فـالظلم تـرجع عقبـاه إلى الندم
تـنـام عينـك والمـظلوم منتبـه يـدعـو عليـك وعـين الله لم تنم

واعلم يا أخا الإسلام أن الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة ، وأن النفس طماعة ، فعودها القناعة ، فلا أمان للدهر ولو صفا ، ولا أمان للمال ولو كثر ، ولا أمان للسلطان ولـو قرب منـك ، ولا راحة فى الدنيا ، ولا شفاعة فى الموت ، ولا حيلة فى الرزق ، ولا راد لقضاء الله :

دنيـاك سـاعـاتٌ سِرَاعُ الـزوالِ وإنمـا الـعقبـى خـلود المـآل
فـهـل تبيـع الخلد يـاعـاقـلاً وتـشـترى دنيـا المنى والضـلال

* * *

عش راضيـاً واتـرك دواعـى الألم واعـدل مـع الـظالم مهـما ظلم
نهايـة الـدنيـا فـنـاء فـعش فيهـا كـريمـاً واعتبـرهـا عـدم

* * *

تملك الناس الهوى والغرور وفتنة الغيد وسكنى القصور
ولو تزال الحجب بانت لهم زخارف الدنيا وعقبى الأمور

يا من تريد السعادة لذريتك الضعاف ؛ اعمل على إسعاد الآخرين .

لا تهين الفقير علك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

روى أن رجلاً من بنى إسرائيل : كان يأكل مع زوجته وأمامها دجاجتان فطرق الباب مسكين فنهره الرجل وزجره ، ودارت الأيام دورتها ، إذ البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، وافتقر الرجل وطلقت زوجته وإذا بها تتزوج بآخر ، وتجلس مع زوجها يأكلان ، فطرق الباب مسكين ؛ وكان أمام الرجل دجاجة ، فقال لزوجته اذهبى بها إلى المسكين ، فأعطته الدجاجة ورجعت باكية ! فعجب زوجها وقال أتبكين على الصدقة ؟ قالت : مالهذا أبكى ! قال : فما يبكيك ؟ قالت له : أتدرى من السائل ؟ إنه زوجى الأول ! فقال لها زوجها : أتدرين من أنا ؟ وأنا السائل الأول .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾(1) .

سبحانك ربى ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾ . نعم : البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت اعمل ما شئت كما تدين تدان .

يا نائم الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يأتين أسحاراً

لقد أعلم الله الذين يجترئون على حدوده ؛ فيأكلون أموال اليتامى ظلماً بغير وجه حق ؛ أعلمهم سبحانه : أنهم فى حقيقة الأمر يأكلون فى بطونهم ناراً ، وإنما عبر بالأكل هنا دون سواه من حاجات الحياة ؛ لأن الأكل هو الدافع الفطرى الأول ، الذى يجهد الإنسان نفسه فى سبيل الحصول عليه ، ولا يمنع هذا من أن أخذ مال اليتيم بغير حق فى أى وجه من الوجوه ، إنما هو عار وشنار ونار .

وفى الآخرة سيكون مآلهم إلى السَّعير ، فما أعقل من نهى النفس عن الهوى ، وعف عن الحرام ، فالحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفاً من الأعوام مالك أمره
متلذذاً فيها بكل نفيسة متنعماً فيها بأنعم عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

(1) الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ من سورة آل عمران .

فأى عاقل يرضى لنفسه أن يأكل مالا يتأجج فى بطنه ناراً : ﴿ وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[1] .

لما حضرت محمداً بن كعب القرظى الوفاة ، وكان غنياً ، سأله أصحابه ماذا تركت لأولادك من المال فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى[2] .

يا ابن آدم ترفرف الروح على نعش الميت ، وتقول : ياأهلى يا أبنائى يـامن أخذتم أمـوالنا وسكنتم ديارنا ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بنا ، لقد جمعت المال من الحلال والحرام ، وتركته لكم ، تستمتعون به وسأسأل عنه وحدى يوم القيامة .

ماذا تقول يا ابن آدم إذ وضعت فى القبر وحيداً لا جليس ولا أنيس ولا صديق ولا رفيق ، ونادى عليك الملك فقال : (عبدى رجعوا وتركوك وفى التراب دفنوك ولو ظلوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحى الذى لا أموت)

﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ﴾[3] ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً * ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً * وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾[4] .

احذر أيها العاقل أكل الحرام ، واحذر مال اليتيم فإنه نار .

جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يارسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) .

يروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى قال : قلنا يارسول الله : ما رأيت ليلة أسرى بك ؟ قال (انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير ، رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير وقد وكل بهم رجال

---

(١) من الآيتين : ٢٠ ، ٢١ من سورة الحديد .
(٢) وما فعل القرظى ذلك إلا لما رواه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أحسن الصدقة جاز على الصراط ومن قضى حاجة أرملة أخلف الله فى تركته » .
(٣) من الآية : ٩٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآيات : ٤٦ - ٤٩ من سورة الكهف .

يفكون لحاء أحدهم ثم يجاء بصخرة من نار فتقذف فى[1] أحدهم حتى يخرج من أسفله ، ولهم جؤار وصراخ . قلت : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء : ﴿ **الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾ .

وقال السدى : يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ؛ ولهب النار يخرج من فيه ، ومن مسامعه ؛ وأنفه وعينيه ؛ يعرفه كل من رآه يأكل مال اليتيم .

وقال ابن مردويه عن أبى برزة ، أن رسول الله ﷺ قال : (يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا) قيل يارسول الله من هم ؟ قال : « ألم تر أن الله قال : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** ﴾ الآية . قال ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ أحرِّج مال الضعيفين المرأة واليتيم ﴾ أى أوصيكم باجتناب مالهما .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** ﴾ الآية ، انطلق من كان عنده يتيم ؛ فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشىء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم ، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير** ﴾[2] الآية . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم .

فانظر معى وتأمل عناية الاسلام الفائقة بالنساء واليتامى ، وكيف وردت أحكامهم بعد الأمر بتقوى الله مباشرة : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً * وآتوا اليتامى أموالهم** ﴾

ثم يقول تعالى بعد ذلك : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة** ﴾ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ .

ثم يقول جل ذكره : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾ .

ولله تعالى حكمة بالغة فى أن يولد النبى ﷺ يتيماً ، ففى يتمه عبرة وعظة ، فإكرام اليتيم إكرام لسيد اليتامى ﷺ الذى قال : (خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرَّم) والذى قال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . واستوصوا بالنساء خيرا) والذى قال : (واتقوا الله فى النساء)[3] .

---

(١) أى فى فم أحدهم .
(٢) من الآية : ٢٢٠/ من سورة البقرة .
(٣) كلها من أحاديث الصحاح .

أحكام تتعلق بالميراث

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

ونذكر أحكاماً تتعلق بالميراث حتى نضيء الطريق بأحكام الله تعالى .

قال ﷺ : (العلم ثلاثة : وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عاملة) رواه ابن ماجه والحاكم فى مستدركه عن أبى هيريرة[١] .

أصحاب الفروض

أصحاب الفروض : كل من له سهم مقدر فى كتاب الله ، أو سنة رسول الله ﷺ ، أو بالإجماع ،

---

(١) ورواه أبو داود والدارقطنى عن عبد الله بن عمرو بن العاص

وهم اثنا عشر[١] : أربعة من الذكور ، الزوج ، والأب والجد الصحيح والأخ لأم وثمانية من الإناث وهن : الزوجة ، والبنت ، وبنت الابن لأم ، والجدة الصحيحة ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، ولكل أحوال خاصة .

١ - الزوج :

يأخذ النصف عند عدم الفرع الوارث للزوجة ، مذكراً أو مؤنثاً ، من هذا الزوج أو من غيره : كالابن وابن الأبن ، والبنت وبنت الابن ، ويأخذ الربع عند وجود فرع وارث ، مذكراً أو مؤنثاً .

٢ - الزوجة :

تأخذ الربع سواء أكانت واحدة أم أكثر[٢] ، وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوج ، مذكراً أو مؤنثاً وتأخذ الثمن عند وجود الفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً .

٣ - البنات :

يرثن بالتعصيب إذا كان معهن أخ مذكر واحد أو أكثر ، سواء أكن واحدة أم أكثر فتقسم بينهم التركة أو مابقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين .

وتأخذ الواحدة النصف ؛ إذا لم يكن معها أخ ولا أخت ، وتأخذ الثنتان فأكثر الثلثين إذا لم يكن معهن أخ لهن وإلا فللذكر مثل حظ الأنثيين .

٤ - بنات الابن :

لهن ست حالات : الثلثان التى للبنات عند عدم البنات والأبناء :

(١) أن تأخذ الواحدة السدس مع البنت الصُّلبية الواحدة ، تكملة للثلثين ، سواء أكانت بنت الابن واحدة أم متعددة ، إلا إذا كان يحذئها غلام فإنها تصير عصبة به ؛ ولا تأخذ إلا إذا بقى شىء فإن لم

---

(١) لم يذكر الشيخ الابن وابن الابن لعدم تحديد فرض محدد لهم ولم يذكر الأخ لأب والأخ الشقيق وابن الأخ ، وقد ذكرت كتب الفرائض والتفسير عدة الوارثين سبعة عشر عشرة من الرجال : وهم الابن وابن الابن وإن سفل ، الأب وأبو الأب « الجد » وإن علا ، والأخ وابن الأخ ، والعم وابن العم ، والزوج ومولى النعمة .

ويرث من النساء سبع : البنت وبنت الابن وإن سفلت ، والأم والجدة وإن علت والأخت والزوجة ومولاة النعمة « المعيقة » ونظمهم الناظم فى مايلى :

والوارثـــون إن أردت جمعهـــم * مـــع الإنـــاث الورثـــات معهـــم
عشرة مـــن جملـــة الذاكـــران * وسبـــع أشخـــاص مـــن النسوان
وهـــم وقـــد حصرتهـــم فـــى النظـــم * الابـــن وابـــن الابـــن وابـــن العـــم
والأب منهـــم وهـــو فـــى الترتـــيب * والجـــد مـــن قـــبل الأخ القـــريب
وابـــن الأخ الادنـــى أجل والعـــم * والـــزوج والسيـــد ثـــم الأم
وابنـــة الابـــن بعدهـــا والـــبنت * وزوجـــة وجـــدة وأخت
والمـــرأة المـــولاة اعنـــى المعيقـــة * خذهـــا الـــيك عـــدة محققـــة

(٢) عند تعدد الزوجات يقسم الربع أو الثمن بينهن جميعا .

يبق شيء سقطت معه ، ويسمى لذلك : «القريب المشئوم » ؛ وإذا كان الغلام أنزل منها درجة فإنه لا يعصبها فى هذه الحال لعدم حاجتها إليه .

(٢) أن تحجب بالبنتين ، إلا إذا كان بحذائها أو أسفل منها غلام ؛ فإنه يعصبها وتأخذ معه ما بقى وهو « القريب المبارك » . من هذا يظهر أن الغلام المحاذى لبنت الابن يعصبها حتماً أما السافل فلا يعصبها إلا إذا احتاجت إليه .

(٣) أن تحجب بكل غلام أعلا منها درجة ؛ فبنت الابن تُحْجبُ بالابن ، وبنت ابن الابن تحجب بابن الابن وهكذا الأب .

٥ - **وللأب ثلاث حالات :**

(أ) أن يأخذ السدس فرضاً فقط ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المذكر وإن نزل ، وحده أو مع غيره .

(ب) أن يأخذ السدس بالفرض ، ثم يأخذ بالتعصيب ما يبقى من أصحاب الفروض ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المؤنث دون الذكر .

(حـ) أن يرث بالتعصيب فقط ، وذلك إذا انعدم الفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً .

٦ - **الجد الصحيح :**

هو من لا تدخل فى نسبته إلى الميت أنثى : كأبى الأب وأبى أب الأب فإن دخل فى نسبته إلى الميت أنثى كأبى الأم وأبى أم الأب فهو الجد الفاسد وهو من ذوى الأرحام .

والجد الصحيح كالأب إجماعاً لأن لفظ الأب يطلق عليه كما فى قوله تعالى : ﴿ واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾[2] .

فللجد أربع حالات : الثلاث المتقدمة فى الأب عند عدم الأب : والرابعة : أن يحجب بالأب وبكل جد أقرب منه لأنه يمت به .

ويخالف الجد الأب فى مسائل :

(١) أن أم الأب تحجب بالأب دون الجد لأنها تدلى بالأول دون الثانى .

(٢) أن الأخوة الأشقاء أو لأبٍ يحجبون بالأب دون الجد عند الصاحبين[3] وهو رأى علىّ وابن مسعود

---

(١) من الآية : ٣٨ من سورة يوسف .

(٢) من الآية : ٢٧ من سورة الأعراف .

(٣) الصاحبان: محمد بن الحسن وأبو يوسف ـ صاحبا أبى حنيفة

وزيد بن ثابت رضىَ الله عنهم ، وعليه الأئمة الثلاثة رضى الله عنهم ، وهو المختار للعمل ، وللجد مع الأخوة أحوال سيأتى بيانها .

(٣) المسألة العمرية : وهى ما إذا اجتمع الأبوان وأحد الزوجين ، فإن الأم تأخذ ثلث الباقى بعد نصيب أحد الزوجين ، ولو كان بدل الأب جد لأخذت ثلث المال كله .

٧ - الأم :

(ا) تأخذ ثلث التركه إذا لم يكن للميت فرع وارث ، ولا أكثر من واحد من الإخوة والأخوات .

(ب) أن تأخذ سدس التركة إذا كان للميت فرع وارث مذكر أو مؤنث ، أو كان له أكثر من واحد من الإخوة والأخوات من أى نوع .

(جـ) تأخذ ثلث الباقى بعد نصيبها من أحد الزوجين ، إذا كان معها الأب ـ وأحد الزوجين ، وليس معها فرع وارث ولا جمع من الأخوة أو الأخوات ، فتكون مع الأب كالحاجب بغيره وهى المسألة العمرية .

٨ - الجدة الصحيحة :

هى التى لا يدخل نسبتها إلى الميت جد فاسد ، فإن دخل فى نسبتها إليه جد فاسد كأم أبى الأم ، وأم أبى أم الأب ، فهى الجدة الفاسدة وهى من ذوى الأرحام .

وللجدة الصحيحة حالان :

(١) أن تأخذ السدس ؛ سواء أكانت واحدة أم أكثر ، وسواء أكانت من جهة الأب أم من جهة الأم ، وينقسم السدس بين الجدات بالتساوى ، ولو كانت إحداهن تدلَى إلى الميت بجتهين أو أكثر كأم أم الميت التى هى أم أبى أبى الميت .

(٢) أن تحجب بالأم ، سواء أكانت الجدة أبوية أم أموية ، وتحجب الأبوية بالأب وبالجد ان أدلت به ، وتحجب البُعْدَى من الجدات من أى جهة بالقُرْبَى منهن من أى جهة ، ولو كانت القربى محجوبة ، فتحجب أم أم الأم بأم الأب وإن كانت الثانية محجوبة بالأب .

٩ - الأخوات الشقيقات : للأخوات الشقيقات خمس حالات :

(١) أن تأخذ الواحدة النصف إذا انفردت .

(٢) أن تأخذ الثنتان فأكثر الثلثين عند عدم الأخ الشقيق ، وإنما كان نصيب الأخوات كنصيب الأختين لأن نصيب البنات بالنص لا يزيد عن الثلثين ، والأخوات أولى بعدم الزيادة من البنات .

(٣) أن يرثن بالتعصيب بالغير إذا كان مع الواحدة أو الأكثر أخ شقيق أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو ما بقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين ، وإذا استغرقت الفروض التركة ، ولم يبق للأشقاء شىء بأن وجد معهم زوج وأم وأخوان لأم شارك الأشقاء أولاد الأم باعتبارهم أولاد أم مثلهم وقسم الثلث بينهم جميعاً من غير تفريق بين الذكر والأنثى وتسمى هذه : « المسألة المشتركة » .

(٤) أن يرثن بالتعصيب مع الغير : وذلك إذا كان مع الواحدة أو الأكثر بنت أو بنت ابن أو أكثر فلهن ما بقى بعد أصحاب الفروض .
(٥) أن يحجبن بالفرع الوارث المذكر وهو الابن وابنه وإن نزل وبا لأب دون الجد .

١٠ - الأخوات لأب :

هن كالأخوات الشقيقات عند فقدهن بإجماع العلماء ، قياساً على بنات الأبناء مع بنات الصلب ، فللأخوات لأب الأحوال الخمسة التى للشقيقات ، والأخ لأب معهن كالأخ الشقيق مع الشقيقات ، وإذا وجد معهن أحد من أولاد الأعيان كان لهن معه ثلاثة أحوالٍ أخرى وهى :

١ - أن يكون الموجود من أولاد الأعيان عصبة : كالأخ الشقيق وحده ، أو مع الأخت الشقيقة ، وكالأخت الشقيقة مع البنت أو بنت الابن ، وحينئذ تحجب الأخوات لأب ، سواء أكان معهن معصب وهو الأخ لأب أم لم يكن .

٢ - أن يكون الموجود من أولاد الأعياد شقيقين فأكثر ، ولسن عصبة فإنهن يحجبن الأخت لأب إلا إذا كان معها من يصحبها وهو الأخ لأب ، دون ابنه ، فتأخذ معه ما بقى من أصحاب الفروض للذكر مثل حظ الأنثيين وهو « الأخ المبارك » .

٣ - أن يكون الموجود من أولاد الأعيان واحدة ليست عصبة ، فللأخت لأب معها السدس تكملة للثلثين ، إلا إذا كان مع الأخت لأب من يعصبها ، فإنها تأخذ معه ما بقى من أصحاب الفروض ؛ إن بقى شىء وهو « الأخ المشئوم » .

١١ - الجد مع الإخوة : للجد مع الإخوة ثلاث حالات :
(١) أن يكون الموجود من الأخوة أو الأخوات وارثاً بالتعصيب ؛ كالأخ الشقيق أو لأب ، أو كالأخت الشقيقة أو لأب مع البنت أو بنتِ الابن ، وحينئذ يجعلِ الجد أخاً شقيقاً مع الأشقاء ، وأخاً لأب مع الأخوة الأب ، ولا يدخل فى المقاسمة حينئذ من يكون محجوباً من الإخوة أو الإخوات لأب .
(٢) أن يكون الموجودَ من الأخوات وارثاً بالفرض ؛ كأخت شقيقة أو لأب أو أختيه ، ولا معصب ، وحينئذ يرث الجد بالتعصيب فيأخذ ما يبقى بعد الفروض .
(٣) أن يأخذ السدس وذلك إذا كان توريثه على أحدِ الوجهين السابقين يحرمه أو ينقصه عن السدس ، وكل هذا من مذهب على رضى الله عنه ، إلا مقاسمة الجد للأخت إذا كانت عصبة مع البنت أو بنت الابن ، فإنها من مذهب زيد بن ثابت رضى الله عنه .

١٢ - الأخوات للأم :
لأولاد الأم ثلاث حالات :
(١) أن يأخذ الواحد السدس إذا انفرد مذكراً كان أو مؤنثاً .

(٢) أن يأخذ الاثنان فأكثر الثلث يقسم بينهم بالتساوى ، سواء أكانوا ذكوراً فقط أم إناثاً فقط أو ذكوراً أم إناثاً .

(٣) الحجب بالفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً وبالأصل الوارث المذكر أو جد ، ولا يحجبون بالأم وإن كانوا يدلون بها — ومن هنا نعلم أن الإخوة مطلقاً لا يرثون مع الفرع المذكر الوارث وكذلك مع الأب .

العصبة النسبية :

هى ثلاثة أنواع : (١) العاصب بنفسه وهو : كل ذكر لم يدخل فى نسبته إلى الميت أنثى ، ولا يحتاج فى عصوبته إلى غيره وهو منحصر فى جهات أربع :

١ - جهة البنوة كالابن وابن الابن وإن نزل .
٢ - جهة الأبوة كالأب والجد الصحيح وإن علا .
٣ - جهة الأخوة كالأخ الشقيق وابنه والأخ لأب وابنه .
٤ - جهة العمومة كعم الميت الشقيق وابنه ، وعمه لأب وابنه ، وعم أبى الميت الشقيق وابنه ، وعم أبى الميت لأب وابنه ، وأما العم لأم وهو أخو أبى الميت لأم ، وأخو جده لأم : فمن ذوى الأرحام .

العاصب بغيره :

هو كل أنثى احتاجت فى عصوبتها إلى غيرها من العاصب بنفسه ، وشاركته فى العصوبة ولا يكون هذا النوع إلا ممن فرضهن النصف أو الثلثان فينحصر فى أربع :

١ - البنات مع الابن .
٢ - بنات الابن مع ابن الابن المحاذى مطلقاً والسافل إذا احتجن إليه .
٣ - الأخوات الشقيقات مع الأخ الشقيق .
٤ - الأخوات لأب مع الأخ لأب .

وعلى ذلك لا تكون العمة عصبة مع العم ، ولا بنت العم عصبة مع ابن العم ، ولا بنت الأخ الشقيق أو لأب عصبة مع أخيها .

العاصب مع غيره :

وهو كل أنثى احتاجت فى عصوبتها إلى أنثى لم تشاركها فى العصوبة ، وهو منحصر فى اثنتين :

١ - الأخت الشقيقة مع البنت أو بنت الابن .
٢ - الأخت لأب كذلك ، واعلم أن تقسيم العصبة إلى هذه الأنواع الثلاثة ؛ لا دخل له فى الترتيب فى استحقاق الميراث ، بل لذلك نظام روعى فيه تقديم الأقرب فالأقرب من غير نظر إلى نوع العصوبة وهو التقديم :

(أ)- **بالجهة** : فتقدم جهة البنوة ، ثم جهه الأبوة ، ثم الأخوة ثم العمومة ؛ فيقدم الابن وابن الابن وإن سفل على الأب والجد وإن علا ، وعلى الأخ وعلى العم ، ويقدم الأب على الأخ وعلى العم ، والجد يشارك الأخوة كما سبق ، ويقدم على العم ، ويقدم الأخ على العم .

(ب)- **بالدرجة** : وذلك عند اتحاد الجهة . فالابن مقدم على ابن الابن ؛ والأب مقدم على الجد والأخ مقدم على ابن الأخ ، وعم الميت مقدم على عم أبيه ، وهكذا . والله أعلم .

(حـ)- **بقوة القرابة** : وذلك عند اتحاد الجهة والدرجة ، فيقدم الأخ الشقيق على الأخ لأب ، كما تقدم عليه الأخت الشقيقة مع البنت أو بنت الابن ، ويقدم ابن الأخ الشقيق على ابن الأخ لأب ، ويقدم العم الشقيق على العم لأب وهكذا .

الإدلاء بجهتين :

قد يتصل الوارث بالمورّث من جهتين : كزوج هو ابن عم ، وكابن عم هو أخ لأم ، وكأم أم الأم التى هى أم أم الأب ، فإذا ترتب على تعدد الجهة تعدد صفة الوارث بالإضافة إلى المورث ؛ ورث من جهتين كالمثالين الأول والثانى ، وإذا لم تختلف الصفة مع تعدد الجهة ؛ ورث من جهة واحدة ، كالمثال الثالث ، وإذا حجب النوع الأول من جهة ورث من الجهة الأخرى ، وقل لحظه ، أما إذا حجب النوع الثانى من جهة فإنه يرث من الجهة الأخرى ولا يتأثر نصيبه .

الحجـــب :

هو منع الشخص من كل الميراث أو بعضه ، مع قيام أهليته بألا يكون هناك مانع من موانع الإرث السابقة ، وهو نوعان :

١ - حجب حرمان كحجب الأخ لأم البنت وكحجب الأخ بالابن .

٢ - حجب نقصان كحجب الأم بالبنت من الثلث إلى السدس ، وقد علم بالا ستقرار ستة لا يحجبون حجب حرمان وهم : الأبوان والزوجان والولدان .

الـــرد :

إذا بقى من التركه شىء بعد إلحاق فرائضها بأهلها ؛ ولم يكن هناك عاصب ؛ يرد الباقى على أصحاب الفروض ، وهذا رأى علىّ ــ رضى الله عنه ــ وجمهور الصحابة والفقهاء ، وعليه العمل ، وذهب جمهور القائلين بالرد إلى أنه يكون على أصحاب الفروض إلا الزوجين ، لأن سبب الإرث فى حقهما الزوجية وهى تنقطع بالموت ، بخلاف القرابة ، ومعروف أن من يرى الرد على أحد الزوجين إذ لم يكن هناك أحد من ذوى الفروض والعصبات النسبية ، وأولى الأرحام ، وعند الرد على ذوى الفروض لا يعتبر قرب الدرجة ولا قوة القرابة ، إلا بمقدار ما اعتبر فى الفروض المقدرة ، ولذلك لا يعطى الباقى كله لأقربهم كما فى العصبات بل يقسم بينهم بنسبة أنصبائهم بالطرق الآتية :

١ - إذا لم يكن فى المسألة من لا يرد عليه . وهو أحد الزوجين . فإن كان الورثة صنفاً واحداً ؛ فأصل المسألة عدد رءوسهم .

٢ - وإن كانوا صنفين فأكثر ؛ فأصل المسألة مجموع السهام التى يستحقونها .

٣ - واذا كان فيها من لا يرد عليه ، يجعل أصل المسألة مأخذ نصيب من لا يرد عليه ويعطى فرصة ، يقسم الباقى على من يرد عليهم بنسبة أنصبائهم ، وقد يحتاج فى أثناء ذلك إلى التصحيح اذا انكسرت السهام على الانصباء ، أو على عدد الرءوس ، وقد تنكسر عليهما ، فيكون فى المسألة تصحيحان .

نمـــــوذج

(١) توفى عن : ٥ بنات ، بنت ابن ، أخ لأم

ج ١	٥ بنات	بنت ابن	أخ لأم	
	٢/٣	م	م	الأصل ٣
	٥	٠	٠	وبالرد ٥

(٢) توفى عن : أم ، أخت شقيقة ، أخت لأم

ج ٢	أم	أخت شقيقة	أخت لأم	
	١/٦	١/٢	١/٦	الأصل ٦
	١	٣	١	

(٣) توفى عن : زوجة ، ٣ أخوات لأم

ج ٣	زوجة	٣ أخوات لأم	
	١/٤	١/٣	الأصل ١٢
	٣	٤	وبالرد ٤
	١	٣	ومنه تصح

(٤) توفى عن : ٤ زوجات ، ٣ بنات ، ٦ جدات ص

ج ٤	٤ زوجات	٣ بنات	٦ جدات	
	١/٨	٢/٣	١/٦	الأصل ٢٤
	٣	١٦	٤	وبالرد ٨
	١	٧		جزء السهم ٥
	٥	٢٨	٧	التصحيح ٤٠
	٤	٣	٦	جزء السهم ١٢
	٦٠	٣٣٦	٨٤	التصحيح ٤٨٠

أصول المسائل

المراد بأصل المسألة فى اصطلاح الفرضيين : أقل عدد يمكن أن تؤخذ منه سهام الورثة صحيحة من غير كسر ، فإذا كان فى المسألة صاحب فرض واحد ؛ فأصلها مأخذ ذلك الفرض ، وهو الأثنان للنصف والثلاثة للثلث والأربعة للربع ، وهكذا ، وبعبارة أخرى : أصل المسألة مقام الكسر الدال على الفرض ، وأذا كان فى المسألة أكثر من فرض ينظر إلى مقامات الكسور :

١ - فإذا كان بينهما تماثل (أى تساوى) مثل : ١/٣ ، ٢/٣ فأصل المسألة ذلك المأخذ المشترك وهو الثلاثة .

٢ - وإذا كان بينهما تداخل (وهو أن يكون أحدهما مضافاً لغيره) مثل ١/٢ ، ١/٤ ، ١/٨ فأصل المسألة ذلك المضاعف وهو الثمانية .

٣ - وإذا كان بينهما توافق (وهو أن يكون للعددين عدد ثالث يقبل كل منهما القسمة عليه) مثل ١/٤ ، ١/٦ فإن كلا من الأربعة والستة يقبل القسمة على الاثنين) .

فأصل المسألة حاصل ضرب أحد العددين فى وفق الآخر ، ووفق العدد خارج قسمته على القاسم المشترك الأعظم ، فيكون أصل المسألة فى المثال السابق :

٤ × ٦/٢ أو ٦ × ٤/٢ = ١٢

٤ - وإذا كان بينهما تباين (وهو ألا يكون بينها نسبة من النسب الثلاث الماضية) مثل : ١/٤ ، ١/٣ فأصل المسألة حاصل ضرب العددين وهو فى المثال المفروض ٣ × ٤ = ١٢

والخلاصة أن أصل المسألة هى المضاعف البسيط للمقامات .

وإذا نظرت إلى الفروض المقدرة منفردة ومجتمعة ؛ تبين لك أن أصول المسائل تنحصر فى سبعة وهى : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٢ ، ٢٤ .

نمـــوذج

(١) توفى شخص عن : أب ، ابن ابن

جـ ١	$\frac{1}{6}$	ع	فالأصل ٦
	١	٥	ومنه تصح

---

(٢) توفى شخص عن : أم ، أخ لأم ، أخ شقيق

جـ ٣	$\frac{1}{6}$	$\frac{1}{6}$	ع	فالأصل ٦
	١	١	ع	ومنه تصح

---

(١) حرف العين تحت ابن الابن يعنى عصبه

(٣) توفى شخص عن : أب ، بنت ، بنت ابن

جـ ٣	أب	بنت	بنت ابن	
	١/٦ وع	١/٢	١/٦	فالأصل ٦
	١ + ١	٣	١	ومنه تصح

---

(٤) توفى شخص عن : أب ، زوج ، ابن

جـ ٤	أب	زوج	ابن	
	١/٦	١/٤	ع	فالأصل ١٢
	٢	٣	٧	ومنه تصح

---

(٥) توفى شخص عن : أم ، زوجة ، بنتيه ، أخ لأب

جـ ٥	أم	زوجة	بنتيه	أخ لأب	
	١/٦	١/٨	٢/٣	ع	فالأصل ٢٤
	٤	٣	٨ + ٨	١	ومنه تصح

---

(٦) توفى شخص عن : أب ، أم ، زوجة ، أخ لأم

جـ ٦	أب	أم	زوجة	أخ لأم	
	ع	١/٣ الباقى	١/٤	م	فالأصل ٤
	م	١	١	لاشىء	ومنه تصح

العــــول

فى المسائل السابقة لم يزد مجموع السهام التى استحقها الورثة عن أصل المسألة ، وقد يزيد عليه ، وذلك ما يسمى عند الفرضيين بالعول ، وحينئذ يهمل الأصل الأول ويعتبر العول أصلا تقسم التركة بحسبه ليدخل النقص على كل وارث بنسبة نصيبه .

وبالاستقراء علم أن من أصول المسائل ما لايعول وهو : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٨ ، وأن الستة تعول إلى ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، وأن الاثنى عشر تعول إلى ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، وأن الأربعة والعشرين تعول إلى ٢٧ .

نمــــوذج

(١) توفى عن : زوج ، أختين شقيقتين ، أخوين لأم

جـ ١	زوج	أختين شقيقتين	أخوين لأم	
	١/٢	٢/٣	١/٣	**الأصل ٦**
	٣	٤	٢	**وبالعول ٩**

(٢) توفى عن : زوجة ، أختين شقيقتين ، أخت لأم

	زوجة	أختين شقيقتين	أخت لأم	
جـ ٢	$\frac{١}{٤}$	$\frac{٢}{٣}$	$\frac{١}{٦}$	الأصل ١٢
	٣	٨	٢	وبالعول ١٣

(٣) توفى عن : زوجة ، بنتين ، أبى أب ، أم أم

	زوجة	بنتين	أبى أب	أم أم	
جـ ٣	$\frac{١}{٨}$	$\frac{٢}{٣}$	$\frac{١}{٦}$ ع	$\frac{١}{٦}$	الأصل ٢٤
	٣	١٦	٤	٤	وبالعول ٢٧

أولو الأرحام

يرث ذوو الأرحام إذا لم يوجد ذو فرض ولا عاصب أو كان هناك أحد الزوجين فقط كانت التركة كلها أو ما بقى منها لأولى الأرحام .

وهم اسم يشمل فى الأصل جميع الأقارب ، والفقهاء يطلقونه هنا على الأقارب غير ذوى الفروض والعصبات ، وقد اختلف فى توريثهم .

أصناف أولى الأرحام هم أصناف أربعة :

١ ــ أولاد البنات وإن نزلوا ، وأولاد بنات الابن وإن نزل .
٢ ــ الأجداد الساقطون والجدات الساقطات وإن علوا .
٣ ــ فروع أولاد الأم وإن نزلوا ، وفروع الأخوات الشقيقات أو لأب كذلك ، وبنات الإخوة الأشقاء أو لأب وفروعهن ، وإن نزلوا ، وبنات أبناء هؤلاء الإخوة وفروعهن كذلك .
٤ ــ ست طوائف مرتبون فى الاستحقاق على النحو الآتى :

١ ــ أعمام الميت لأم وعماته مطلقا (وقرابة هؤلاء من جهة الأب) وأخواته وخالاته جميعا (وقرابة هؤلاء من جهة الأم)
٢ ــ أولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا ، وبنات أعمام الميت الأشقاء أو لأب ، وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد من ذكر وإن نزلوا .
٣ ــ أعمام أبى الميت لأم وعماته وأخواته وخالاته جميعاً ، (وقرابتهم من جهة الأب) وأعمام أم الميت وعماتها وأخوالها وخالاتها (وقرابتهم من جهة الأم)
٤ ــ أولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا ، وبنات أعمام أبى الميت الأشقاء أو لأب ، وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا .

٥ ـ أعمام أبى أبى الميت لأم وعماته وأخواله وخالاته ، وأعمام أم أبى الميت وعماتها وأخوالها وخالاتها (وقرابة هؤلاء من جهة الأب) وأعمام أبى أم الميت وعماته وأخواله وخالاته ، وأعمام أم أم الميت وعماتها وأخوالها وخالاتها (وقرابة هؤلاء من جهة الأم)

٦ ـ أولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا ، وبنات أعمام أبى أبى الميت الأشقاء أو لأب ، وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد من ذكرن وإن نزلوا وهكذا .

كيف يرث أولو الأرحام ؟

كل طائفة من الطوائف السابقة تحجب ما بعدها ، فإذا لم يوجد الطائفة المستحقة إلا واحد ـ أخذ المال كله ، ذكراً كان أو أنثى ، وإذا وجد فيها أكثر من واحد ـ قدم الأقرب درجة ولو كان أنثى على الأبعد وإن كان ذكراً .

فإذا اتحدت الدرجة ولم يوجد مرجح من المرجحات الآتية : قسم المال على المستحقين للذكر مثل حظ الأنثيين .

الصنف الأول :

يشمل هذا الصنف الفروع غير الوارثة كما تقدم ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

١ ـ أن يكون بعضهم ولد صاحب فرض أى إن الأصل المباشر الذى يدلى به إلى الميت ـ لو كان حياً ـ لورث بالفرض ، وبعضهم ليس كذلك ، وحينئذ يحجب الأول الثانى كبنت بنت الابن مع ابن بنت البنت .

٢ ـ أن يكون كلهم ولد صاحب فرض ، أو كلهم ليس كذلك فتقسم التركة عليهم للذكر مثل حظ الأنثيين كابن بنت ابن مع بنت بنت ابن ، وكابن بنت بنت مع بنت بنت بنت . ولا يعتد بالإدلاء بجهتين هنا لأن جهة القرابة ـ وهى البنوة ـ واحدة .

الصنف الثانى :

يشمل هذا الصنف الأجداد الساقطين والجدات الساقطات ، ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

١ ـ أن يكون بعضهم مدليا إلى الميت بصاحب فرض دون بعض ، فيحجب الأول الثانى كالأمثلة (ا ، ب ، ج)

(ا)	(ب)	(ج)
أبى أم	أبى أبى	أبى أم
أم أبى	أم أبى	أم أبى
أم	أم	أبى أم
أبى	الميت	الميت

ـ الميت فالأول فى كل منهما يدلى بذى فرض فيحجب الثانى .

الصنف الثالث :

يشمل هذا الصنف من ذكرنا قبل : من فروع الأخوة والإخوات ، ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

١ ـ أن يكون بعضهم ولد عصبة دون بعض ، فيحجب الأول الثانى : كبنت ابن الأخ لأب مع ابن بنت أخ شقيق .

٢ ـ أن يكون كلهم ولد عصبة أو كلهم ولد ذى رحم ، وحينئذ يقدم أقواهم قرابة فيقدم من كان أصله لأبوين ، ثم من كان أصله لأب ، ثم من كان أصله لأم .

فإذا استووا فى قوة القرابة قسم المال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين ، ولو كانوا من فروع أولاد الأم .

الصنف الرابع :

يشمل هذا الصنف ما ذكرنا قبل من الطوائف الست :

١ ـ الطائفة الأولى : أعمام الميت لأم وعماته وأخواله وخالاته ، ولا يأتى هنا اختلاف الدرجة ، وهم عند التعدد حالان :

(ا) أن تتحد جهة قرابتهم بأن يكونوا كلهم من جهة الأب ، أو كلهم من جهة الأم ، وحينئذ يقدم أقواهم قرابه ، فالعمة الشقيقة مقدمة على العمة لأب ، وهذه مقدمة على كل من العم والعمة لأم ، وكل من الخال والخالة الشقيقين ، مقدم على الخال والخالة لأب ، وكل من هذين مقدم على الخال والخالة لأم .

فإذا استووا فى القوة قسم المال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين .

(ب) أن تختلف جهة قرابتهم : بأن يكون بعضهم من جهة الأب ، وبعضهم من جهة الأم ، وحينئذ تعطى قرابه الأب الثلثين ، وقرابة الأم الثلث ، ولا يفضل الأقوى فى جهة على الأضعف فى الأخرى ، فلا تفضل العمة الشقيقة مثلاً على الخال لأم ، ثم يقسم نصيب كل جهة بين آحادها على النحو السابق .

٢ ـ الطائفة الثانية : تشمل أولاد الطائفة الأولى ، وبنات أعمام الميت الأشقاء أو لأب وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد من ذكرن وإن نزلوا ، ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

(ا) أن تتحد جهة قرابتهم : بأن يكونوا كلهم من جهة الأب ، أو كلهم من جهة الأم ، وحينئذ يقدم ولد العاصب ولو كان أنثى ، وإنما يتأتى هذا فى قرابة الأب دون قرابة الأم ، إذ لا عاصب من جهتها على غيره ، فبنت العم الشقيق مثلاً تقدم على ابن العم لأم ، فإذا كانوا كلهم ولد عاصب ، أو كلهم ولد ذى رحم ـ قدم الأقوى قرابة فيقدم من كان أصله لأبوين ، ثم من كان أصله لأب ثم من كان أصله لأم .

(ب) أن تختلف جهة قرابتهم : بأن يكون بعضهم من جهة الأب ، وبعضهم من جهة الأم ، وحينئذ تعطى قرابة الأب الثلثين ، وقرابة الأم الثلث ، وما أصاب كل فريق يقسم بين آحاده على النحو السابق .

تنبيه : حكم الطائفتين : الثالثة والخامسة كحكم الطائفة الأولى .

وحكم الطائفتين : الرابعة والسادسة كحكم الطائفة الثانية .

موانع الإرث :

أولاً : القتل : وهو ما وقع عمداً ، من مكلف[1] بغير حق أو عذر ، والعامد هو المباشر للقتل مستقلاً أو شريكاً ، ولو كان أصلاً للمقتول ، وقوله ﷺ : (لا يقاد الوالد بولده)[2] معناه لا يقتل به ، وهو لا يستلزم بقاء حقه فى الميراث .

ويلحق بالعامد المتسبب الراغب فى القتل أو المعين : كالآمر والمحرض ، والدال وشاهد الزور ، الذى بنى على شهادته الحكم بالإعدام وتنفيذه ، والمكلف هو البالغ العاقل : فكل من الصبى والمجنون والمعتوه لا يمنع من الميراث بقتل مورثه ، لعدم التكليف . وحد البلوغ خمسة عشر عاما[3] .

ولايمنع من الميراث قتل بحق : بأن كان قصاصاً ، كقتل القاتل ، أو حداً ؛ كقتل المرتدّ ، أو دفاعاً عن النفس ، وكذلك لا يمنع من قتل بعذر : كقتل الزوج زوجته ، أو الزانى بها عند مفاجأتها حال الزنا ، وكالقتل مبالغة فى الدفاع .

ثانياً : اختلاف الدين ؛ لقوله ﷺ : (لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم)[4] ولأن الإرث مبنى على النصرة التامة ، ولا تناصر مع اختلاف الدين ، فلا توارث بين المسلمين وغيرهم ولو ذميين[5] ، أما المرتدّ عن دينه من المسلمين ، فسواء أكان ذكراً أم أنثى لا يرث أحداً من المسلمين ولا من غيرهم باتفاق ،

---

(١) المكلف : هو الحر البالغ العاقل

(٢) رواه الأربعة

(٣) وعلامة البلوغ الاحتلام أو القدرة على الانجاب

(٤) متفق عليه

(٥) ورث معاذ ومعاوية المسلم من الكافر الكتابى وغير الكتابى : الجامع لأحكام القرآن ج / ٥ ص ٥٩ ويراجع فتح البارى ج ١٢ ص ٤٣ ط بولاق

ويورث عنه ما اكتسبه من المال فى إسلامه أوردته عند الصاحبين ، وكذلك عند أبى حنيفة ؛ إلا كسب المرتد الذكر فى ردته ؛ فقد جعله فيئاً لبيت مال المسلمين . وجهة التسوية بين كسبى المرتد والمرتدة فى ردتها عند الصاحبين : أن كلاً منها لا يقر على ردته بل يجبر على الرجوع إلى الإسلام ، فيعتبر حكم الإسلام فى حقه مراعاة لمصلحة وارثه لا لمصلحته .

ووجه التفرقة بينها عند الامام . أن المرتدة لا تقتل بسبب ردتها بل تستتاب وتعزر حتى تعود إلى الإسلام أو تموت ، فلا يمكن اعتبار ردتها موتاً ، فيعتبر حكم الإسلام فى حقها ، أما المرتد فإنه يستتاب ثلاثة أيام ؛ فإن تاب وإلا قتل بسبب ردته ، فتعتبر ردته موتاً من باب إقامة السبب مقام المسبب فلا يمكن اعتبار حكم الإسلام فى حقه حال ردته ، ولا يكون أهلاً للملك ، فلا يثبت حق الورثة فيما اكتسبه فيها ، فيصبح ككل الأموال التى لا مالك لها حقاً لبيت مال المسلمين ، أما الكفار بعضهم مع بعض فيتوارثون والمراد بلا اختلاف فى الدين الكفر والإسلام .

المستحقون للتركة :

لا تقسم التركة على الورثة إلا بعد تجهيز الميت ، وتجهيز من مات قبله ممن تلزمه نفقته من غير إسراف ، ولا يعتبر مازاد عن الحاجة المعروفة فى الشرع ، ثم وفاء الدين وهذا هو مذهب الإمام أحمد ، أما الأئمة الثلاثة فيقدمون الديون على التجهيز ، وعلى هذا يكون التجهيز على أقارب الميت ، أو على من حضر من المسلمين ، أو على بيت المال .

قواعد عامة فى أحكام المواريث :

أولاً : أقارب الميت هم على الترتيب : البنوة - الأبوة - الحواشى هم : الإخوة الأشقاء ، ثم الإخوة للآباء ، ثم بنو الإخوة الأشقاء ، ثم بنو الإخوة للآباء ثم الأعمام ، ثم منهم الأعمام الأشقاء ، ثم بنو الأعمام للآباء وهؤلاء هم عصبة .

ثانياً : أما الإخوة لأم فليسوا من العصبة ؛ بل هم من أصحاب الفروض ، ففرض الأخ لأم ذكراً كان أو أنثى السدس ، وإذا تعددت الإخوة لأم فهم شركاء فى الثلث .

ثالثاً : العاصب إذا انفرد أخذ التركة كلها ، أما إذا تعدد فيقدم الأقرب فالأقرب كما ذكرنا ، وإذا كان معه صاحب فرض ، فيأخذ صاحب الفرض حقه أولاً والباقى للعاصب .

رابعاً : خمسة لا يسقطون بحال وهم : الأب ــ الأم ــ الزوج ــ الزوجة ــ ولد الصلب ذكراً كان أو أنثى .

خامساً : إن بنات الأعمام وبنات الإخوة والعمات لا يرثون ، لأنهم من ذوى الأرحام إلا إذا عدمت العصبة جميعهم .

سادساً : الأخ الشقيق يحجب الأخ للأب ، ولا يحجب الأخ لأم ، كذلك الأخ للأب لا يحجب الأخ لأم ، أنما الذى يحجب الأخ لأم أصل ذكر أو فرع ، ذكراً كان أو أنثى .

سابعاً : الإخوة والأخوات مع البنات عصبة ، بمعنى أن البنات يأخذن نصيبهن ، وهو الثلثان والبنت تأخذ النصف . والباقى للإخوة والأخوات للذكر مثل حظ الأنثيين .

ثامناً : البنت مع بنت الابن لها نصف التركة ، وبنت الابن لها السدس تكملة الثلثين ، وأما بنت الابن مع البنتين ، فليس لها حق فى الميراث ، إلا إذا وجد أخ يعصبها فيكون للذكر مثل حظ الأنثيين .
كذلك الأخت الشقيقة لها النصف والأخت لأب لها السدس تكملة الثلثين ، وعلى هـذا لا ترث الأخت لأب إلا إذا وجد أخ يعصبها ، فيكون للذكر مثل حظ الأنثيين .

تاسعاً : الأب يحجب الجد كما أن الجد الأقرب يحجب الجد الأبعد .

عاشراً : الأب لا يحجب الجدة إلا الجدة من جهته فقط .

الحادى عشر : الأم تحجب الجدات مطلقاً ، سواء كانت الجدات من جهة الأب أو الأم .

الثانى عشر : القربى من كل جهة تحجب البعدى من جهتها .

الثالث عشر : القربى من جهة الأم تحجب البعدى من جهة الأب ؛ ولا عكس ، بمعنى أن الجدة القربى من جهة الأب لا تحجب البعدى من جهة الأم بل يشتركان فى السدس على الصحيح .

الرابع عشر : الأجداد يشاركون الأخوات فى الميراث على رأى الجمهور ، وهناك طائفة من الصحابة وطائفة من التابعين والإمام أبو حنيفة يرون عدم توريث الإخوة والأخوات مع الأجداد .

الخامس عشر : قاتل الموروث لا يرث وكذلك الاختلاف فى الدين على رأى الجمهور وغير الجمهور[1] يورث المسلم الكافر ولا عكس .

السادس عشر : الأب نصيبه من الميراث السدس فرضاً والباقى تعصيباً وكذلك الجد .

السابع عشر : الأم لها الثلث إذا لم يوجد فرع وارث للميت ، أو أخوان فأكثر ذكوراً أو إناثاً ولو لم يكونوا وارثين ، وسواء كانوا أشقاء أو غير أشقاء وإلا فلها السدس .

الثامن عشر : الجدة نصيبها السدس .

التاسع عشر : للزوج نصف التركة إلا إذا كانت الزوجة لها ولد ذكراً أو أنثى فله الربع .

العشرون : للزوجة الربع إذا لم يكن للزوج ولد ولا بنت ، وإلا فلها الثمن والزوجات إذا تعددن يشتركن فى الربع أو الثمن .

الحادى والعشرون : إذا بقى شىء من التركة بعد استيفاء أصحاب الفروض يرد عليهم ما عـدا الزوج والزوجة .

---

(١) وهذا رأى معاذ ومعاوية

الثانى والعشرون : لا يرث ذوو الأرحام إلا إذا عدمت العصبة وتوريثهم (فى كتاب الميراث لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف) .

الثالث والعشرون : لا تقسم التركة إلا بعد تنفيذ الوصية ، ونريد بالوصية الشرعية ، فإذا كانت غير شرعية كأن كان فيها امتياز لبعض الورثة من غير سبب يقتضى ذلك ، أو فيها مخالفة للشرع الشريف ؛ كأن أوصى بأن تجعل له مقصورة ، أو ينصب له سرادق ، أو يدفن فى كفن من حرير ، وهكذا فلا ينفذ شىء منها .

والوصية لا تنفذ إلا بعد أداء الدين ، ولا تنفذ إلا فى ثلث ما بقى من بعد الديون ، ولا تنفذ فيما زاد على الثلث ، إلا بإجازة الورثة ، وإذا كانت لوارث لم ينفذ فيها شىء إلا بإجازتهم جميعاً .

وإذا اجتمعت الوصية بدين الله والوصية لأجنبى نفذتا معاً ؛ وسعهـا الثلث ، أو أجاز الـورثة ، فوسعهما الكل ، فإن لم يسعها الثلث أو الكل ؛ قسم عليهما بنسبة أسهمهما إذا كانتا مقدرتين لسهام وبعدد الجهات إن لم يكونا مقدرتين بها ، ولا يقدم أحد النوعين على الآخر ولا يجعل الوصايا التى لله جهة واحدة .

غفلة مستحكمة :

جرت العادات بأن من مات يحفظ من تركته حق الناس ، ولا يدخل فى حساب التركة حق الله تعالى كالزكاة والحج والنذر ، وهذا جحود وتقصير فى حق المتوفى ؛ ففى هذا عقوق له وتعذيب له .

وسواء وصَّى أو لم يوص ، نعم إذا لم يتمكن من أداء هذا الحق فى حياته ووصى بالأداء من التركة فلا ذنب عليه ، وإنما الذنب على الورثة إذا لم ينفذوها .

حق الورثة :

ما يبقى بعد هذه الحقوق الثلاثة هو حق الورثة ، وهم مرتبون فى الاستحقاق على الوجه الآتى :

١ ــ أصحاب الفروض وهم كل من له فرض مقدر فى كتاب الله كالزوج ، أو فى سنة رسـول الله ﷺ كالجدة ، أو بالإجماع كحلول الجد الصحيح محل الأب ، وحلول بنت الابن محل البنت .

٢ ــ العصبات النسبية : وهم من أقارب الميت الأقربين غير ذوى الفروض - كل من يأخذ من التركة - ما أبقته الفرائض ، ويأخذ جميع التركة عند الانفراد .

وإنما يقدم صاحب الفرض على العاصب ، إذا لم يكن محجوباً فإذا كان محجوباً لم يقدم عليه ، كالأخت مع الابن ، فإنها وإن كانت من ذوى الفروض وهو من العصبات لا تقدم عليه لأنها محجوبة به .

٣ ــ الرد على أصحاب الفروض غير الزوجين ، وذلك إذا بقى من التركة شىء بعد إلحاق الفرائض بأهلها ولم يوجد عاصب ، فيرد الباقى على من عدا الزوجين بنسبة سهامهم .

٤ ــ ذوو الأرحام : وهم الأقارب غير ذوى الفروض والعصبات ، كابن البنت والخال ، فلا يرثون إلا إذا انعدم أصحاب الفروض والعصبات ، أو كان من أصحاب الفروض ، أحد الزوجين فقط .

٥ ــ الرد على أحد الزوجين : إذا لم يوجد غيره من أصحاب الفروض والعصبات وذوى الأرحام .

تنبيه : ماذكرته فى أحكام المواريث بالنسبة للأبناء والأحفاد ؛ كان قبل الوصية الجبرية التى صدرت فى سنة **١٩٤٦** فقد ورثت الأحفاد الذين يموت والدهم فى حياة جدهم ، بشرط أن يكون الإرث فى دائرة الثلث ، وأن يكون للطبقة الأولى فقط لأولاد البنات أما أولاد الذكور فتكون لجميع الطبقات : الأقرب فالأقرب .

تفسير آيات الميراث :

بعد بيان الأحكام المتعلقة بالميراث ، نأخذ بعون الله تعالى فى تفسير النص الكريم الذى أنزله الله على عبده ورسوله ﷺ بشأن الميراث ؛ فنقول وبالله التوفيق : بعد أن بين سبحانه حكم الميراث مجملاً فى قوله : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ ذكر هنا تفصيل ذلك المجمل ، فبين أحكام المواريث وفرائضها ، لإبطال ما كان عليه العرب من نظام التوارث فى الجاهلية ؛ من منع الأنثى وصغار الأولاد وتوريث بعض من حرمه الإسلام من الميراث .

وقد كانت أسباب الإرث فى الجاهلية ثلاثة :

١ ــ النسب : وهو لا يكون إلا للرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون العدو ويأخذون الغنائم ، وليس للضعيفين المرأة والطفل من ذلك شىء .

٢ ــ التبنى : فقد كان الرجل يتبنى ولد غيره ؛ فيكون له أحكام الولد فى الميراث وغيره .

٣ ــ الحلف والعهد : فقد كان الرجل يقول لآخر ؛ دمى دمك وهدمى هدمك (أى إذا أهدر دمى أهدر دمك) وترثنى وأرثك ، وتطلب بى وأطلب بك ، فإذا فعلا ذلك ومات أحدهما قبل الآخر كان للحى ما اشترط من مال الميت .

فلما جاء الإسلام أقرهم على الأول والثالث دون الثانى ، فقال : ﴿ **ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ والمراد التوارث بالنسب وقال : ﴿ **والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم** ﴾ والمراد به التوارث بالعهد . وقال : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾[1] والمراد به التوارث بالتبنى .

وزاد شيئين آخرين :

١ ــ الهجرة ، فكان المهاجر يرث من المهاجر إليه وإن كان أجنبياً عنه إذا كان بينهما مخالطة وود ولا يرثه غير المهاجر من أقاربه .

---

(١) من الآية : ٤ من سورة الأحزاب .

٢ ـ المؤاخاة - كان رسول الله ﷺ يؤاخى بين كل أثنين من الرجال ، وكان ذلك سبباً للتوارث ؛ ثم نسخ التوارث بهذين السببين بقوله : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾[1] .

ثم استقر الأمر بعد نزول أحكام الفرائض على أن أسباب الإرث ثلاثة : النسب ، والنكاح ، والولاء .

وسبب نزول الآية ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى من حديث جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ، ولا تنكحان إلا ولهما مال ، فقال : (يقضى الله فى ذلك) فنزلت آية الميراث ﴿يوصيكم الله فى أولادكم﴾ الآية ، فأرسل رسول الله إلى عمهما فقال : «أعط بنتىْ سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك» قالوا وهذه أول تركة قسمت فى الإسلام .

صدقت يا رسول الله ﷺ لقد علمتنا ورغبتنا فى تعلم علم الفرائض ؛ فهو نصف العلم . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم ، وهو ينسى ، وهو أول شىء ينزع من أمتى) رواه ابن ماجه .

وقال البخارى عند تفسير هذه الآية يوصيكم الله فى أولادكم ﴿ عن جابر بن عبد الله قال : عادنى رسول الله ﷺ وأبو بكر فى بنى سَلِمَة ماشيين ، فوجدنى النبى ﷺ لا أعقل شيئا ، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش على فأفقت ، فقلت : ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول الله . فنزلت ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين »[2] . ومعنى : ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم** ﴾ أى يأمركم بالعدل فيهم ، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم فى أصل الميراث ، وفاوت بين الصنفين ؛ فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة . والكلفة ، ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق ، فناسب أن يعطى ضعفى ما تأخذه الأنثى .

وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى : ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، حيث أوصى الوالدين بأولادهم ، فعلم أنه أرحم بهم منهم ، كما جاء فى الحديث الصحيح ؛ وقد رأى امرأة من السبى فُرِّق بينها وبين ولدها ، فجعلت تدور على ولدها ، فلما وجدته من السبى أخذته ، فألصقته بصدرها وأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : (أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك) . قالوا : لا يا رسول الله ! قال : (فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها) .

قال البخارى رواية عن ابن عباس ، قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل

(١) من الآية : ٦ من سورة الأحزاب .

(٢) ورواه مسلم بمثله ، وزاد الترمذى : فقلت يانبى الله كيف أقسم مالى بين ولدى ؟ فلم يرد علىَّ شيئا فنزلت : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ الآية

للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع وإنما قال تعالى : ﴿ مثل حظ الأنثيين ﴾ أى للذكر منهم نصيب اثنتين من إناثهم ، إذا كانوا ذكوراً وإناثاً .

واختير هذا التعبير ولم يقل للأنثى نصف حظ الذكر إيماء إلى أن إرث الأنثى كأنه مقرر معروف ، وللذكر مثله مرتين ، وإشارة إلى إبطال ما كانت عليه العرب فى الجاهلية من منع توريث النساء .

والحكمة فى جعل حظ الذكر كحظ الأنثيين أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه وعلى زوجه فجعل له سهمان ، وأما الأنثى فهى تنفق على نفسها فحسب فإن تزوجت كانت نفقتها على زوجها .

ويدخل فى عموم الأولاد :

١ ـ الكافر لكن السنة بينت أن اختلاف الدين مانع من الإرث قال عليه الصلاة والسلام (لا يتوارث أهل ملتين) .

٢ ـ القاتل عمداً لأحد أبويه ، ويخرج بالسنة والإجماع .

٣ ـ الرقيق : وقد ثبت منعه بالإجماع لأن المملوك لا يملك بل كل ما يصل إلى يده من المال فهو ملك لسيده ومالكه ، فلو أعطيناه من التركة شيئا كنا معطين ذلك للسيد ، فيكون هو الوارث بالفعل .

٤ ـ الميراث من النبى ﷺ فقد استثنى بحديث : (نحن معاشر الأنبياء لا نورث)[١] .

قوله تعالى : ﴿ **فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف** ﴾ أفاد هذا النص الكريم أن للبنت الصلبية ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى : أن ترث بطريق التعصيب كما قال الله تعالى : ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ .

الحالة الثانية : أن الثلثين للأنثيين فأكثر ، إذا لم يكن معهن ابن أو أكثر قال ابن قدامة : أجمع أهل العلم على أن فرض البنتين الثلثان .

الحالة الثالثة : النصف للواحدة ، قال تعالى : ﴿ **وإن كانت واحدة فلها النصف** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث** ﴾ .

أحوال الأب :

للأب ثلاثة أحوال : حالة يرث فيها بطريق الفرض ، وحالة يرث فيها بالتعصيب وحالة يرث فيها بالفرض والتعصيب معاً .

---

(١) رواه الترمذى عن الحارث عن على كرم الله وجهه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قضى الدين قبل الوصية ..
وروى الدارقطنى من حديث عاصم بن ضمره عن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين قبل الوصية وليس لوارث وصية »

الحالة الأولى :

يرث فيها بطريق الفرض ؛ إذا كان معه فرع وارث مذكر منفرداً ، أو مع غيره ، وفى هذه الحالة فرضه السدس .

الحالة الثانية :

يرث فيها بطريق التعصيب ؛ إذا لم يكن للميت فرع وارث مطلقاً ، مذكراً كان أم مؤنثاً ، فيأخذ كل التركة إذا انفرد ، أو الباقى من أصحاب الفروض إن كان معه أحد منهم .

الحالة الثالثة :

يرث فيها بطريق الفرض والتعصيب معاً ، وذلك إذا كان معه فرع وارث مؤنث ، وفى هذه الحال يأخذ السدس فرضاً ؛ ثم يأخذ الباقى من أصحاب الفروض تعصيباً .

أحوال الأم :

١ ــ تأخذ السدس ، إذا كان معها ولد أو ولد ابن أو اثنان من الإخوة أو الأخوات . مطلقاً سواء أكانوا من جهة الأب والأم ، أم من جهة الأب أو من جهة الأم .

٢ ــ تأخذ ثلث جميع المال ، إذا لم يوجد أحد ممن تقدم ذكرهم .

٣ ــ تأخذ ثلث الباقى ، عند عدم من ذكر بعد فرض أحد الزوجين ، وذلك فى مسألتين تسميان بالغراوين .

الأولى : فى حالة ما إذا ترك زوجاً وأبوين ، والثانية : ما إذا ترك زوجين وأبوين .

قوله تعالى : ﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين** ﴾ أى يوصيكم بأن لأولاد من يموت منكم كذا من التركة ، ولأبويه كذا منها ، من بعد وصية يقع الإيصاء بها من الميت ، ويتحقق نسبتها إليه ، ومن بعد قضاء دين يتركه عليه وقدمت الوصية على الدين فى الذكر مع أن الدين مقدم عليها وفاء ، كما قضى به رسول الله ﷺ فيما رواه على[1] كرم الله وجهه ، وأخرجه عنه جماعة ، لأنها تؤخذ كالميراث بلاعوض فتشق على الورثة وجاء عطف الدين على الوصية بأو دون الواو إشارة إلى أنهما متساويان فى الوجوب متقدمان على قسمة التركة مجموعين أو منفردين .

قوله تعالى : ﴿ **آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً** ﴾ أى أنكم لا تدرون أى الفريقين أقرب لكم نفعاً آباؤكم أو أبناؤكم ! ؟ فلا تتبعوا فى قسمة التركات ما كان يتعارفه أهل الجاهلية ؛ من إعطائها للأقوياء الذين يحاربون الأعداء ، وحرمان الأطفال والنساء ، لأنهم من الضعفاء ، بل اتبعوا ما أمركم الله به ، فهو أعلم منكم بما هو أقرب نفعاً لكم ، مما تقوم به فى الدنيا مصالحكم وتعظم به فى الآخرة أجوركم .

﴿ فريضة من الله ﴾ أى فرض الله ما ذكر من الأحكام فريضة لا هوادة فى وجوب العمل بها .

﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أى إنه تعالى لعلمه بشئونكم ، ولحكمته العظيمة ، لا يشرع لكم إلا ما فيه المنفعة لكم ، إذ لا تخفى عليه خافية من وجوه المصالح والمنافع ، إلى أنه منزه عن الغرض والهوى ؛ اللذين من شأنهما أن يمنعا من وضع الشىء فى غير موضعه ، ومن إعطاء الحق لمن يستحقه .

حالة الزوج :

قال تعالى : ﴿ **ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين** ﴾ ذكرت هذه الآية أن للزوج حالتين :

الحالة الأولى : يرث فيها النصف ، وذلك عند عدم وجود الفرع الوارث وهو الابن وإن نزل ، والبنت وبنت الابن وإن نزل أبوهما ، سواء أكان منه أم من غيره .

الحالة الثانية : يرث فيها الربع عند وجود الفرع الوارث .

ميراث الزوجة :

قال الله تعالى : ﴿ **ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين** ﴾ إن للزوجة حالتين :

الحالة الأولى : استحقاق الربع عند عدم وجود الفرع الوارث سواء أكان منها أم من غيرها .

الحالة الثانية : استحقاق الثمن عند وجود الوارث ، وإذا تعددت الزوجات إذا اقتسم الربع أو الثمن بينهن بالسوية .

الزوجة المطلقة : والزوجة المطلقة طلاقاً رجعياً ترث من زوجها إذا مات قبل انتهاء عدتها ، ويرى الحنابلة توريث المطلقة قبل الدخول والخلوة من مطلقها فى مرض الموت إذا مات فى مرضه ما لم تتزوج ، وكذلك بعد الخلوة ما لم تتزوج ، وعليها عدة الوفاة .

أحوال الأخ لأم :

قال تعالى : ﴿ **وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم** ﴾ .

الكلالة من لا والد له ، ولا ولد ذكراً أو أنثى ، والمقصود بالأخ أو الأخت هنا الإخوة لأم ، ويتبين من الآية أن لهم أحوالاً ثلاثة :

١ ـ أن السدس للشخص الواحد ، سواء أكان ذكراً أم أنثى .

٢ ـ أن الثلث للاثنين فأكثر يستوى فيه الذكور والإناث .

٣ ـ لا يرثون شيئاً مع الفرع الوارث : كالولد ، وولد الابن ، ولا مع الأصل الوارث للذكر ، كالأب ، والجد ، فلا يحجبون بالأم أو الجدة .

كلمة عن الوصية :

قال الإمام النخعى : قبض رسول الله ﷺ ولم يوص (ومعنى هذا أن الرسول ﷺ لم يكن فى حاجة إلى أن يوصى ذلك لأن ما تركه ﷺ بعد وفاته فهو صدقة حيث قال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة [١] .

وقبض أبو بكر وقد وصى ، فإن أوصى الإنسان فحسن ، وإن لم يوص فحسن أيضاً ، ومن الحسن أن ينظر الإنسان فى قدر ما يخلف ومن يخلف ؛ ثم يجعل وصيته بحسب ذلك ، فإن كان ماله قليلاً وفى الورثة كثرة لم يوص وإن كان فى المال كثرة أوصى بحسب ماله ، وبحسب حاجاتهم بعده كثرة وقلة .

وقد روى عن على أنه قال : لأن أوصى بالخمس أحب إلى من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلى من أن أوصى بالثلث ، والضرار فى الوصية والدين يقع على وجوه :

١ ــ أن يوصى بأكثر من الثلث ، وهو لا يصح ولا ينفذ ، وعن ابن عباس أن الضرار فيها من الكبائر .

٢ ــ أن يوصى بالثلث فما دونه ، لا لغرض من القربة والتصدق لوجه الله ، بل لغرض تنقيص حقوق الورثة .

٣ ــ أن يقر بدين لأجنبى يستغرق المال كله أو بعضه ، ولا يريد بذلك إلا مضارة الورثة ، وكثيراً ما يفعله المبغضون للوارثين ، ولا سيما إذا كانوا كلالة ومن ثم جاء ذكر هذا القيد ﴿ غير مضار ﴾ فى وصية ميراث الكلالة ، لأن القصد إلى مضارة الوالدين أو الأولاد ، وكذا الأزواج نادر .

٤ ــ أن يقر بأن الدين الذى كان له على فلان قد استوفاه ، ووصل إليه .

﴿ وصية من الله ﴾ أى يوصيكم بذلك وصية منه عز وجل ، فهى جديرة أن يعتنى بها ويذعن للعمل بموجبها .

﴿ والله عليم حليم ﴾ أى : ﴿ والله عليم ﴾ بما ينفعكم ، وبنيات الموصين منكم ، ﴿ حليم ﴾ لا يعجل بعقوبتكم بمخالفة أحكامه ، ولا بالجزاء على مخالفتها عسى أن تتوبوا ، كما لا يبيح لكم أن تعجلوا بعقوبة من تبغضونه ، فتضاروه فى الوصية ، كما لا يرضى لكم بحرمان النساء والأطفال من الإرث .

وفى هذا إشارة إلى أنه تعالى قد فرضها ، وهو يعلم ما فيها من الخير والمصلحة لنا ، فمن الواجب أن نذعن لوصاياه وفرائضه ، ونعمل بما ينزل علينا من هدايته كما لا ينبغى أن يغر الطامع فى الاعتداء وأكل الحقوق ، تمتع بعض المعتدين بما أكلوا بالباطل ، فيظن أنهم بمنجاة من العذاب ، فيتجرأ على مثل ما تجرءوا عليه من الاعتداء ، فإنه إمهال يقتضيه الحلم لا إهمال من العجز وعدم العلم .

الحقوق المتعلقة بالتركة :

بعد تفسير الآيتين الكريمتين المتعلقتين بأحكام الميراث ، نرى أن نبين الحقوق المتعلقة بالتركة ؛ حتى يكون المسلم على بصيرة من أحكام الإسلام ، وحتى لا تزل قدم بعد ثبوتها .

---

(١) رواه الشيخان

قال الفقهاء : الحقوق المتعلقة بالتركة أربعة وهى كلها ليست بمنزلة واحدة ، بل بعضها أقوى من بعض ، فيتقدم على غيره فى الإخراج من التركة على الترتيب الآتى :

١ ـ الحق الأول : يبدأ من تركة الميت بتكفينه وتجهيزه .

٢ ـ الحق الثانى : قضاء ديونه .

٣ ـ الحق الثالث : تنفيذ وصيته من ثلث الباقى ؛ بعد قضاء الدين .

٤ ـ الحق الرابع : تقسيم ما بقى من ماله بين الورثة .

الترهيب من الدين :

الإسلام دين يدعو إلى حسن المعاملة ، قال رسول الله ﷺ : (رحم الله عبدا سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى سمحاً إذا اقتضى)[1] ومن عظمة الإسلام أنه يحافظ على الدّيْن والنفس والعقل والمال والعرض ، ومن المحافظة على مال العباد نرى أن الله جلت قدرته لما أعطى الورثة حقوقهم قال : ﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين** ﴾ وقال : ﴿ **من بعد وصية يوصين بها أو دين** ﴾ وقال : ﴿ **من بعد وصية توصون بها أو دين** ﴾ وقال : ﴿ **من بعد وصية يُوصَى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم** ﴾ إذاً فللدين خطورته ، ولما تفشى بين الناس أكل الديون ، والمماطلة فى أدائها . كان لابد أن نعيش مع أقوال الصادق المعصوم التى حذر فيها من أكل أموال الناس بالباطل ، والمماطلة فى أداء حقوق العباد .

١ ـ عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أعوذ بالله من الكفر والدين) فقال الرجل : يا رسول الله أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : (نعم) رواه النسائى .

المفردات : **الكفر** : الإشراك بالله وجحود نعمه .

الدين : الإستدانه وأخذ المال من الغير سلفة ، وقد رهب ﷺ من الدين حتى ساوى عقابه الكفر والطغيان

أتعدل الكفر بالدين قال : « نعم » أى الدين مثل الكفر يدعو إلى الذلة والمسكنة ، ويجلب العار والدمار والشقاء ، ويبعد المروءة والشهامة ويضع المستدين فى سلاسل الأسر والتحقير وفى عدمه طلب الاقتصاد والرغبة فى التوفير .

٢ ـ وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال : « الدّيْن راية الله فى الأرض فإذا أراد أن يُذِلّ عبداً وضعه فى عنقه » . رواه الحاكم .

٣ ـ عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يوصى رجلاً فيقول له : (أقل من الذنوب يهن عليك الموت ، وأقل من الدين تعش حراً) . رواه البيهقى .

٤ ـ وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، أنه سمع النبى ﷺ يقول : (لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها ، قالوا : (وماذاك يا رسول الله ؟ قال : « الدين ») رواه أحمد .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى

٥ ـ وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة : الغلول ، والدين ، والكبر) رواه الترمذى .

المفردات : الغلول : السرقة من المغنم . الدين : أخذ مال الغير استدانة . الكبر : الخيلاء ، والبطر ، والعجب ، والكبرياء ، هذه صفات ذميمة من ابتعد عنها فاز بالجنة .

٦ ـ وعن أبى أمامة رضى الله عنه مرفوعاً : (من تداين بدين وفى نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه ، وأرضى غريمه بما شاء ، ومن تداين بدين وليس فى نفسه وفاؤه ثم مات اقتص الله عز وجل لغريمه يوم القيامة) رواه الحاكم .

المفردات : تجاوز : عفا الله عن ذنوبه التى ارتكبها من جراء ضياع حقوق غيره . أرض غريمه : دائنه : بأن زاد فى حسناته وكافأه وأغدق عليه من نعيمه . اقتص : عذبه : لأنه أخذ وفى نفسه الغدر والنكث والخيانة ، ففيه طلب حسن النية وعقد العزيمة على الوفاء عند الميسرة .

٧ ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله) . رواه البخارى .

المفردات : من أخذ أموال الناس : أى تسلمها بوجه من وجوه التعامل كالقرض أو للحفظ وديعة لله أو غير ذلك ، حال كونه ينوى ردها . أتلفه الله : أى أتلف أمواله فى الدنيا بكثرة المصائب ، ومحق البركة ، أو المراد إتلاف نفسه فى الدنيا ، أو تعذيبه فى الآخرة .

وفى الفتح[1] : وظاهره يحيل المسألة المشهورة ؛ فيمن مات قبل الوفاء بغير تقصير منه ، كأن يعسر مثلاً أو يفاجئه الموت ، وله مال مخبوء ، وكانت نيته وفاء دينه ، ولم يوف عنه فى الدنيا والظاهر أن لا تبعة عليه ، والحالة هذه فى الآخرة بحيث يؤخذ من حسناته لصاحب الدين . بل يكتفى الله عنه لصاحب الدين .

(قوله أتلفه الله) ظاهره أن الإتف يقع له فى الدنيا وذلك فى معاشه أو فى نفسه ، وهو علم من أعلام النبوة ، لما تراه بالمشاهدة ممن يتعاطى شيئاً من الأمرين .

وقيل المراد بالإتلاف عذاب الآخرة : قال ابن بطال : فيه الحض على ترك استئكال أمر الناس ، والترغيب فى حسن التأويه إليهم عند المدينة ، وأن الجزاء قد يكون من جنس العمل .

وقال الدوادى ، فيه أن من عليه دين لا يعتق ولا يتصدق وإن فعل رد أ .هـ . [جـ ٥ص ٣٥ الفتح] .

٨ ـ وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (من حمل أمتى ديناً ثم جهد فى قضائه ثم مات قبل أن يقضيه فأنا وليه) رواه أحمد . (أنا وليه) أى أنا الذى أدفع عنه .

---

(١) شرح البخارى

٩ ـــ وعنها رضى الله عنها أنها كانت تداين فقيل لها : ما لك وللدين ؟ ولك عنه مندوحة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان له من الله عون) . فأنا التمس ذلك العون . رواه أحمد .

المفردات : مندوحة : خلاص أو مهرب . عون : مساعد .

١٠ ـــ وعن عمران بن حصين ، رضى الله عنهما ، قال : كانت ميمونه تدَّان فتكثر ، فقال لها أهلهافى ذلك ولاموها ، فقالت : لا أترك الدين وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من أحد يدان ديناً يعلم الله أنه يريد قضاءه ألا أداه الله عنه فى الدنيا) . رواه النسائى .

١١ ـــ وعن صهيب الخير رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (أيما رجل تديَّن ديناً وهو مجمع أن لا يوفيه إياه لقى الله سارقاً) . رواه ابن ماجه والبيهقى .

١٢ ـــ وعن القاسم مولى معاوية رضى الله عنه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : (من تدين بدين وهو يبد أن يقضيه حريص على أن يؤديه ، فمات ولم يقض دينه ؛ فإن الله قادر على أن يرضى غريمه بما شاء من عنده ، ويغفر للمتوفى ، ومن تدين بدين وهو يريد أن لا يقضيه ؛ فمات على ذلك ولم يقض دينه فإنه يقال له : أظننت أن لن نوفى فلانا حقه منك ؟ فيؤخذ من حسناته فيجعل زيادة فى حسنات رب الدين . فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات رب الدين فجعلت فى سيئات المطلوب) . رواه البيهقى .

١٣ ـــ وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته ليس ثم دينار ولا درهم) رواه ابن ماجه .

١٤ ـــ وعن محمد بن عبد الله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعداً حيث توضع الجنائز ، فرفع رأسه قبل السماء ، ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته ، فقال : سبحان الله ، سبحان الله ، ما أنزل من التشديد ، قال فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد ، سألت رسول الله ﷺ فقلنا ما التشديد الذى نزل ؟ قال : (فى الدَّيْن ، والذى نفسى بيده لو قُتِل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى دينه) . رواه النسائى .

المفردات : يؤدى : والمعنى أن المجاهد مهما أصاب وجاهد فلا يدخل الجنة حتى يسدد دينه ، وفيه الترهيب من الدين ، وأن عقابه صارم ويدخل النار ، ولو كان المدين صالحا مجاهداً .

١٥ ـــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه : (أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ! فقال : أئتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيداً ، فقال : فائتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلا ، قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركبا يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجّله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها ؛ فأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفة منه إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم

أنى تسلفت فلانا ألف دينار ، فسألنى كفيلا ، فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك ، وسألنى شهيدا فقلت : كفى بالله شهيداً فرضى بك ، وإنى اجتهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى أستودعكها فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله ، فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه ، وأتى بالألف دينار ، فقال : والله مازلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك ؛ فما وجدت مركبا قبل الذى جئت فيه ، قال : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئت فيه قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشداً) . رواه البخارى .

شرح الحديث :

أن رجلاً اقترض مبلغاً من آخر إلى زمن معلوم ، ولما آن أوان السداد ذهب إلى البحر فلم يجد مركباً فأتى بخشبة ووضع المبلغ فيها ورماها فى البحر ثقة بالله تعالى ، وهو نعم الشهيد الكفيل ، والدائن ينتظر مدينه على الميناء ، فرأى خشبة ، فأخذها للدفء ، فوجد فى وسطها الأمانة والرسالة .

هذه حادثة يرويها لنا سيدنا رسول الله ﷺ ، عن صالحين مؤمنين معتمدين على الله جلَّ وعلا ، أشرق نور الإيمان بالله تعالى فى قلوبهما وسطعت تعاليم نبيهما فى ذلك الوقت ، فهل فينا الآن هذا الإيمان وحب الخير والتوكل على الله ؟ ! وقضاء الحاجات ابتغاء ثواب الله ؟ والوفاء والصدق ورد الودائع ؟ وقد قال الله تعالى فينا : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[1] اكتسبت الأمة الشرف العظيم ، والتفوق الباهر ، والخيرية من رسولها الصادق الأمين سيدنا محمد ﷺ ؛ الذى حكى لنا فعل رجلين من بنى إسرائيل ، رجاء أن نعمل مثلهما ، ونتقى الله ونثق به ، وندعوه رغباً ورهباً ونخشاه ، قال تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾[2] وفى البخارى فى باب الكفالة فى القرض والديون بالأبدان وغيرها فروى هذا الحديث .

وفى الفتح : فى الحديث جواز الأجل فى القروض ، ووجوب الوفاء به ، وقيل : لا يجب ؛ بل هو من باب المعروف ، وفيه التحدث عما كان فى بنى إسرائيل وغيرهم من العجائب ، للاتعاظ والأتتساء ، وفيه جواز التجارة فى البحر وجواز ركوبه ، وفيه بداءة الكاتب بنفسه ، وفيه طلب الشهود فى الدين ، وطلب الكفيل به ، وفيه فضل التوكل على الله تعالى وأن صح توكله تكفل الله بنصره وعونه أ . هـ [الفتح] .

١٦ ــ وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تزوج امرأة على صداق ، وهو ينوى أن لا يؤديه إليها ، فهو زان ! ومن أدان ديناً وهو ينوى أن لا يؤديه إلى صاحبه أحسبه قال فهو سارق) . رواه البزار وغيره .

---

(١) من الآية : ١١٠ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية : ٥٨ من سورة النساء .

المفردات : صداق : مهر . زان : مرتكب الفاحشة . سارق : خائن مجرم يأكل أموال الناس بالباطل .

١٧ ــ وعن ميمون الكردى عن أبيه رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ؛ ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها ، خدعها ، فمات ولم يؤد إليها حقها ، لقى الله يوم القيامة وهو زان ، وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه ، خدعه ، حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقى الله وهو سارق) . رواه الطبرانى .

١٨ ــ وعن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : (يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه ؛ فيقال : يا ابن آدم : فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يا رب : إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم ألبس ، ولم أضيع ولكن أتى على : إما حرق ، وإما سرق ، وإما وضيعة ، فيقول الله : صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك ، فيدعو الله بشىء فيضعه فى كفة ميزانه ؛ فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته) . رواه أحمد والطبرانى .

١٩ ــ وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الدين يقتضى من صاحبه يوم القيامة إذا مات ، إلا من تدين فى ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته فى سبيل الله ؛ فيستدين بتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد بما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة ؛ فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة) . رواه ابن ماجه .

٢٠ ــ وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله مع الدائن حتى يقضى دينه ، ما لم يكن فيما يكرهه الله) . قال : كان عبد الله بن جعفر يقول لخازنه : اذهب فخذ لى بدين ، فإنى أكره أن أبيت ليلة إلا والله معى ، بعد إذ سمعته من رسول الله ﷺ : رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

٢١ ــ وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ؛ فقد ضار الله فى أمره ، ومن مات وعليه دين ، فليس ثَم دينار ولا درهم ، ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال فى مؤمن : ما ليس فيه حبس فى ردغة (طعام أهل النار) الخبال ، حتى يأتى بالمخرج مما قال) . رواه الحاكم .

المفردات والشرح : حالت : منعت عقاباً فى الانتقام وتنفيذ أوامر الله . ضاد الله : كان لله عدواً وضداً ، وأعلن الحرب على الله تعالى ، لأنه ساعد المجرمين ، وضيع حقوق الله فى وساطة ! قال تعالى : ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين * كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز * لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى

الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[١] . أى الذين يحادون الله هم العصاة . والفساق ، ووسطاء السوء وشفعاء الأشرار ، لذهاب معالم الحق وتفشى الباطل ، وضياع مظاهر العدل ، وإخفاء الأنوار المضيئة فى البر والخير ، فجند الله أنصار الحق .

من حاد الله : أى خالفه وعاداه ، أى من الممتنع أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين ، والمراد أنه لا ينبغى أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ، ولا يوجد بحال مبالغة فى الزجر من مجانبه أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم أ . هـ [نسفى] .

وأنا أعد شركاء المجرمين شركاء لهم فى الذنب ، وقال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾[٢] .

ينزع : يرجع والمعنى أن الذى يميل إلى النفاق والباطل وعصيان الله ؛ يستمر غضب الله ينصب عليه حتى يتوب إلى الله ، ويعترف بالحق وينصره ويدافع عنه .

٢٢ ــ وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (ها هنا أحد من بنى فلان) ؟ فلم يجبه أحد ثم قال : « ها هنا أحد من بنى فلان » ؟ فلم يجبه أحد ثم قال : (ها هنا أحد من بنى فلان) ؟ فقام رجل فقال : أنا يا رسول الله فقال : (من منعك أن تجيبنى فى المرتين الأوليين ؟) قال : (إنى لم أنوه بكم إلا خيراً ، إن صاحبكم مأسور بدينه) . فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشىء . رواه أبو داود ، والنسائى .

٢٣ ــ عن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة) . رواه الطبرانى .

٢٤ ــ عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه عبد - بعد الكبائر التى نهى الله عنها - أن يموت رجل وعليه دين ؛ لا يدع له قضاء) . رواه أبو داود .

٢٥ ــ وعن شفى بن ماتع الأصبحى رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : (أربعة يؤذون أهل النار على مابهم من الأذى : يسعون ما بين الحميم والجحيم ، يدعون بالويل والثبور ، يقول بعض أهل النار لبعض : ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى ، قال : فرجل معلق عليه تابوت من جمر ، ورجل يجر أمعاءه ، ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً ، ورجل يأكل لحمه ، فيقال لصاحب التابوت ، ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؛ فيقول إن الأبعد مات وفى عنقه أموال الناس لا يجد له قضاء أو وفاء) .

٢٦ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : (نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه) . رواه أحمد والترمذى .

---

(١) الآيات : ٢٠ - ٢٢ من سورة المجادلة .
(٢) الآية : ١٤ من سورة النساء .

٢٧ ــ وعن جابر رضى الله عنه ، قال : توفى رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ، ثم آتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا : تصلى عليه فخطا خطوة ؛ ثم قال : (أعليه دين ؟ قلنا ديناران فانصرف فتحملهما أبو قتادة فأتيناه ، فقال أبو قتادة : الديناران علىّ ، فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم ، وبرئ منهما الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ، ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت : إنما مات أمس قال : فعاد إليه من الغد ؛ فقال : قد قضيتهما ، فقال رسول الله ﷺ : (الآن بردت جلدته) . رواه أحمد بإسناد حسن . [**الترهيب من مطل الغنى ، والترغيب فى إرضاء صاحب الدين**] .

٢٨ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم ، وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع)[1] رواه البخارى .

المفردات : مطل : تأخير الحق وتسويف دفعه للدائن . الغنى : القادر على سداد الدين لديه بعد استحقاقه . ظلم : محرم عليه ، وخرج بالغنى العاجز عن الوفاء ، قال الشرقاوى : ولفظ المطل يشعر بتقدم الطلب ، فيؤخذ منه أن الغنى لو أخر الدفع مع عدم طلب صاحب الحق له لم يكن ظلماً .

حكى أصحابنا وجهين أن مطل الغنى عزيمة من إضافة المصدر للفاعل ، وقيل من إضافته للمفعول ، والمعنى أنه يجب وفاء الدين ، وإن كان مستحقه غنياً ، ولا يكون غناه سبباً لتأخره عنه ، وإذا كان كذلك فى حق الغنى فهو فى حق الفقير أولى .

٢٩ ــ وعن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يحب الله الغنى الظلوم ، ولا الشيخ الجهول ، ولا الفقير المختال) .

٣٠ ــ وروى عن خولة بنت قيس - امرأة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما - قالت : قال رسول الله ﷺ : (ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيف الحق من قويها غير متعتع) ثم قال : (من انصرف غريمه وهو عنه راض صلت عليه دواب الأرض ونون الماء ، ومن انصرف غريمه وهو ساخط ، كتب عليه فى كل يوم وليلة وجمعة وشهر ظلم) . رواه البخارى .

فقه الأحاديث :

أولاً : الدين يعادل فى العقاب الكفر فى الذلة والإهانة ، وغلبة الدائن وسلطته على المدين .

ثانياً : الدين راية الضعف والمسكنة ترفرف على المدين بضعته .

ثالثاً : عدم الدين يجلب السعادة ، وتنسم الحرية ، والشعور بالكرامة والمروءة (أقلل من الدين) .

رابعاً : عدم الاستدانة بشارة الاستقامة ، وعنوان الهداية وطريق الجنة .

خامساً : ترك الدين فى الرخاء أحسن ، خشية أن يستدين فلا يجد ما يؤدى به ، وبذا يدخل جهنم

---

(١) وفى بعض الروايات « مطل الواجد ظلم »

بسبب دينه ، وتؤخذ حسناته للدائن وتطرح عليه سيئاته أيضاً ، انتقاماً منه وترضية لصاحب الدين .

سادساً : كثرة الاستدانة تجلب الفقر ، وتنزع البركة من المال ، وتنذر بالخراب والخسران (أتلفه الله) .

سابعاً : جواز الاستدانة عند الحاجة فقط ، شريطه نية الوفاء وحسن الأداء .

ثامناً : قضاء حاجات الناس ، وفك كروبهم محمدة ومجلبة للخير ، ورضوان الله .

تاسعاً : من أخذ مال الناس بنية عدم الوفاء ، كالغصب والنهب (لقى الله سارقاً) .

عاشراً : الزوج اذا لم يدفع المهر لزوجته فهو آثم ، وعيشته معها محرمة ، وهو عاص ربه (زان) .

الحادى عشر : لو مات المجاهد الذى أبلى بلاء حسناً فى نصر دين الله « وعليه دين ما دخل الجنة » .

الثانى عشر : توطيد العزيمة على حسن الأداء ، سعادة ومحبة من الله ، وأدعى لرحمته وزيادة البركة فى ماله . ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

الثالث عشر : المستدين لحاجة يؤدى الله عنه دينه ويكرمه ، (صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك) .

الرابع عشر : الدائن الذى يزيل كرب الناس ؛ مشمول بعز الله ورحمته (الله مع الدائن) .

مايريده ﷺ من المدين والدائن ونتائج اتباع نصائحه ﷺ :

أولاً : عدم المماطلة وترك التسويف ، إذا كان قادراً على الدفع .

ثانياً : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأدى دينه .

ثالثاً : حسن معاملة الدائن ليتجنب المدين سب عرضه وشتمه وغيبته .

رابعاً : كل من قدر على أداء ما افترض ، ولم يف ؛ حشر مع الظالمين وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين ، وحل عليه غضب الله وكراهته .

خامساً : المدين المماطل يجلب لأمته الدمار والوباء والخسران ، ويوقعها فى الذنوب المهلكة ، ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها ، أى طهرها من الخطايا .

سادساً : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ، ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع .

سابعاً : المقصر فى الأداء الذى هجر دائنه وأغضبه ، سجلت عليه الآثام بكرور الأزمان ، ثم ضرب ﷺ المثل الأعلى لوفائه وحلمه وحسن أدائه « يا خولة عديه واقضيه » ثم وسع خلقه ذلك الأعرابى الجاف الفظ الغليظ ، الذى اشتد عليه حتى قال : « أخرج عليك إلا قضيتنى » أى أعلن عليك الحرب وأشق عصا طاعتك إن لم تؤد حقى !! مسكين أيها الأعرابى شىء قليل أقترضه منك سيدنا رسول الله ﷺ ، وجئت

وليس عنده شيء مطلقاً لكن أبي كرمه ﷺ إلا أن يكرم وفادته ويغدق عليه بإحسانه ويرد ما أخذه مضاعفاً ، ثم دعا ﷺ الأعرابي : « أوفيت أوفى الله عنك » .

هكذا تكون مكارم الأخلاق وحسن الأداء مع البشاشة واللطف والجود ، وهنا درس مفيد وعظة بالغة لعلنا نعمل بها ، ونتخلق بأخلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، يريد أصحابه أن يردوا جهل ذلك الأعرابي ويفهموه درجة السفير الأعلى المصطفى ﷺ ، فحضهم ﷺ على نصر الضعيف ومجاراة الحق ، والأخذ بيد الضعيف ، وهلا مع صاحب الحق كنتم » أرأيت أبدع من هذا ؟ يحض أصحابه ﷺ أن يكونوا فى صف صاحب الحق مهما سمت درجة المدين ، وقويت شوكته وعز سلطانه .

والأبدع من هذا أن خير الخلق زاهد راغب عن حطام الدنيا مستغرق فى طاعة الله ؛ فقرض من الأعرابى ، ثم قرض من خولة ما يؤدى به حق الأعرابى حتى أفرحه وأكسبه رضاه ، ولم يخرج من عند رسول الله ﷺ إلا وهو مبتسم جذل فرح ، ترفرف عليه راية الوفاء وحسن الأداء وطيب القضاء .

ثم قال ﷺ : (أولئك خيار الناس) أى الذين يدافعون عن الحق وينضمون إلى أصحاب الحق ويساعدون على تنفيذه ، وكذا دافع الحق بسهولة من صفات الأبرار الصالحين ، أفاضل الخلق وأطايبهم وأحسنهم ، فعليك أخى بحسن المعاملة ودفع ما عليك من الديون بالتى هى أحسن ، والتخلق بأخلاق نبيك ورسولك ﷺ فتفى بوعدك وتنجز ما عاهدت عليه ، وتتقى الله وتخشاه وتحسن كما أحسن الله إليك قال تعالى : ﴿ من كان يريد الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾[1] .

الآيات الدالة على إحسان الله إلى المتقين المؤمنين الذين يرعون حقوق الناس بالحق ويؤدونه :

(أ) قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾[2] .

يعنى البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ويؤخذ منها العمل بكتابه وتنفيذ أوامره واجتناب مناهيه ومنه رد الأمانة ﴿ **بعد توكيدها** ﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿ **كفيلاً** ﴾ أى شهيداً شاهداً بتلك البيعة ، فإن الكفيل مراع لحال المكفول به ، رقيب عليه ، وقد اطلعت أيها المسلم على حديث رجل من بنى إسرائيل ورأيت حفظ الله ماله الذى رماه فى البحر فى خشبة .

وقال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن

---

(١) الآية : ٢٠ من سورة الشورى .

(٢) الآية : ٩١ من سورة النحل .

تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[٢] .

(ب) قال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾[٣] .

(جـ) قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾[٤] .

(د) قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[٥] .

(هـ) قال تعالى : ﴿ ذلك إن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغنى ذو الرحمة ﴾[٦] .

ذلك إشارة إلى إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه ، أو ملتبسين بظلم وهم غافلون ، لم ينبهوا برسول ، سبحانه لا يخفى عليه عمل ، بل قدر عليه ثواباً أو عقاباً ﴿ الغنى ﴾ عن العباد والعبادة يترحم على عباده بالتكليف تكميلاً لهم ، ويمهلهم على المعاصى ، وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال والأوامر ليس نفع الله ، بل لترحمه على العباد ورأفة بهم .

(و) وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾[٧] .

أى مُبدِّلاً إيَّاها بالنعمة لخيانتهم ومعاصيهم ، يزيل الخير ويحفهم بالضر ، سبحانه ، وقال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾[٨] .

(ز) قال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾[٩] .

الترغيب فى كلمات يقولهن المديون والمهموم والمكروب والمأسور :

* عن على رضى الله عنه أن مكاتباً جاءه فقال : « إنى عجزت عن مكاتبتى فأعنى فقال : ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك بمثل جبل صبير ديناً أداه الله عنك !! قل : اللهم أكفنى بحلالك عن حرامك ، واغننى بفضلك عمن سواك » رواه الترمذى .

* وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ؛ فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة جالساً فيه ، فقال : (يا أبا أمامه ما لى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت الصلاة) ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يا رسول الله ، قال : (ألا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك) ؟! فقال : بلى يا رسول الله ، قال قل : (إذا أصبحت وإذا أمسيت ؛ اللهم إنى

(١) الآية : ٩٢ من سورة النحل .
(٢) الآية : ٩٥ من سورة النحل .
(٣) الآية : ٣٤ من سورة الاسراء .
(٤) الآية : ١٢ من سورة الروم .
(٥) الآيتان : ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٦) من الآيات : ١٣١ ـ ١٣٣ من سورة الأنعام .
(٧) الآية : ٥٣ من سورة الأنفال .
(٨) الآية : ٣ من سورة الأنعام .
(٩) الآية : ٣٨ من سورة الحج .

أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز الكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال) . قال فقلت ذلك فأذهب الله عز وجل همى وقضى عنى دينى ، رواه أبو داود .

* عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ : (ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك) ؟! قل يا معاذ : اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء ، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك) . رواه الطبرانى .

* عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل على أبو بكر فقال : سمعت من رسول الله ﷺ دعاء علمنيه ، قلت : ما هو؟ قال : (كان عيسى ابن مريم يعلم أصحابه ، فقال : لو كان على أحدكم جبل ذهباً ديناً فدعا الله بذلك لقضاه الله عنه : اللهم فارج الهم وكاشف الغم ومجيب دعوة المضطرين ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أنت ترحمنى ، فارحمني برحمة تغنينى بها عن رحمة سواك) قال أبو بكر رضى الله عنه ، وكانت على بقية من الدين وكنت للدين كارهاً فكنت أدعو الله بذلك فأتانى الله بفائدة[1] فقضى عنى دينى ، رواه البزار .

* عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : (ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى وذهاب همى) إلا أذهب الله عز وجل همه ، وأبدله مكان حزنه فرجاً ، قال : يا رسول الله : ينبغى لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟ قال : (أجل ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن) . رواه أحمد .

* عن أبى بكر رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « كلمات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ؛ فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، أصلح لى شأنى كله » . رواه الطبرانى .

وزاد فى آخره : لا إله إلا أنت .

* عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب) رواه أبو داود .

* وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » . رواه الترمذى .

---

(١) الفائدة هنا مايستفيده الإنسان من مال من عمل أو تجارة ، وليس الفائدة المعروفة الآن وهى الربا

* عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أعلمك الكلمات التى تكلم بها موسى عليه السلام حين جاوز البحر ببنى إسرائيل ؟ !) فقلت بلى يا رسول الله قال : (قولوا : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) . قال عبد الله : فما تركته منذ سمعته من رسول الله ﷺ . رواه الطبرانى .

* وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إذا نادى المنادى[1] فتحت له أبواب السماء ، واستجيب الدعاء ، فمن نزل به كرب أو شدة ؛ فليتحين المنادى ، فإذا كبر كبر ، وإذا تشهد تشهد ، وإذا قال : حى على الصلاة ، قال : حى على الصلاة ، وإذا قال : حى على الفلاح . قال : حى على الفلاح ، ثم يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة الصادقة المستجابة المستجاب لها ، دعوة الحق وكلمة التقوى ، أحينا عليها وأمتنا عليها ، وأبعثنا عليها واجعلنا من خيار أهلها ، أحياء وأمواتا ، ثم يسأل الله حاجته) . رواه الحاكم .

* عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (ما كربنى أمر إلا تمثل لى جبريل ؛ فقال يا محمد قل : توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيرًا) . رواه الطبرانى .

* عن محمد بن إسحاق رحمه الله ، قال : جاء مالك الأشجعى إلى النبى ﷺ ، فقال : أُسر ابنى عوف فقال له : (أرسل إليه أن رسول الله - ﷺ - يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله) فذكر الحديث[2] .

---

(١) المنادى هنا هو المؤذن ينادى بالصلاة

(٢) وتمام الحديث : « فأتاه الرسول فأخبره ، فأكب عوف يقول : لا حول ولاقوة إلا بالله وكانوا قد شدُّوه بالقد ـ السير من جلد غير مدبوغ يقيد به الأسير ـ فسقط القدُّ عنه ، فخرج فإذا هو بناقة لهم فركبها ، فأقبل فإذا هو بسرح القوم ـ ماشيتهم ـ فصاح بها ، فاتبع آخرها أولها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالباب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة !! فقالت أمه : واسوأتاه !! وعوف كئيب بألم مافيه من القد ـ فاستبق الأب الباب والخادم إليه ، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلا ، فقص على أبيه أمره وأمر الابل .

فأتى أبوه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بخبر عوف وخبر الابل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اصنع بها ما أحببت وماكنت صانعا بإبلك » ونزل : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ٣ / الطلاق كذا فى الترغيب (٣ / ١٠٥) وذكر ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٣٨٠) عن أبى حاتم ، وابن جرير فى تفسيره « ٢٨ / ٨٩ » عن السدى مختصراً ولم يذكر الحوقلة .. الخ .

الجزاء العادل

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ حدود الشيء : أطرافه التي يمتاز بها من غيره ، ومنه حدود الدار ، سميت بها الشرائع التي أمر الله باتباعها ونهى عن تركها ، فمدار الطاعة على البقاء في دائرة هذه الحدود ، ومدار العصيان على اعتدائها . ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾ طاعة الله : هى ما شرعه من الدين على لسان رسوله ﷺ ، وطاعة الرسول : هى اتباع ما جاء به من الدين عن ربه ، فطاعته هى بعينها طاعة الله ، كما قال فى هذه السورة ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[1] فهو إنما يأمرنا بما يوحيه إليه الله ؛ بما فيه منافع لنا فى الدنيا والآخرة ، وإنما ذكرها مع طاعة الله للإشارة إلى أن الإنسان لا يستغنى بعقله وعلمه عن الوحى ، وأنه لا بد له من هداية الدين ، إذ لم يكن العقل وحده فى عصر من العصور كافياً لهداية أمة ولا مرقياً لها بدون معونة الدين ، فاتباع الرسل والعمل بهديهم هو أساس كل مدنية ، والارتقاء المعنوى هو الذى يبعث على الارتقاء المادى ، فالآداب والفضائل التى هى أسس المدنيات تستند كلها إلى الدين ، ولا يكفى فيها بناؤها على العلم والعقل ، ونحن نؤمن ونعتقد أنها أرفع مما نرى فى هذه الدنيا ، وليس لنا أن نبحث عن كيفيتها لأنها من عالم الغيب ، و﴿ **الفوز العظيم** ﴾ الظفر والفلاح الذى لا يذكر بجانبه الفوز بحظوظ الدنيا القصيرة بالأكدار . ﴿ **ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها** ﴾ وقال فى ذكر أهل الجنة ﴿ **خالدين** ﴾ وفى ذكر أهل النار ﴿ **خالداً** ﴾ إشارة إلى تمتع أهل الجنة بالاجتماع ، وأنس بعضهم ببعض ، والمترفون يسرون بمثل هذا التمتع ، وأما الذى فى النار فإن له من العذاب ما يمنعه من الأنس ، فكأنه وحيد لا يجد لذة فى الاجتماع بغيره ، ولا آنساً به يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾[2] وتعدى الحدود الموجب للخلود فى النهار : هو الاصرار على الذنب وعدم التوبة عنه فللمذنب حالان :

١ ـ غلبة الباعث النفسى من الشهوة أو الغضب على الإنسان ، حتى يغيب عن ذهنه الأمر الإلهى ، فهو يقع فى الذنب وقلبه غائب عن الوعيد لا يتذكره ، أو يتذكره ضعيفاً كأنه نور ضئيل يلوح فى ظلمة ذلك الباعث المتغلب ، ثم لا يلبث أن يزول أو يختفى ، حتى إذا سكنت الشهوة أو سكت الغضب وتذكر النهى

---

(١) من الآية : ٨٠ من سورة النساء .

(٢) الآية : ٣٩ من سورة الزخرف .

والوعيد ، ندم وتاب ، ولام نفسه أشد اللوم ، ومثل هذا جدير بالنجاة إذ هو من المسارعين إلى الجنة كما قال تعالى فى أوصافهم : ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾(١) .

٢ ـ أن يقدم المرء على الذنب ، جريئاً عليه متعمداً فعله عالماً بتحريمه ، مؤثراً له على الطاعة ، لا يصرفه عنه تذكر النهى والوعيد عليه ؛ ومثل هذا قد أحاطت به خطيئة فآثر شهوته على طاعة الله ورسوله ، فدخل فى عموم قوله تعالى : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٢) .

إذ من يصر على المعصية عامداً عالماً بالنهى والوعيد لا يكون مؤمناً بصدق الرسول ﷺ ولا مذعناً لشرعه الذى تنال الرحمة والرضا بالتزامه ، والعذاب والنكال بتعدى حدوده ، فالإصرار على العصيان وعدم استشعار الخوف والندم ، لا يجتمعان فى قلب المؤمن بالإيمان الصحيح ؛ المصدق بوعد الله ووعيده .

﴿ وله عذاب مهين ﴾ المهين المذل له ، وهو عذاب الروح فللعصاة عذابان : عذاب جسمانى للبدن العاصى باعتباره حيواناً يتألم ، وعذاب روحانى باعتباره إنساناً يشعر بالكرامة والشرف ويتأكم بالإهانة والخزى .

وهاتان الآيتان تنطقان بمنطق العدالة الإلهية ، فمن أطاع والتزم فله الجنة والفوز العظيم ، ومن عصى وتعدى الحدود فله النار والعذاب المهين ، ما لم يتب توبة نصوحاً ، فإن رحمة الله وسعت كل شىء ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾(٣) . ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً * إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾(٥) .

القبر باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعرى بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما ... يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما ... فانظر لنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردس إن علموا ... وأن هفوا هفوة فالرب غفار

---

(١) من الآية : ١٣٥ من سورة آل عمران .
(٢) الآية : ٨١ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ١١٠ من سورة النساء .
(٤) الآيات : ٥٣ ـ ٥٥ من سورة الزمر .
(٥) الآيات : ٦٨ ـ ٧١ من سورة الفرقان .

عقاب الفاحشة

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ ﴾

المفردات : ﴿ **يأتين الفاحشة** ﴾ يفعلنها ، والفاحشة ما فحش ذنبه وقبح جرمه كالزنا . ﴿ **يتوفاهن** ﴾ يقال توفيت ما لى على فلان واستوفية قبضته ، والمراد توفى أرواحهن ملك الموت .

للمفسرين أقوال فى هاتين الآيتين ، وقد ذكر صاحب كتاب (المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء)[1] ذكر أقوال المفسرين ، وأختار من بينها رأى أبى مسلم الأصفهانى عن مجاهد ، وهذا الرأى نرجحه أيضاً ونميل إلى صحته ، حيث إنه فهم الآيتين فهماً يفيد معنى مستقلاً ؛ فالآية الأولى وهى قوله تعالى : ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم** ﴾ تتحدث عما يجرى بين النساء وهو ما يسمى بالسحاق وهو جريمة من جرائم الانحراف الجنسى ، والآية الثانية وهى قول تعالى : ﴿ **واللذان يأتيانها منكم فآذوهما** ﴾ تتحدث عما يجرى بين الرجال من اللواط والشذوذ الجنسى ، وتقتضينا الأمانة العلمية أن نذكر أقوال المفسرين فى هاتين الآيتين كما ذكرهما صاحب الكتاب (المجتمع الإسلامى) فقد ذكر تفسير هاتين الآيتين تحت عنوان (جريمتان فاحشتان)[2] قال : (اختلاف بين المفسرين وبيان الراجح من الآراء) : عرضت سورة النساء لجريمتين من أشنع الجرائم الخلقية التى من شأنها أن تودى بالمجتمع ، وأن تسلب أعضاءه رجالاً ونساءا ما لكل منهما من خصائص ، وذلك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً * واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً** ﴾ وقد اختلف المفسرون فى مواضع من هاتين الآيتين : فاختلفوا فى المقصود من ﴿ **الفاحشة** ﴾ هنا ، واختلفوا فى المراد من ﴿ **اللاتى يأتين** ﴾ ومن ﴿ **اللذان يأتيانها** ﴾ وفى العقوبة المقررة فى هذا الشأن ، وهل نسخ حكمهما أو لم ينسخ ؟

ونحن نلخص الخلاف فى ذلك ونذكر ما هو الراجح من أقوال المختلفين باعتبار النظر فى القرآن وما يتفق وبلاغته ودلالته :

١ ــ يرى الجمهور أن الحديث فى هاتين الآيتين عن جريمة الزنا ، وأن العقوبة التى كانت على هذه الجريمة فى أول الإسلام تختلف باختلاف الجنسين ، فالنساء يعاقبن إذا ثبت عليهن جريمة الزنا بعقوبتين .

---

(١) هو فضيلة الشيخ محمد محمد المدنى ـ رحمه الله ـ عميد كلية الشريعة الاسبق

(٢) ص ٢٩٨ ـ ٣٠٣ من كتاب المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء

احداهما : مأخوذة من قوله تعالى ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم** . . ﴾ الآية وهى إمساكهن فى البيوت ، أى حبسهن فيها إلى أن يتحقق واحد من أمرين : إما أن يتوفاهن الموت ، وإما أن يجعل الله لهن سبيلاً غيره ، وهنا يأتى خلاف آخر فى المراد بهذه السبيل ، فبعضهم يقول : إن المراد بها أن يشرع الله فيهن حكماً آخر ، ويشيرون بذلك إلى حكم الزانية والزانى الذى جاء فى سورة النور ، بناء على أن سورة النورنزلت بعد سورة النساء ، وقد رووا فى ذلك حديثاً عن النبى ﷺ يقول فيه : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلاً : الثيب ترجم البكر تجلد » .

وبعضهم يرى أن السبيل هى النكاح المغنى عن السفاح أى أن يرزقهن الله تعالى بمن يتزوج بهن على ما كان منهن ، فيغفر لهن هذا الماضى الآثم .

والعقوبة الثانية : هى الإيذاء ويكون بالتوبيخ والتأنيب ؛ وقيل : بل هذا تعبير عن عقوبة تفويضية للأمة وهى المعروفة فى لسان الفقهاء « بالتعزير » وقيل : بل المراد الإيذاء الذى حددته فيما بعد سورة النور وهو الجلد ، وهذه العقوبة التى هى الإيذاء مأخوذة من الآية الثانية وهى قوله تعالى : ﴿ **واللذان يأتيانها منكم فآذوهما** ﴾ وعلى هذا يكون ﴿ **اللذان** ﴾ مقصوداً به « الزانيان » أى الرجل والمرأة وتكون عقوبة الرجل الزانى هنا هى الإيذاء خاصة .

وخلاصة هذا الرأى أن الجريمة المقصودة هى الزنا ، وأن العقوبة بالنسبة للمرأة هى الإمساك فى البيوت أى الحبس إلى أحد الأمرين المذكورين ،والإيذاء، إما العقوبة بالنسبة للرجل فهى الإيذاء فقط .

٢ ــ وقد اختلف الجمهور القائلون بهذا : فمنهم من قال إن هذا الحكم نسخ بما جاء فى سورة النور من قوله تعالى : ﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** ﴾ وقيل : لا نسخ ، ويجمع بين العقوبتين ، وقال بعضهم : إن عقوبة الإمساك فى البيوت المذكورة فى الآية الأولى نسخت لعقوبة الأذى المذكورة فى الآية الثانية ، وقالت فرقة : بل كان الإيذاء هو الأول ، ثم نسخ بالإمساك ، ولكن التلاوة أخرت وقدمت . . . الخ .(١)

٣ ــ ومن هذا يتبين أن الجمهور مضطرب اضطراباً كبيراً فى تفسير هاتين الآيتين ، وأن بعضهم يرى نسخ ما فيها ، وبعضهم لا يراه ، ثم الذين يرون النسخ يختلفون فى الناسخ ، وأنهم يجعلون الآية الثانية فى الرجال والنساء جميعاً على التغليب ، ويجعلون عقوبة الرجل هنا أقل من عقوبة المرأة ، ويختلفون فى السبيل التى ذكرت فى الآية الأولى ، وهذا مثل واضح من أمثلة الاختلاف والاضطراب التى تجعل الناظر فى القرآن الكريم فى حيرة .

رأى أبى مسلم وبيان رجحانه :

٤ ــ ولكن الذى يجرد نفسه من عاطفة تقليد الجمهور ؛ يستطيع أن يجد فى أقوال غيرهم ما هو أقرب

---

(١) تراجع كتب التفسير ، ومنها تفسير القرطبى ج ٥ ص ٨٤

إلى القبول ، وأدنى إلى إظهار بلاغة القرآن ، وفهم حكمته التشريعية على وجه يناسب عظمته وهدايته . ونريد بذلك : الوجه الذى اختاره أبو مسلم الأصفهانى ، ونقله عن مجاهد ، وبيانه : [أن هاتين الآيتين تتحدثان عن جريمتين خاصتين ، غير جريمة الزنا ، إحداهما تقع بين النساء خاصة ، ولا دخل للرجال فيها ، وهى الجريمة المعروفة « بالسحاق » والجريمة الثانية تقع بين الرجال خاصة ، ولا دخل للنساء فيها ، وهى الجريمة التى تعرف « باللواط » فكل من الآيتين تتحدث عن واحدة من هاتين الجريمتين بالترتيب وتسند هذه الجريمة إلى من ارتكبها على وجه التحديد ؛ فتقول الآية الأولى : ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾ وتقول اللآية الثانية : ﴿ واللذان يأتيانها منكم ﴾ وتضع كل من الآيتين العقوبة المناسبة للجريمة التى تتحدث عنها . فعقوبة النساء اللاتى يرتكبن هذه الفعلة المنكرة ؛ أن يمسكن ويحبسن فى البيوت كى يبتعدن عن الجو الذى يتمكنّ فيه من الاتصال بنساء غيرهن ، إلى أن يتوفاهن الموت ، فينتهى بذلك أمرهن ، أو يجعل الله لهن سبيلاً بزوجية يصلحن بها ، وتنسيهن هذا الداء الوبيل ، وتمكنهن من أداء واجبهن الطبيعى فى ظل الزواج ، وتعيد إليهن اعتبارهن كإناث خلقهن الله لغير ما انحرفن إليه من فساد عظيم .

أما الرجال ﴿ اللذان يأتيانها منكم ﴾ فعقوبتهم هى الإيذاء ، وهى عقوبة وضعها الشارع لولى الأمر ، فله - إذا ثبتت تلك الجريمة المنكرة على رجلين - أن يؤذيهما ، والأذى على درجات .

وللقانون المستمد من هذا التفويض أن ينظمه ، ويحدده كما تقضى بذلك المصلحة ، وكما يتناسب مع شيوع هذه الجريمة فى مجتمع ، أو قلتها فى مجتمع آخر ، فقد يرى تغليظ العقوبة إذا فشت الجريمة ردعاً لمرتكبيها ، ومن يخشى أن يقلدوهم ، وقد يرى تخفيفها لقلة مرتكبيها ، وأنها لم تعد داء عاماً يخشى على المجتمع من تفشيه .

وبذلك يتبين أن الآيتين فى جريمتين خاصتين ، غير جريمة الزنا ، وأن القرآن على هذا يكون قد استكمل التشريع لأحكام الجرائم الثلاث : الجريمة التى تكون بين رجل وامرأة ، والجريمة التى تكون بين امرأة وامرأة ، والجريمة التى تكون بين رجل ورجل ، فالأولى جاء حكمها فى سورة النور والثانية والثالثة جاء حكمهما فى سورة النساء . وعلى هذا فلا حاجة إلى القول بالنسخ ولا إلى ذلك الاضطراب الذى رأينا عليه الجمهور .

٥ ــ وعلينا أن نبين بعد هذا وجه الحكمة فى تشريع عقوبة لهاتين الجريمتين ، ولم عنيت سورة النساء بهما ، ولم خصصت سورة النور بالتشريع لجريمة الزنا ؟ وبيان ذلك كله : أن سورة النور تتحدث عن الآداب الطبيعية والسلوك المعتاد فى المجتمع ، وتبين حديثها عما يكون بين الرجال والنساء ، فتذكر الزانية والزانى ، وتذكر الذين يرمون المحصنات ، وتذكر الذي يرمون أزواجهم ، وتذكر الذين جاءوا بالإفك على سيدة شريفة هى عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وتذكر أن الخبيثات للخبيثين والخبيثين للخبيثات ، وأن الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات ، وتشرع حكم الاستئذان عند دخول البيوت وحكم غض الرجل بصره عن المرأة ، وغض المرأة بصرها عن الرجل ، وتذكر أحكام النساء من جهة الزينة ، وما يجوز إبداؤ ها منها وما لا يجوز ، وعلى من تبدى المرأة زينتها وترشد إلى آداب من يعيشون معاً ، وأنه يجب على بعضهم

الاستئذان فى أوقات معينة ، وتذكر حكم القواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً ، إلى غير ذلك : فجميع ما ذكرته سورة النور متعلق بما يكون بين الرجل والمرأة فلذلك لم يأت الحديث فيها عن جريمة الرجل والرجل ، ولا عن جريمة المرأة والمرأة .

أما مجىء ذلك فى سورة النساء فلأنها السورة التى تتحدث عن المقدمات الأساسية للمجتمع ، وكل واحدة من هاتين الجريمتين من شأنها أن تفسر رجولة الرجل ، وأن تفسر أنوثة المرأة ، فتجعل الرجل يخسر نفسه ، ولا يصلح لأن يكون زوجاً ورجلا له شخصيته وكماله وسموه ، على النحو الذى هيأه الله عليه ، ويجعل المرأة تخسر نفسها ولا تصلح لأن تكون زوجة كذلك ، وتنفر منها فمن ذا الذى يرضى بأن يتزوج امرأة تكون مريضة بهذا الداء ؟ ومن هذه التى ترضى بأن تتزوج رجلاً يكون ملتوياً عن سنة الرجال ، متطلباً أو متقبلاً لهذا اللون من الجريمة والفاحشة المنكرة ؟ ثم متى تقوم المرأة بوظيفتها كأنثى إذا اتجهت هذا الاتجاه ، واكتفت من اللذة بهذا اللون الذى لا يثمر ثمرته ومتى يقوم الرجل بوظيفته وهو مكتف بما يرتكبه من شذوذ . . لهذا كانت هاتان الجريمتان أخطر على المجتمع من جريمة الزنا نفسها ، وكانتا أفعل فى هدم كيان المجتمع منها ، لأن احداهما تفسد رجولة الرجل ، والأخرى تفسد أنوثة المرأة ، فتأتى على الصنفين ـ اللذين يتكون منهما المجتمع من الأعماق وإذن فالسورة التى تهتم بوضع الأسس والقواعد لبناء مجتمع سليم ؛ ومن حقها أن تهتم بهذا الجانب الذى هو حماية الرجال من الرجال ، وحماية النساء من النساء ويتضمن ما قلناه بيان الحكمة فى هذا التشريع . أ هـ . بنصه .

التوبة وأحكامها

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ **السوء** ﴾ العمل القبيح الذى يسوء فاعله فيشمل الصغائر والكبائر . ﴿ **بجهالة** ﴾ المراد بها الجهل والسفه ، بارتكاب ما لا يليق بالعاقل ، لا عدم العلم ، وذلك يكون عند ثورة الشهوة أو الغضب ، وكل من عصا الله فهو جاهل . ﴿ **أعتدنا** ﴾ هيأنا وأعددنا .

المراد بقوله تعالى : ﴿ **يعملون السوء بجهالة** ﴾ أي بسفه وحمق ، وكل من عصا الله فهو سفيه أحمق ، قال مجاهد وغير واحد : كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل ، حتى ينزع عن الذنب .

وقال قتادة عن أبي العالية : أنه كان يُحَدِّث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون : « كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة » رواه ابن جرير . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ ، فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره .

قال ابن جريج : أخبرني عبد الله بن كثير عن مجاهد ، قال : كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها قال بن جريج ، وقال لي عطاء بن أبي رباح : نحوه ، وقال أبو صالح عن ابن عباس : من جهالته عمل السوء . وليس المراد بالجهالة هنا عدم المعرفة ! فالحلال بين والحرام بين ، إنما الذين يأتون السوء جاهلون سفهاء حمقى ، ورحمة الله تبارك وتعالى وسعت كل شيء ، فإنه (يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، فإذا كان الثلث الأخير من كل ليلة نادى ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفرٍ فأغفر له ، هل من سائل فأعطيه)[1] .

فيا من تشكو مرض البعد عن الله ؛ عليك بعروق الاخلاص ، وورق الصبر ، وعصير التواضع ، ضع ذلك في إناء التقوى ، وصب عليه ماء الخشية ، وأوقد عليه بنار الحزن ، وصفه بمصفاة المراقبة ، وتناوله بكف الصدق واشربه من كأس الاستغفار ، وتمضمض بالورع ، وابعد نفسك عن الحرص والطمع تشفى من مرضك بإذن الله .

وصلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ، يا من رسمت لنا الطريق واضحاً إلى الله ، طريق الطاعة والهدى والرشاد والعفاف والسداد ، فقلت : « المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني . والحب أساسي ، والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسي ، والثقة كنزي ، والحزن رفيقي ، والعلم سلاحي ، والصبر ردائي ، والرضا غنيمتي ، والزهد حرفتي ، واليقين قوتي ، والصدق شفيعي ، والطاعة حسبي ، والجهاد خلقي ، وقرة عيني في الصلاة »[2] .

قوله جل شأنه : ﴿ إنما التوبة على الله ﴾ أي ليس ذلك من باب الالتزام ، فليس هناك أحد يلزم الله بشيء ، لأنه الفاعل المختار ، إنما ذلك من باب الفضل والكرم ، فهو صاحب الإنعام ، وهو ذو الجلال والإكرام ، وإنما كان ذلك كذلك لأنه المريد العليم الحليم ، فتعطف وتكرم على الذين يتوبون من قريب ، ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾[3] تعطف عليهم بالتوبة متى علم منهم بصدق النية ، فالتائب حبيب الرحمن ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والتائب من الذنب وهو مصر عليه ؛ كالمستهزئ بربه ، فأولئك الذين يتوبون من قريب يتوب الله عليهم ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بما تنطوي عليه القلوب من صدق أو خداع ، واقتضى علمه الحكمة البالغة ، فإنه جل شأنه يتوب على الصادقين المخلصين في توبتهم

---

(١) اقتباس من حديث رواه البخاري

(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي

(٣) من الآية : ١٣٥ من سورة آل عمران .

﴿ يأأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار * يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾(١).

أما الذين يعملون السيئات ويسوفون فى التوبة ؛ حتى إذا ما دخلت شمس العمر منطقة الكسوف ، وانفض سوق الدنيا ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، وأرخى الستار على الحياة ، وكورت شمس الأجل ، وانكدرت نجومه وانتثرت كواكبه ، وبعثرت أيامه وأرخى الحجاب ﴿ قال ﴾ أحدهم ﴿ إنى تبت الآن ﴾ هؤلاء مخادعون كذابون لا يقبل الله منهم توبة ، لأنهم رأوا مصيرهم المؤلم ، فكانوا كما قال تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾(٢) كذلك الذين ماتوا كفاراً لا يقبل منهم صرف ولا عدل ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾(٣) كذلك الذين سيدركون طلوع الشمس من مغربها وغروبها من مشرقها ، لن تقبل توبة من عصاتهم ولا إيمان من كفارهم ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ﴾(٤) .

قال تعالى : ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾ لأنه لما وقع الإياس من الحياة ، وعاين الملك ، وخرجت الروح فى الحق وضاق بها الصدر ، وبلغت الحلقوم وغرقت النفس صاعدة فى الغلاصم ، فلا توبة مقبولة حينئذ ولات حين مناص .

حسن معاشرة النساء

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

(١) الآية : ٨ من سورة التحريم .
(٢) من الآيتين : ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .
(٣) الآية : ٩١ من سورة آل عمران .
(٤) من الآية : ١٥٨ من سورة الأنعام .

المفردات : ﴿ العضل ﴾ داء عضال أى شديد ، وعضلت المرأة بولدها ؛ إذا اختنقت رحمها بـه فخرج بعضه وبقى بعضه ، فالعضل الشدة والتضييق والحبس . ﴿ الفاحشة ﴾ الفعلة الشنيعة القبيحة . ﴿ مبينة ﴾ واضحة ظاهرة . ﴿ بالمعروف ﴾ مالا ينكره الشرع والعرف والطبع . ﴿ البهتان ﴾ الكذب . ﴿ أفضى ﴾ وصل إليها وصولاً خاصاً ، وهو ما يكون بين الزوجين . ﴿ وميثاقا غليظاً ﴾ عهداً مؤكداً رابطه برباط قوى محكم .

روى البخارى وأبو داود « أنه كان إذا مات الرجل منهم كان أولياؤ ه أحق بامرأته ؛ إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية فى ذلك .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة ، قال : جاءت كبيشة ابنة معن بن عاصم من الأوس إلى النبى ﷺ ، وكانت تحت أبى قيس بن الأسلت ، فتوفى عنها فجنح عليها (ضيق) ابنه ، قالت له : لا أنا ورثت زوجى ولا أنا تركت فأنكح ، فنزلت الآية .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ أى لا يحل لكم أيها الذين آمنوا ورسوله أن تسيروا على سنة الجاهلية ، فى هضم حقوق النساء ، فتجعلوهن ميراثاً لكم كالأموال والعبيد ، وتتصرفوا فيهن كما تشاءون وهن كارهات لذلك فإن شاء أحدكم تزوج امرأة من يموت من أقاربه ، وإن شاء زوجها غيره ، وإن شاء أمسكها ومنعها الزواج .

﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ أى لا يحـل لكم إرث النساء ولا التضييق عليهن ومضارتهن ، ليكرهنكم ويضطرون إلى الأفتداء منكم بالمال ، من ميراث وصداق ونحو ذلك ، فقد كانوا يتزوجون من يعجبهم حسنها ، ويزوجون من لا تعجبهم ، أو يمسكونها حتى تفتدى بما كانت ورثت من قريب الوارث ، أو ما كانت أخذت من صداق ونحوه ، أو كل هذا ، وربما كلفوها الزيادة إن علموا أنها تستطيعها . أخرج ابن جرير عن زيد قال : « كانت قريش بمكة ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة ، ولعلها ما توافقه فيفارقها ، على ألا تتزوج إلا بإذنه ، فيأتى بالشهود فيكتب ذلك عليها ، فإذا خطبها خاطب فإن أعطت وأرضته أذن لها ، وإلا عضلها وكثيراً ما كانوا يضيقون عليهن ليفتدين منهن بالمال » .

﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ أى لا تعضلوهن فى أى حال إلا فى الحال التى يأتين فيها بالفاحشة المبينة ، دون الظنة أو الشبهة ، فإذا نشزت عن طاعتكم وساءت عشرتهن ، ولم ينفع معهن التأديب ، أوتبين ارتكابهن للزنا أو السرقة ، أو نحو ذلك من الأمور الفاحشة الممقوتة عند الناس ، فلكم حينئذ أن تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صداق وغيره من المال ، لأن الفحش قد أتى من جانبها وإنما اشترط فى الفاحشة أن تكون مبينة : أى ظاهرة فاضحة لصاحبها ، لأنـه ربما ظلم الـرجل المـرأة بإصـابتها الهفـوة الصغيرة ، أو بمجرد سوء الظن والتهمة ، فمن الرجال الغيور السيىء الظن ، الذى يؤاخذ بأتفه الأمور ويعهده عظيماً .

وإنما أبيح للرجل أن يضيق على امرأته إذا أتت بهذه الفاحشة المبينة ، لأنها ربما كرهته ومالت إلى غيره فتؤذيه بفاحشة القول أو الفعل ، ليملها ويسأم معاشرتها فيطلقها ، فتأخذ ما كان أعطاها وتتزوج غيره ، وتتمتع بمال الأول ، وربما فعلت مع الثانى ما فعلت مع الأول ، فإذا علم النساء أن العضل والتضييق بيد الرجال ، ومما أبيح لهم إذا هن أهنهم ، فإن ذلك يكفهن عن ارتكابها والاحتيال بها على أرذل أنواع الكسب .

﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ أى وعليكم أن تحسنوا معاشرة نسائكم ، فتخالطوهن بما تألفه طباعهن ، ولا يستنكره الشرع ولا العرف ، ولا تضيقوا عليهن فى النفقة ، ولا تؤذوهن بقول ولا فعل ، ولا تقابلوهن بعبوس الوجه ولا تقطيب الجبين . وفى كلمة (المعاشرة) معنى المشاركة والمساواة ، أى عاشروهن بالمعروف وليعاشرنكم كذلك فيجب أن يكون كل من الزوجين مدعاة لسرور الآخر ، وسبب هناءته وسعادته فى معيشته ومنزله ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[1] .

﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ أى فإن كرهتموهن لعيب فى أخلاقهن ، أو دمامة فى خلقهن ، مما ليس لهن فيه كسب ، أولتقصير فى العمل الواجب عليهن ، كخدمة البيت والقيام بشئونه ، مما لا يخلوعن مثله النساء فى أعمالهن أو لميل منكم إلى غيرهن ؛ فاصبروا ولا تعجلوا بمضارتهن ولا بمفارقتهن فربما كرهت النفس ما هو أصلح فى الدين ، وأوفى إلى الخير ومن ذلك :

١ ــ الأولاد النجباء ، فرب امرأة يملها زوجها ويود فراقها ، ثم يجيئه منها من تقر به عينه من الأولاد النجباء فيعلو قدرها عنده بذلك .

٢ ــ أن يصلح حالها بصبره وحسن معاشرته ، فتكون من أعظم أسباب سعادته وسروره فى انتظام معيشته ، وحسن خدمته ، ولا سيما إذا أصيب بالأمراض ، بالفقر والعوز ، فتكون خير سلوى وعون فى هذه الأحوال . فيجب على الرجل أن يتذكر مثل ذلك ، كما يذكر أنه قلما يخلو من عيب تصبر عليه امرأته فى احال والاستقبال . وقد جاء قوله : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ فى سياق حديث النساء دسْتُوراً إذا نحن اتبعناه كان له الأثر الصالح فى جميع أعمالنا ، وهدانا إلى الرشد فى جميع شئوننا ، فكثيراً مما يكرهه الإنسان يكون له فيه الخير ، ومتى جاء ذلك الخير ظهرت فائدة ذلك الشىء المكروه ، والتجارب أصدق شاهد على ذلك .

فالقتال لأجل حماية الحق والدفاع عنه يكرهه الطبع لما فيه من المشقة ، لكن فيه إظهار الحق ونصره ورفعة أهله ، وخذلان الباطل وحزبه ، إلا أن الصبر على احتمال المكروه يمرن النفس على احتمال الأذى ، ويعودها تحمل المشاق فى جسيم الأمور .

---

(١) الآية : ٢١ من سورة الروم .

والخلاصة : إن الإسلام وصى أهله بحسن معاشرة النساء ، والصبر عليهن إذا كرههن الأزواج ، رجاء أن يكون فيهن خير ، ولا يبيح عضلهن وافتداءهن أنفسهن بالمال إلا إذا أتين بفاحشة مبينة ، بحيث يكون إمساكهن سبباً فى مهانة الرجل واحتقاره ، أو إذا خافا ألا يقيما حدود الله ، وفيما عدا ذلك يجب عليه إذا أراد فراقها أن يعطيها جميع حقوقها ، وهذا ما أشار إليه بقوله : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ أى وإذا رغبتم أيها الأزواج فى استبدال زوج جديدة ، مكان زوج سابقة كرهتموها لعدم طاقتكم الصبر على معاشرتها ، وهى لم تأت بفاحشة مبينة ، وقد كنتم أتيتموها مالاً كثيراً مقبوضاً ، أو ملتزماً دفعه إليها ، فصار ديناً فى ذمتكم ، فلا تأخذوا منه شيئاً بل عليكم أن تدفعوه لها ، لأنكم إنما استبدلتم غيرها بها لأغراضكم ومصالحكم ، بدون ذنب ولا جريرة تبيح أخذ شىء منها ، فبأى حق تستحلون ذلك ؟ وهى لم تطلب فراقكم ، ولم تسىء إليكم لتحملكم على طلاقها ؟ وإرادة الاستبدال ليست شرطاً فى عدم حل أخذ شىء من مالها ، إذا هو كره عشرتها وأراد الطلاق ، لكنه ذكر لأنه هو الغالب فى مثل هذا الحال .

ألا ترى أنه لو طلقها وهو لا يريد تزوج غيرها لأنه اختار الوحدة وعدم التقيد بالنساء وحاجاتهم الكثيرة ، فإنه لا يحل له أخذ شىء من مالها . ثم أنكر عليهم هذا الفعل ووبخهم عليه أشد التوبيخ فقال : ﴿ أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً ﴾ أى أتأخذونه باهتين آثمين ، وقد كان من دأبهم أنهم إذا أرادوا تطليق الزوجة ؛ رموها بفاحشة حتى تخاف وتشترى نفسها منه بالمهر الذى دفعه إليها .

وزاده إنكاراً آخر مبالغة فى التنفير من ذلك فقال : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ أى : إن حال هؤلاء الذين يستحلون أخذ مهور النساء إذا أرادوا مفارقتهن بالطلاق ، لا لذنب جنينه ولا لإثم اجترحنه من الإتيان بفاحشة مبينة ، أو عدم إقامة حدود الله ، وإنما هو الرأى والهوى وكراهة معاشرتهن – عجيب أيما عجب – فكيف يستسيغون أخذ ذلك منهن ، بعد أن تأكدت الرابطة بين الزوجين بأقوى رباط حيوى بين البشر ، ولابس كل منهما الآخر حتى صار أحدهما من الآخر بمنزلة الجزء المتمم لوجوده ، فبعد أن أفضى كل منهما إلى الآخر إفضاء ولابسه ملابسة يتكون منها الولد ، يقطع تلك الصلة العظيمة ، ويطمع فى مالها ، وهى المظلومة الضعيفة ، وهو القادر على اكتساب المال بسائر الوسائل التى هدى الله إليها البشر .

﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ قال قتادة : هذا الميثاق هو ما أخذ الله للنساء على الرجال بقوله : ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾[1] وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى على المنبر أن يزاد فى الصداق على أربعمائة درهم ، ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول :

---

(١) من الآية : ٢٢٩ من سورة البقرة .

﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾ فقال : اللهم عفواً كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر فقال : إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا فى صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب[1] .

هذا وإن الشريعة لم تحدد مقدار الصداق بل تركت ذلك للناس لتفاوتهن فى الغنى والفقر ، فكل يعطى بحسب حاله ولكن جاء فى السنة الإرشاد إلى اليسر فى ذلك وعدم التغالى فيه ، فمن ذلك ما رواه أحمد والحاكم والبيهقى عن عائشة : « إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها » . وإن التغالى فى المهور الآن قد صار من أسباب قلة الزواج ، وقلة الزواج تفضى إلى كثرة الزنا والفساد ، والغبن أخيرا على النساء أكثر ، وإنك لترى هذه العادة متمكنة لدى بعض الناس ، حتى إن ولى المرأة ليمتنع عن تزويج بنته للكفء الذى لا يرجى من هو خير منه ، إذا كان لا يعطيه ما يراه لائقاً بكرامته ، ويزوجها لمن هو دونه ديناً وخلقاً ، ومن لا يرجو لها سعادة عنده ، إذا هو أعطاه كثيراً من الذى يراه محققاً لأغراضه ، وهكذا تتحكم التقاليد والعادات حتى تفسد على الناس سعادتهم ، وتقوض نظم بيوتهم وهم لها منقادون بلا تفكير فى العواقب .

من يحرم التزوج بهن

وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ سلف ﴾ أى مضى . ﴿ فاحشة ﴾ أى شديد القبح . ﴿ مقتاً ﴾ أى ممقوتاً مبغوضاً عند ذوى الطباع السليمة ، ومن ثم كانوا يسمونه نكاح المقت ، ويسمى الولد منه مقيتاً : أى مبغوضا

(١) أخرج أبو حاتم البستى فى مسنده عن أبى العجفاء السلمى ، قال : خطب عمر بن الخطاب فقال : ألا لاتغالوا فى صدقات النساء فإنها لو كانت مكرمه فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق قط امرأة من نسائه ولابناته فوق اثنتى عشرة أوقية ، فقامت إليه امرأة فقالت : ياعمر ، يعطينا الله وتحرمنا ! أليس الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ﴾ ؟ فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر ، وفى رواية فأطرق عمر ثم قال : كل الناس أفقه منك ياعمر ! ورواه ابن ماجه فى سننه عن أبى العجفاء بزيادة عن ذلك .

محتقراً . ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أى بئس طريقاً ذلك الطريق الذى اعتادوا سلوكه فى الجاهلية ، وبئس من يسلكه لم يزده السير فيه إلا قبحاً . و[الجناح] الإثم والتضييق .

بعد أن بين فى أوائل السورة حكم نكاح اليتامى ، وعدد من يحل من النساء ، والشرط فى ذلك ، وبين حكم استبدال زوج مكان زوج ، وما يجب من المعروف فى معاشرتهن ، وصل هذا ببيان ما يحرم نكاحه منهن .

قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء** ﴾ ذكر الله هذا النكاح أولا ، ولم يذكره مع سائر المحرمات فى الآية التالية ، لأنه كان فاشياً فى الجاهلية ، وقد ذمه الله أقبح ذم ، فسماه فاحشة ، وجعله مبغوضاً أشد البغض ، أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال : « كان الرجل إذا توفى عن امرأته كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء إن لم تكن أمه ، أو ينكحها من شاء فلما مات أبو قيس بن الأسلت ، قام ابنه محصن فورث نكاح امرأته ، ولم ينفق عليها ولم يورثها من المال شيئاً ، فأتت النبى ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال : «ارجعى لعل الله ينزل فيك شيئاً ، فنزلت ﴿ **ولا تنكحوا** ﴾ الآية ، ونزلت أيضاً ﴿ **لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً** ﴾ الخ . والمراد بالنكاح العقد كما قال ابن عباس ، فقد روى ابن جرير والبيهقى عنه[1] أنه قال : « كل امرأة تزوجها أبوك دخل بها أو لم يدخل فهى حرام » والمراد من الآباء ما يشمل الأجداد إجماعاً ﴿ **إلا ما قد سلف** ﴾ أى لكن ما سلف من ذلك لا مؤاخذة عليه . والخلاصة - إنكم تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف ومضى قبل نزول الأحكام .

﴿ **إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً** ﴾ أى إن نكاح أزواج الآباء تمجه الأذواق السليمة ، وتؤيد ذلك الشريعة التى هدى الله الناس بها . فهو قبيح محتقر ، والسالك فى طريقة مزدرى عند ذوى العقول الراجحة . قال الإمام الرازى - القبح ثلاثة أصناف : عقلى ، وشرعى ، وعادى ، وقد وصف الله النكاح بكل ذلك ، فقوله سبحانه ﴿ **فاحشة** ﴾ إشارة إلى الأول ، وقوله : ﴿ **مقتاً** ﴾ إشارة إلى الثانى ، وقوله ﴿ **وساء سبيلاً** ﴾ إشارة إلى الثالث .

بعد هذا بين الله أنواع المحرمات لأسباب وعلل تنافى ما فى النكاح من الصلة بين بعض البشر وبعض ، وهى عدة أقسام :

القسم الأول : منها ما يحرم من جهة النسب وهو أنواع :

١ - نكاح الأصول ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم** ﴾ والمراد بالأم ما يشمل الجدات ؛ أى إن الله قد حرم عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم والمراد أنه حكم الآن بهذا التحريم والمتبع .

٢ - نكاح الفروع ، وذلك قوله : ﴿ **وبناتكم** ﴾ والمراد بهن ما يشمل بنات أصلابنا ، أو بنات أولادنا ، ممن كنا سبباً فى ولادتهن وأصولا لهن .

---

(١) يعنى عن ابن عباس

٣ - نكاح الحواشى القريبة ، وذلك ما عناه سبحانه تعالى بقوله : ﴿ **وأخواتكم** ﴾ سواء أكن شقيقات لكم أم كن لأم أو لأب .

٤ ، ٥ - نكاح الحواشى البعيدة من جهة الأب والأم ، وإليهما الإشارة بقوله : ﴿ **وعماتكم وخالاتكم** ﴾ والمراد بهما الإناث من جهة العمومة ومن جهة الخؤولة ، فيشمل أولاد الأجداد وإن علوا وأولاد الجدات وإن علون .

٦ - نكاح الحواشى البعيدة من جهة الأخوة ، وذلك قوله : ﴿ **وبنات الأخ وبنات الأخت** ﴾ من جهة أحد الأبوين ، أو كليهما .

القسم الثانى : ما حرم من جهة الرضاعة ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ **وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة** ﴾ وقد نزل الله سبحانه وتعالى الرضاعة منزلة النسب فسمى المرضعة أماً للرضيع ، وبنتها أختاً له ، فأعلمنا بذلك أن جهة الرضاع كجهة النسب .

وقد وضحت السنة ذلك ؛ فقال النبى ﷺ ، لما طلب إليه أن يتزوج ابنة عمه حمزة « إنها لا تحل لى ، إنها ابنة أخى من الرضاعة ، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وعلى ذلك جرى المسلمون جيلاً بعد جيل فجعلوا زوج المرضعة أباً للرضيع ، تحرم عليه أصوله وفروعه ، ولو من غير المرضعة ، لأنه صاحب اللقاح الذى كان سبب اللبن الذي تغذى منه الرضيع ، وقد روى البخارى عن ابن عباس أنه سئل عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما بنتاً ، والأخرى غلاماً ، أيحل للغلام أن يتزوج الجارية ؟ (قال لا ، اللقاح واحد) .

وقد غلب على الناس التساهل فى أمر الرضاعة ، فيرضعون الولد من امرأة أو من عدة نسوة ، ولا يهتمون بمعرفة أولاد المرضعة وأخوتها ، ولا أولاد زوجها من غيرها وإخوته ، ليعرفوا ما يترتب عليهم فى ذلك من الأحكام ؛ كحرمة النكاح وحقوق القرابة الجديدة التى جعلها الشارع كالنسب ، فكثيراً ما يتزوج الرجل أخته أو عمته أو خالته من الرضاعة وهو لا يدرى .

وظاهر الآية : أن قليل الرضاعة ككثيرها ، ويروى عن على وابن عباس والحسن والزهرى وقتادة ، وبه أخذ أبو حنيفة ومالك . وذهب جماعة إلى أن التحريم إنما يثبت بثلاث رضعات فأكثر ؛ لأن النبى ﷺ قال : « لا تحرم المصة والمصتان » وقد روى العمل به عن الإمام أحمد ، وذهب جماعة آخرون إلى أن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات ، ويروى هذا عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن الزبير ، وهو مذهب الشافعى وأحمد فى ظاهر مذهبه .

ولا يحرم الرضاع إلا فى سنة ومدته المحدودة بقوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين

كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ (١) وهو مذهب عمر وابن مسعود وابن عباس ، وبه أخذ الشافعى وأحمد وصاحبا أبي حنيفة : أبو يوسف ومحمد .

وقد روى الدارقطنى عن ابن عباس قوله ﷺ : « لا رضاع إلا ما كان فى الحولين » وروى عن ابن عباس فى رواية أخرى والزهرى وحسن وقتاده أن الرضاع المحرم ما كان قبل الفطم ، فإن فطم الرضيع ولو قبل السنتين امتنع تأثير رضاعه فى التحريم ، وإن استمر رضاعه إلى ما بعد السنتين ، ولم يفطم : كان رضاعه محرماً .

القسم الثالث : محرمات المصاهرة التى تفرض بسبب الزواج وتحته الأنواع الآتية :

١ - ﴿ **وأمهات نسائكم** ﴾ ويدخل فى الأمهات الجدات ، ولا يشترط فى تحريم أم المرأة دخوله بالبنت ، بل يكفى مجرد العقد ، وبهذا قال جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وعليه الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة .

٢ - ﴿ **وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم** ﴾ الربائب جمع ربيبة وربيب الرجل ولد امرأته من غيره ، سمى ربيبا لأن الرجل يربه ويسوسه ويؤدبه كما يؤدب ولده ، وقوله : ﴿ **اللاتى فى حجوركم** ﴾ وصف لبيان الحال الغالب فى الربيبة وهى أن تكون فى حجر زوج أمها ، وللإشعار بالمعنى الذى يوضح علة التحريم ، ويحرك عاطفة الأبوة فى الرجل ، وهو كونها فى حجره يحنو عليها حنوه على بنته ، ويدخل فى التحريم كل بنات امرأة الرجل إذا كان قد دخل بها وبنات بناتها وبنات أبنائها ، لأنهن من بناتها فى عرف اللغة ﴿ **فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم** ﴾ أى إن الرجل إذا عقد نكاحه على امرأة ولم يدخل بها لا يحرم عليه بناتها ، وقال الحنفية : إن من زنى بامرأة يحرم عليه أصولها وفروعها وكذلك إذا لمسها بشهوة أو قبلها ، أو نظر إلى ما هنالك منها بشهوة . وكذلك أيضاً إذا لمس يد أم امرأته بشهوته ، فإن امرأته تحرم عليه تحريماً مؤبداً ، ولم يوافقهم على ذلك كثير من الأئمة ، لأنه لم يؤثر فيه خبر ، ولا أثر عن الصحابة فيه شىء ، وقد كانوا قريبى العهد بالجاهلية التى كان الزنا فاشياً فيها بينهم ، فلو كانوا فهموا لذلك مدركاً من الشرع وعلله ، لسألوا عنه وتوافرت الدواعى على نقل ما أفتوا به .

٣ - ﴿ **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** ﴾ الحلائل واحدها حليلة وهى الزوجة ، ويقال أيضاً للرجل حلي إذ أن الزوجين يحلان معاً فى مكان وفراش واحد . ويدخل فى الأبناء أبناء الصلب مباشرة أو بواسطة ، كابن الابن وابن البنت فحلائلهما تحرم على الجد ، كما يدخل الابن من الرضاعة ، فتحرم حليلته لما تقدم من قوله « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » .

القسم الرابع : ما حرم بسبب عارض ، إذا زال يزول ، وهو ما ذكره سبحانه بقوله : ﴿ **وأن تجمعوا بين الأختين** ﴾ أى وحرم عليكم الجمع بين الأختين فى الاستمتاع الذى يراد به الولد ، والمذاهب الأربعة متفقة على تحريم الاستمتاع بالأختين ، بملك اليمين أو بالنكاح أو بالنكاح والملك ، كأن يكون مالكاً لإحداهما ،

---

(١) من الآية : ٢٣٣ من سورة البقرة .

ومتزوجاً الأخرى ، فيحرم عليه أن يستمتع بهما ، ويجب عليه أن يحرم إحداهما على نفسه ، كأن يعتق المملوكة أو يهبها ويسلمها للموهوبه له .

ومثل هذا الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، لأن العلة موجودة فيه أيضاً ، وهى إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله تعالى بوصله ، كما يدل عليه قوله ﷺ « فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » . والضابط لذلك أنه يحرم الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابة ، لو كانت إحداهما ذكراً لحرم عليه بها نكاح الأخرى .

﴿ **إلا ما قد سلف** ﴾ أى لكن ما قد سلف قبل التحريم لا تؤاخذون عليه ، وقد كانوا يجمعون بين الأختين . أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه ، عن فيروز الديلمى : أنه أدركه الإسلام وتحته أختان فقال له النبى ﷺ : « أيتهما شئت » وعن ابن عباس : أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما حرم الله ؛ إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين .

﴿ **إن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾ فلا يؤاخذكم بما سلف منكم فى زمن الجاهلية إذا أنتم عملتم بشريعة الإسلام ، ومن مغفرته أن يمحو من نفوسكم آثار الأعمال السيئة ، ويغفر لكم ذنوبكم إذا أنبتم إليه ، ومن رحمته أن شرع لكم من أحكام النكاح ما فيه المصلحة لكم ، وتوثيق الروابط بينكم لتتراحموا وتتعاونوا على البر والتقوى .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .